٢٠١٧

أسرى الزمان

عبد الجبار عدوان

٢٠١٧

أسرى الزمان

رواية

دار الفارابي

الكتاب: ٢٠١٧، أسرى الزمان
المؤلف: عبد الجبار عدوان
الغلاف: نورا عدوان

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) – فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ٣١٨١/ ١١ – الرمز البريدي: ١١٠٧ ٢١٣٠
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: أيار ٢٠١٨

ISBN: 978-614-432-890-3

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة إلكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار.

المحتويات

إهداء إلى... ٩
تمهيد ١١
البروفِيسُور ١٥
خِيانَةٌ بالسَلِيقَة ٢٧
أَلْزَهْ ورِفاقُها ٣٢
شَيْطانُ العَقْل ٣٨
أَقارب ومَحَارِم ٤٥
الجِنْسُ العَرَبِي ٥٦
جِيناتٌ وهِرْمُونات ٦٥
الراعي والقَطيع ٧١
غَيْبِيّاتٌ وأساطير ٨٣
غَريزةٌ وحِرْمان ٩٣
هايْدِلْبِرْج ١٠٤
تَفْجِيرُ الحُب ١١٠
المُنْقَرِضُون العرب ١١٨
خَوَاطِر.. وأحلام ١٣٠
الأَنْصار ١٣٨
قَهْرُ الغرائِز ١٤٦

صِراعُ الواعي والباطن ١٥٤
مُعادَلَةُ الحِرمانِ والتَخَلُف ١٦٣
حوْلَ النص المُقَدس ١٧٠
سِر التعاطفِ الأُنثَوِي ١٨٢
الماضي الجميل..! ١٨٨
مَسجِدُ الحُب والتسامُح ١٩٦
بين البَطَلِ والمُجْرِم ٢٠٩
القُدْسُ، بيت لحم، تَقوُع ٢١٦
قيادةُ الإسلام السُني ٢٢٧
سِر العداءِ الإسلامي للعلمانية ٢٤٧

إهداء إلى...

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [سورة الزمر، آية ١٨]

صدق الله العظيم

تمهيد

هذا أكثر مؤلَّف احترت في اختيار عنوانه. أثناء مراجعة النص؛ كنت أسجل ما أراه مناسباً كعنوان يتماشى مع المحتوى، أو المكان، أو الشخصيات، ومن هذه العناوين: جينات، جين وهرمون، المنقرضون، المتخلفون، البروفيسور، هايدلبرج، عرب في بلاد الجرمان، غرائز وخواطر، غلمان وكواعب، كواعب أتراباً، المحرومون، أحاسيس وغرائز، أرض العميان، على باب الله، الهائمون في الأرض، الجهلاء، بلاد الرعيان، المتكلون، الرؤوس المرتاحة، المخدرة، المغيبة، المغيبون، النفق المظلم، المحرمات الثلاثة، الجنس والدين والسياسة، مثلث المحرمات، مثلث الحياة، المشيطنات، عش الشياطين، المُغتصبون، البائدون، التفكير بالأذن والعين، احتقار العقل، أنت السبب، العقل الممتد، أسرى الماضي، أسير الزمان، عشق الظلام، الظلام الجميل، عقول هرِمة، الراعي والقطيع، القاع المزدحم.

كل من العناوين أعلاه بمنزلة صدى لبعض ما ورد في الرواية، وأيضاً لرؤيتي الخاصة ومعرفتي بالمحتوى، لكن أيًّا منها لم يعبّر عن روح شمولية للنص! بالطبع لا يمكن تلخيص أي محتوى لرواية في بضع كلمات كعنوان، إلا إذا كانت تدور حول شخصية محددة، أو موضوع معلوم، أو وصف مكان.

هذه الرواية تتفاعل، من منطلق علمي وأكاديمي، مع قضايا تهم

الإنسان والمجتمع؛ تدور أحداثها في ألمانيا وبالتحديد مدينة «هايدلبرج» وجامعتها الشهيرة وريفها البديع، حيث طلاب أجانب وألمان، وتجمعات لاجئين جدد، وعمليات إرهاب مشوشة، ولجان تضامن تعمل منذ عقود، ونقاشات حول الوضع السياسي والاجتماعي في المنطقة في زمن ما بعد انتخاب الرئيس الأميركي دونالد ترامب. لكن الرواية أيضاً تتطرق إلى قضايا قديمة متأصلة حتى الآن في مناطق متفرقة من العالم التي تتقاسم صفات الفقر والتخلف، مثل عادة زواج الأقارب، وإشكالية فرض الحرمان الجنسي، وسيادة التسلط الديني والسياسي.

وتراعي الرواية أيضاً اكتشاف دور الجينات والهرمونات في مسار الصحة والتفكير، وذلك حسب أحدث الدراسات العلمية والتجارب الاجتماعية، وهي مُصَوغة في تركيب روائي لا يخلو أيضاً من حب وخيانة وهجران.

تتداخل في هذه الرواية الحقيقية الأحداث اليومية بجمالها ورعبها محلياً وعالمياً، والحوارات في محتوى الأبحاث الجامعية، وتختلط مرةً بعد الأخرى النظرة إلى علاقة الرؤية السائدة بين الأديان والتخلف، وتَفحُص تأثير الحرمان الجنسي في المجتمع، وانخراط السياسة في كمية هائلة من التدجيل كما تثبت الأحداث اليومية. هذا الخليط هو الوصفة الرئيسة لاستمرار الجمود حيناً والتقهقر في المنطقة أحياناً أخرى لغالبية الأفراد وكل المجتمعات، ولا يحرص على استمرار تعاطي هذه الوصفة وصنع التخلف سوى القلة المستفيدة منها.

المجتمعات الهانئة، المتناغمة مع ذاتها، الراقية في ثقافتها، والمستفيدة من انطلاق طاقة شبابها، هي تلك التي حلت معضلة مثلث المُحرمَات باحترامها حرية الأديان وعزل الدين عن السياسة وعن أدوات الحكم،

وتَقنين السياسة بأُطرٍ ديمقراطية تفرض وتتقبل التداول والمحاسبة، والتي تخلّصَت من مسبباتِ التمييزِ والحرمانِ الجنسي؛ فتحَوَّلَ لديها بنسبة مطردة مثلث المحرمات إلى مثلث للحياة.

هكذا فكرتُ أن عنوان مثلث الحياة، أو مثلث المحرمات، قد يكون مناسباً، لكن فجأةً تنبهت أنَّ الأحداثَ الفعلية التي تشملها الرواية كلها تدور في عام ٢٠١٧؛ فهو عام انتخاب «دونالد ترامب» المسؤول عن كوارث حدثت وأخرى قادمة لا محالة، وعام تَشجّع النساء في العالم الغربي للكشف عن عشراتِ حالاتِ التحرش الجنسي في عالم الفن والسياسة والاقتصاد، وعام الانعطاف من دعم داعش إلى قِتالها، والاختلاف العلني بين دول الخليج فيما بينها، ومع تركيا، على قيادة الإسلام السني، وبالطبع هو عام انقلاب ولي العهد السعودي، محمد بن سلمان على الوهابية؛ والفساد؛ وعلى العائلة المالكة، وعام انتفاخ الصراع السعودي الإيراني، وتصعيد الخطر في اليمن ولبنان، وربما ما شهدته الأيام الأخيرة من هذا العام يكون بداية ربيع على ضفتي الخليج. أيضاً كان عام وعود، أو تهديدات لفرض حل وإنهاء للقضية الفلسطينية في إطار تفاهمات وتقارب إقليمي لم يكن يخطر على بال!! هكذا استقر الرأي على «٢٠١٧» – كونه مع كل ما أخبرتكم به من عناوين – يفي تماماً بالغرض عنواناً لهذه الرواية.

عبد الجبار عدوان
ملقا – الأندلس
يناير ٢٠١٨

البروفِيسُور

«بعد هذا التمهيد الذي سَمِعتُموه؛ هل يوجد بينكم من لديه تعليق قبل أن نتعمق في الشروحات؟... تَمهل البروفيسورُ وجال بنظرهِ على وجوهِ طلابهِ وأضاف: «... أيُّ تعليق سلبي أو إيجابي أو استفساري؟! لا ترددوا».. التقتْ عيناه عيني حميد، فشجعه البروفيسور بإشارةٍ من يده ليدلو بدلوهِ.

«لدينا في فلسطين وبلاد الشام ومصر ودول الخليج بعض الأمثلة الشعبية الدارجة، التي تؤيد نظرية حضرتك». توقّفَ حميد لحظةً بحثاً عن المعاني اللازمة لترجمة مفهومة إلى اللغة الألمانية للأمثلة التي تؤيد نظرية أستاذه.. «حط الجرة على تُمها تِطلع البنت لإمها»، وفي مصرَ يقولون: «ابن الوز عوّام»، وفي الخليج العربي يُقَال في حالةِ التشابه بين الأجيال: «بنت الخوّاضة خوّاضة».

«فهمت ابن الوز عوّام؛ وتقريباً البنت والأُم والجرّة، لكن ما قصة الخوّاضة؟ أظن أن زملاءك أيضاً لم يفهموا قصدك حتى لو كانت ترجمتك من العربية إلى الألمانية صحيحة». كانت غرفة التدريس تضم حوالى ثلاثين من الطلاب الذين سجلوا لهذه المحاضرة في قسم الاجتماع برغم من كونها مادة علمية الشكل والمحتوى، إذ تدور حول آخر الاكتشافات عن الجينات الوراثية والهرمونات؛ ودورهِمَا في تحديدِ أشكالِ وبناء صفات وتصرفات البشر، والتحكم فيها.. جل الطلاب ألمان من الجنسين،

وبينهم فلسطيني وسوري وتركية كردية وياباني. لقد تَحدّث البروفيسور في التمهيد عن أهمية فهم دور الجينات والهرمونات بعد أن قطعَ العلم شوطاً طويلاً في التعرفِ إلى ماهيتهِما ودورهِما في تحديد تصرفات الأفراد والأُمم، فهُما يتحكمان في الإنسان الذي يظنُّ أنه حر وواعٍ وسيد نفسه، ولن يصبحَ هكذا إلّا إذا استوعب كيفية تحكم الجين في شكله وصحته، وتحكم الهرمون في نفسيته وتصرفاته.

«قصة الخوّاضة تثبتُ معرفة العرب بتوارث الجينات في الحيوان والإنسان، وإن كانت القصة هنا موجهة ضد الإناث، كالعادة». قال حميد ونوّه بملاحظته أنه لا يعادي الإناث مثل غيره، وكما يُشاع عن العرب والمسلمين، وأكمل مفسراً هذا المثال: «باختصار؛ قَتل أعرابيّ زوجته بعد ثبوت خيانتها، وكان لهما طفلة صغيرة اهتم والدها بتربيتها حتى كبُرت، فصار يُطْلِقُها لترعى الإبل، وذات يوم ماطر تشكلت سيولٌ قوية؛ وتَمَنّعت الإبل عن الخوض في ماء الوادي في طريق عودتها.. نادت الابنة من خلف الإبل والدها أن يدفع بناقةٍ محددة للمقدمة لتخوضَ في الماء فتتبعها البقية. سألها والدها إذا كانت متيقنة بما تقول! فأخبرته أنها شاهدت أم هذه الناقة تخوض في الماء، وقالت لوالدها: بنت الخوّاضة خوّاضة. هنا أضمر والدها لها شراً ودفعها في السيل الجارف واعتقد أنها ماتت». ضحك بعض الطلاب وتأَفّفت معظم الطالبات، وخطر لأنيتا أن حميد هذا يشبه والده.

«هذه بدايةٌ ممتازة لموضوعنا؛ في كل المجتمعاتِ ثمة أمثلةٌ تثبتُ معرفة الناس بالسليقة باستنتاجات علمية يتم التوصل إليها تباعاً عبر الدراسة المجتمعية أو التجارب العلمية البحتة. الفارق بين المعرفة بالسليقة والاستنتاج العلمي أننا أصبحنا الآن في بداية معرفة الأسباب، وستكون الخطوة التالية للبشر أن يتعلموا ويستفيدوا من هذه المعرفة،

لتحسين الصحة والنفس». كان البروفيسور يورجن يتحرك جيئةً وذهاباً أمام السبّورة، ثم كتبَ بالطبشورة: الخواص الجسدية؛ «من يعطينا أمثلة من واقعه العائلي أو المجتمعي على توارثِ الخواصِ الجسدية؟».

«لدينا في العائلة توارث لمرض سرطان الثدي».. قالت أنيتا وتحولت بعض الرؤوس المحيطة إلى صدرِها ثم إلى وجهِها وأنصتُوا.. «أُمي وجدتُها أُصيبْتا بسرطان الثدي، وربما أسلافهما أيضاً؛ ولكن لا توجد سجلاتُ عائلية تؤكدُ أو تنفي امتداد هذا المرض عبر الماضي، نحن أصبحنا نعرف الآن أنه مرض وراثي لهُ علاقة بالجينات». رمَقَها سامي بنظرةِ عطفٍ وجَالَ في ذهنِهِ أنه على استعداد للصداقة الحميمة معها حتى لو كانت وارثة أُمها وجدتها. كانت ذات قوام ممتلئ ولكنه رشيق بحيث يُبرز قميصها تفاصيل صدرها.. تَذَكرَ اللباس النسوي الأسود في سوريا منذ انطلاق الفوضى وتفضيل الجميلات وأهلهن إخفاء وجوههن ريثما تحين فرصة الرحيل عن البلد!.. أفاق سامي على صوتِ البروفيسور:

«هذه حالةٌ كلاسيكية أن يقفزَ المرضُ جيلاً ثم ينتقل من الجدةِ إلى الحفيدة، ليس في حالة سرطان الثدي فقط؛ إذ يعتمد هذا على تركيب السلّم الجيني الوراثي، لكن ما يهمنا في المجال الاجتماعي هو تجاهل الناس، حتى زمن قريب، لنتائج معرفتهم المتراكمة بالشيء. لدينا حالة ربما تكون فريدة في هذا المجال، وهي الممثلة الأميركية أنجلينا جولي التي استأصلت ثدييها بعد معرفتها باحتمال أن ترثَ المرض.. بالطبع لا يقدم كل الناس على عمل مشابه، ولكن المعرفة بالأمر الآن تدفع المعنيات إلى فحوصات متكررة حتى إذا ما شَعرن بالإصابةِ يَسهُلُ التعاملُ معها بسرعة قبل استفحالها. التجارب العلميةُ قائمة الآن على عزل (الكرموسوم) المسبب لتوريث السرطان أو غيره من الأمراض المتوارثة».. استدار

البروفيسور يورجن إلى السبورة وخط علامة زائد وعلامة استفهام إلى جانب ما كتب قبل قليل.. «الخواص الجسدية»، والتفت إلى الطلاب.

«التشابه في تقاسيم الوجه بين الولد وأبيه أو أُمه.. «توقف بيتر؛ ثم أكملَ قبل أن يتحدث البروفيسور: «أو جَمع الابن أو البنت بين شكل الوالدين».

«نعم تشابه الشكل ناتج من الجينات الموروثة» قال البروفيسور وأكمل: «البشر والحيوان يعرفان تماماً احتمال تشابه الأجيال؛ الحيوانات والطيور تختار الأكثر صحة وجمالاً ليكون شريكها للإنجاب؛ لكن البشر يتأثرون بعوامل اجتماعية تدفعهم لتجاهل الغرائز والمعرفة المتراكمة، والإصرار على ارتكاب الخطأ الجيني. هناك التزاوج المصلحي للحفاظ على الأرض أو الثروة أو الحكم، وبالتالي يتزاوج الأقارب للاحتفاظ بالمصلحة بينهم. الإقطاعيون فعلوا ذلك وبعض الأباطرة الرومان أيضاً تزوجوا أبناء أخواتهم، والفراعنة تزوجوا أخواتهم للحفاظ على السلطة ضمن العائلة. كانت النتيجة باستمرار توالد نسل مريض. بعض المجتمعات حتى الآن تقْدم على الزواج من الأقارب لأسباب قبلية أو مادية». نظر البروفيسور إلى طلابه الأجانب المسلمين وأضاف: «العرب مثلاً، كانوا قبل الإسلام يتعاملون بالتبضع، أي يسمح الزوج الضعيف لزوجته بالتبضع لدى رجل قوي وذكي لتنجب منه طفلاً ذا صفات جيدة. لكن الدين الإسلامي حرم ذلك.. وكانوا، ولا يزالون يعطون حقوقاً لابن العم على بنت العم، والمسلمون عموماً يتبعون أسلوب دفع المهر لأخذ البنت، وبالتالي من يفتقد المال أو الإبل ليقدمها مهراً لغريبة فلا يجد أمامه سوى أخذ إحدى قريباته بسعر زهيد».

«إذا تجاوزنا الأسباب الاجتماعية، ما الخطأ في زواج الأقارب؟»..

سألت إستيرا البروفيسور بشكل مباشر، وظهرت علامات استغراب على بعض الطلاب لأنها على ما يبدو لم تفهم إلى الآن ما قيل طوال المحاضرة وما أصبح من المسلمات في المجتمعات الغربية.

«الأسباب الاجتماعية على قدر من الأهمية بالطبع، فالأفضل للمجتمعات والأُسر وجود حُرمة جنسية بين الأقارب منذ الصغر، بين الأخ والأخت، بين الذكر والأنثى من الأقارب الذين يتربون متقاربين وربما في بيت واحد؛ بدون تلك الحرمة نصبح مثل الحيوانات التي تتضاجع بدون رادع اجتماعي. أما الأسباب الصحية فهي جلية تماماً، إذ تكثر الأمراض الوراثية بين أطفال زواج الأقارب؛ مثل أمراض الدم والسمع والنطق وغيرها؛ يتعاظم الخطر على الأطفال جيلاً بعد جيل. بذلك نصبح أمام حالة تراكم لمرض معين أو أكثر دون إدخال عناصر جديدة تخفف من فرص التراكم». توقف البروفيسور ونظر إلى إستيرا التي كانت تهز رأسها موافقة على ما تسمع.. «بالتأكيد لديك أمثلة من كردستان تؤيد ما أقول».. واصلت إستيرا التأييد بحركات من الرأس ولكنها لم تذكر أي أمثلة وبدا وكأنها تتذكر بعض الأشياء. «عموماً.». قال البروفيسور يورجن وهو يجيلُ ناظريه على الطلاب».. حبذا لو كتب كل منكم بحثاً موجزاً عن مشاهداته الشخصية حول ما تحدثنا به اليوم لنتناقش في بحوثكم هذه قبل الانتقال إلى البحوث الجماعية التي ستحدد مستواكم لهذا الفصل».

نظر البروفيسور إلى الساعة في معصمه، وكذلك فعلت إستيرا التي استنتجت بقاء عدة دقائق لانتهاء وقت المحاضرة، فقالت: «الحرمة الجنسية بين الإخوة طبيعية، ولا تُقَارن بالحرمة بين الأقارب وأبناء العمومة، وهناك الكثير من الأقارب المتزوجين ولديهم أطفال غير مرضى». لاحظ يورجن أن سامي يؤيد إستيرا بإيماءات جسدية بينما ظهر الحياد على ملامح بقية الطلاب الألمان الذين تربوا على تحريم زواج أبناء العم والخال.

«ماذا يعني اسمك بلغتكم؟» سألها يورجن فقالت إستيرا: «تعني دمعة بالكردية». «جميل، لا يوجد يا إستيرا شيء طبيعي في الحُرمة بين الأخِ وأختِهِ.. الحرمة هي نتاج تربية اجتماعية تتخللها عوامل دينية، وهذه الحرمة غير متوارثة عبر عصور البشرية. دعيني أُخبرك أنه لا يوجد شيء عضوي في الإنسان يُفشي له سر التعرّف إلى أخ أو أخت؛ إذا افترق الاثنان منذ المولد ثم التقيا بالصدفة في سن النضج الجنسي فقد يتحابان ويتعاشقان من دون رنين أو إنذار داخلي لدى أي منهما. إذاً الحرمة نتاج تربية اجتماعية، وإذا تهاونت هذه التربية تكون النتيجة ممارسة الجنس بين الأخ وأخته، وهذه الحال منتشرة كثيراً في السر لدى الأُمم المحرومة جنسياً وخصوصاً في الأوساط الفقيرة، وسنعود إلى ذلك في القادم من المحاضرات». نظر البروفيسور مجدداً إلى ساعته وأكمل حديثه: «تقولين إن زواج أبناء العُمومة لا يوَرث الأمراض.. هذا غير صحيح فهناك أمراض نفسية غير منظورة لدى الصغار، وربما في حالات زواج استثنائي كهذا يكون الأجداد غير متقاربين مع زوجاتهم، وبالطبع إذا تحلى الأب والأم بذكاء أو جمال فقد يورثان ذلك إلى الأبناء، لكن النتيجة سلبية للأجيال التالية.. بودي أن يكون بحثك المختصر للأسبوع القادم حول مشاهداتك في مجتمعك لنتائج زواج الأقارب، حاولي التعمق في تحديد آباء وأجداد الزوجين، وابحثي في النواحي السلبية لدى الأبناء... أراكم جميعاً في المحاضرة القادمة لنناقش ما توصلتم إليه قبل التعمق في هذا المجال». جمع بعض الطلاب حاجاتهم وسجل بعضهم الآخر ملاحظات عما سيبحثون، وباشروا تدريجاً المغادرة.

اقترب سامي من أنيتا أثناء الخروج من الغرفة وسألها إذا كانت ستكتب عن وضعها العائلي، ثم أكمل حديثه بعد أن نظرت إليه دون إجابة وأبلغها أن لديه في العائلة الكثير من حالات زواج الأقارب ولديهم

مشاكل متنوعة. تمنت له التوفيق وتذكرت مقولة جدتها: أن عقل الرجال بين أرجلهم، ثم انطلقت تهبط الدرجات بسرعة إلى الطابق الأرضي وهو يراقب مؤخرتها الكروية المحشورة في بنطال رقيق أدكن اللون ولا يخفي خطوط سروالها الداخلي.. شعر برفضها له وقال مُطَمئِناً نفسه: «إنها انطوائية؛ وربما تكره كل الرجال». وقفزت له خاطرة أن أنيتا مُغتصَبَة من أحد أقاربها وهذا ما يبعدها عن جنس الذكور. لم تراوده إمكانية أن يكون لديها صديق أو شعورها بثقل دمه منذ اللحظة التي حدّق إلى صدرها أثناء حديثها عن سرطان الثدي. هبط عتبات الدرج مشتت الفكر بين أنيتا؛ ومحاولة تَذكر حالات مرضية يجب أن يكتب عنها، وموعده هذا المساء مع شبان عرب للبحث عن شقق تُؤَجّر للاجئين السوريين، فيما لم تخطر على باله صديقته ماريون. خرج من باب كلية العلوم السياسية إلى الشارع الرئيس في المدينة القديمة واتجه تلقائياً إلى اليمين بين أبنية قديمة أثرية لم تُعان دمار قصف الحلفاء الجوي أثناء الحرب العالمية الثانية. لم يتنبه لخليط الناس من الألمان والسياح اليابانيين والآسيوين الذي يسيرون متلفتين بأعينهم وكاميراتهم. سمع رنين جرس قطار الشوارع الذي يحذرُ المشاة ليبتعدوا عن مجراه، فانحرف إلى اليسار وتوقف أمام محل يبيع سندويتشات تقليدية.. سجق وبرجر وفريكدله وسلطة بطاطا، وعدة أنواع من الباتيه وغير ذلك. اشترى «فريكدله» وُضعتْ له وسط قطعة خبز طازجة مستديرة، «بروتشن». أضاف عليها الخردل وغلفها وخرج من المحل ثم اتجه يساراً في شارع جانبي يؤدي إلى الجسر الحجري القديم الذي يقطع نهر النيكر.

من منتصف الجسر شاهد صبايا وشباناً يفترشون العشب على الضفة الأُخرى للنهر؛ اتضحت الرؤيا حين تنقل بين المتمددين والمتمددات إذ

كان معظمهم عاري النصف العلوي لامتصاص أشعة شمس ستغيب بعد ساعتين.. كانت الأمطار قد هطلت آخر مرة قبل يومين وفي نهاية الأسبوع، وكالعادة جف العشبُ بتأثير شمس الربيع، والشبان يكتسبون فيتامين «دال» مجاناً، بينما بعض العجائز يجلسون على مقاعد متناثرة بنظام بين العشب وحافة الشارع؛ افترش سامي العشب بحيث يمكنه مراقبة الكثير من المتشمسين وهو ينظر إلى النهر.. فتح الشطيرة وبدأ يقضم بتلذذ هذه «الفريكدله» المصنوعة من خليط لحم عجل وخنزير مفروم مع خبز ناشف مبشور، وبصل وبيض، لتصبح مكورة منبسطة في المقلاة.

انشد إلى صدر فتاة مستلقية على ظهرها وتبدو حلمتاها كرؤوس متفجرة لقذيفة «آر بي جي»، لاحظ أن الصدر غير منهدل رغم وضعية الفتاة على الظهر فتأمل كم سيكون صدرها مشدوداً في كل الأوضاع.. انقلبت الفتاة على بطنها وقَبلتْ صديقها إلى جانبها، وأبصرت نظرات سامي الذي رفع رأسه إلى أعلى وواصل مضغ آخر قضمة من طعامه، وتظاهر بأنه يراقب قلعة هايدلبرج الشهيرة المبنية من الحجر الرملي الأحمر، وتعتلي هضبة من الغابات على الضفة المقابلة. كان سامي يعرف أن بناء هذه القلعة كان لأسباب عسكرية، وقد استغرق أكثر من مئتي عام في الفترة ما بين (١٤٠٠-١٦١٩م)، وأنها باتت وجهةً للسياح الآن، وفيها أكبر برميل نبيذ في العالم يسع (٢٢٠٠٠٠) ألف لتر.

خفض سامي رأسه ولَمحَ أن الجميلة أمامه أصبحت تُشمس ظهرها؛ وأن كتاباً تطالعه يحجب وجهها وصدرها المتدلي عن نظراته.. استلقى على ظهره، ثم استدار على جانبه الأيمن، وأركز رأسه إلى كف يده، فاكتشف ظهر شاب أمامه، واتضح له أن يده اليسرى لا تساعده على تقليب الأوراق فاستلقى على بطنه، ووضع حقيبة الكتب أمامه. لم يتخلص من

أي قطعة ملابس عن جسده، وبدأ يتعامل مع مفاتيح هاتفه الذكي إذ أراد تسجيل بعض الأفكار التي راودته عن موضوع المحاضرة، وما سيكتب من الذاكرة في بحثه الموجز.

في القرية، سادت إشاعات عن حملِ أخت من أخيها والتخلص من الجنين بعد وضعه.. أعاد سامي شطب هذه الملاحظة، وأخذ يُحصي على أصابع يديه ما يتذكره من أسماء الذين تزوجوا من أقاربهم. سجل في ذهنه رقم العشرة الأُول وعاد يُحصي بقية ما يعرفه على أصابعه.. قرر أن يوقف العد عند العشرين، وسجل الرقم في مذكرة هاتفه الذكي، وعاد يتذكر القرابة بين أزواج آباء هؤلاء، وأيقن أن خمسة منهم تزوجوا أيضاً من أقاربهم ولم يتمكن من تحديد درجة قرابة الباقين من الآباء. سَجل ملاحظاته وقفز إلى ذهنهِ أن أحد الأبناء المتزوجين قليل السمع، ويُلقب في القرية بالأطرش، وأن أخاه غير المتزوج على باب الله، أما بنت الأطرش الذي تزوج بنت خالته فهي حولاء نحيفة الجسم، وسارت مراراً في شوارع القرية ويدها مجبرة بالجبس. سجل في مذكرته: ربما لديها أمراض في العظام.. ارتاح سامي لهذا الاستنتاج وقفزت إلى ذهنه ذكرى أحد رواد فصله في المرحله الابتدائية، كانت شفتاه السفلى والعليا مشقوقتين من الوسط، ولقبه الأطفال بالجمل، وكان يواجه صعوبة في النطق، وانتقل من المدرسة إلى العمل في الزراعة مبكراً. لم يكن الجمل من قرية سامي ولا يعرف إذا كان نِتاج زواج أقارب أم لا، ولكنه قرر أن يشمله في بحثه الموجز.. سَجلَ أيضاً أسماء خمسة من أقاربه توارثوا مرض السكري؛ فَكرَ أن يشمل ابن عمه في الدراسة؛ وهو نتاج زواج أبناء عمومة، ويتصف بالغباوة؛ إذ لم يفلح في دراسة أو معاش، لكنه اكتفى بحصيلته الأولى من الحالات، وقرر أن يخطها على الورق عندما يعود إلى البيت هذا المساء.

انقلب على جنبه الأيمن ووضع راحة يده بين العشب ورأسه، واتخذ قراره أن يكتب إلى والده بتخَلِّيهِ عن فكرة زواج ابنة عمه «أزهار» حتى لا تضيع عليها أي فرص زواج محتملة الآن. ارتسمت علامات حزن على وجهه وهو يتخيل ردة فعلها عندما تسمع قراره هذا.. كان يحبها قبل أن يهربوا من الحرب ويتشتتوا في المهاجر، ولم تراوده فكرة هجرانها في السنوات الثلاث التي قضاها في ألمانيا حتى الآن، بل كان يتصرف غرامياً هنا كوضع موقت ريثما يلتقي ابنة عمه التي تنتظره بعفة وبدون أي تجارب جنسية. «سأتزوج سُورية فالسوريات أصبحن كثيرات هنا في ألمانيا»، قال في نفسه وقد شعر بدسم «الفريكدله» في معدته.

كان في طريقه إلى دمشق سيراً على الأقدام ترافقه أخته؛ عندما التف بهما الشارع شاهدا حاجزاً ومسلحين، حاول الاستدارة ليعود من حيث أتى؛ ولكن ساقيه لم تستجيبا له.. تنبه لهما المسلحون على الحاجز، وسمعهم ينادونهما بعامية فظة أن يتقدما.. كان عقله يرفض الاستجابة وساقاه عاجزتين عن الحركة.. أخذ جسمه يطفو عن سطح الأرض ويتحرك بغير انتظام إلى الحاجز، حاول الالتفاف بحثاً عن أخته ولكنها ظهرت تطوف فوق الحاجز وهم ينظرون إليها من أسفل ويهددونها بالإسقاط من الجو!! أفاق على لعاب كلب يلحسُ بقايا الطعام عن وجهه.. قال للكلب الصغير شكراً واعْتدلَ في جلسته، ثم نهض وغادر المكان قبل أن تنتظم دقات قلبه من تأثير هذا الحلم الذي يتكرر مع بعض الأحلام الأخرى المزعجة التي تعيده في معظم الليالي إلى الشام.

وجد جودت ورأفت وصالح ينتظرونه في بيت علي؛ يتناقشون في شأن مداهمات الشرطة لعدد من مقار إقامة اللاجئين السوريين في مدينتي هايدلبرج ومانهايم القريبة بحثاً عن أسماء محددة. لم يكن سامي

قد سمع بالخبر قبل الآن، وقد حضر هذا الاجتماع ضمن جهود البحث عن شقق يمكن للاجئين استئجارها؛ فرغم أن الحكومة تدفع بدل أُجور سكن لمن يجد مكاناً إلا أن أصحاب البيوت الألمان أصبحوا يتخوفون من تأجير بيوتهم للاجئين، وتَشكلت عصابات عربية توفر السكن؛ ولكن بثمن مالي إضافي باهظ بدل هذه الخدمة، لهذا تطوع سامي للبحث عن مساكن مع جودت ورأفت اليساريين، وصالح وعلي المتدينين. كانوا حتى الآن يطالعون إعلانات الإيجار في الصحف صباح كل يوم سبت، وينطلق كل منهم إلى إحدى الشقق المعلن عنها؛ ويحاولون طمأنة وإقناع أصحابها بعدم خطورة تأجير اللاجئين، ويعدونهم بجلب ما يناسب شقتهم من مستأجرين، ويعلنون استعدادهم لحل أي مشكلة، ويقدمون ضمانات شخصية؛ مستفيدين من تمكنهم من اللغة ومعرفتهم بطباع الألمان. كانت نسبة نجاحهم إلى الآن في العثور على بيوت لم تتجاوز ثلاثة بالمائة.

اقترح جودت إيجاد آلية تعاون بين تجمعات اللاجيئن في مقارهم الجماعية والشرطة المحلية للقبض على عناصر السوء على أنواعهم؛ وقال إن هذا يحسّن موقف اللاجئين، ويطمئنُ الألمان إلى المدى المتوسط، ويزيلُ أسباب الأحكام المسبقة الجماعية التي بدأت تؤثر في الألمان نتيجة لبعض العمليات الإرهابية والتصرفات غير المسؤولة لزعران لا يمثلون الأغلبية السورية. لكن صالح اعترض على هذا الرأي وحجته أن مثل هذا التعاون مع الشرطة سيؤدي إلى الإضرار بكل من يصلي ويعبد ربه بين اللاجئين، وستتهم كل فئة الفئة الأُخرى بالاستعداد للإرهاب، وكل من يريد منفعة شخصية سيرى أن عليه الإضرار بغيره! تَدخل رأفت مذكراً أن وظيفتهم هي المساعدة على إيجاد بيوت للإيجار، ولكن لا يضر أن يُشجع الناس على ردع الإرهاب والإفشاء للسلطات بمن يعرفون أنه يستعد لأعمال

إرهابية ضد أناس ومجتمع استقبلهم في البداية بالأحضان والمساعدات، والآن يتراجع الدعم المعنوي للاجئين كل يوم نتيجة لتصرفات غير مسؤولة لقلة من الأفراد.. كان رأفت الأكبر سناً واحتراماً بين المتطوعين الخمسة، وذكرهم بمهمتهم الرئيسة؛ وأن كل سوري يتحمل مسؤولية نفسه. وقال إن الاتفاق أو الخلاف حول اقتراح مساعدة الشرطة يفترض ألا يعنيهم؛ وأن اتفاقهم لو تم؛ فلن يجد آذاناً مصغية لدى اللاجئين؛ لأن الثقة مفقودة بين العربي والسلطة على مدى أجيال. تذكر سامي محاضرة اليوم؛ وقال ممازحاً: «إن الجينات العربية تعادي السلاطين، خصوصاً السلطان الذي يرى نفسه كالنسر ومن حوله الجيف، ولا يريد أن يكونَ جيفة ومن حولها النسور». ضحكوا وعادوا إلى جدول أعمالهم السابق بمراجعة ما أنجزوا وبعدد الطلبات لديهم ممن يبحثون عن مساكن.

خِيانَةٌ بالسَلِيقَة

في المطبخِ المشترك لسكان الطابق حَيا سامي صديقتَه ماريون، وشعر أنها منزعجة من شيء ما. أعاد النظر إليها وهو يسألها إذا أرادت كأساً من الشاي باشر في إعداده، فعرف أنها منزعجة منه شخصياً، فلو كان السبب شيئاً آخر لبادرت إلى إخباره بذلك؛ سواء لطلب المشورة أو للتبليغ عن سبب الانزعاج إن كان خبراً سياسياً أو معيشياً أو عائلياً، فالمنغصات متتالية كل يوم وأحياناً طوال اليوم، ولا يخفي كلاهما عن الآخر تفاصيلها. وضع السكر والكاسات على الطاولة أمامها، وأزاح الكتاب الذي تطالعه وسألها ما الأمر؟!

«أسأل أريكا ما الأمـر»؟!.. ردت باقتضاب وأعادت الكتاب إلى موضعه. ارتفع صفير غليان الماء فتوجه إلى الغاز وأطفأه وصب الماء على الشاي في البراد.

«ماذا تقصد بهذا الجواب؟ وماذا قالت أريكا لها»؟!.. لا يوجد شيء بينه وبين أريكا التي تقطن في غرفة انفرادية معهما في الطابق نفسه! حمل البراد وعاد إلى الطاولة وجلس قبالتها.

«أسأل أريكا عن ماذا»؟ قال لها وهو يصب الشاي قبل أن ينتظر الوقت الكافي لاكتسابه النكهة.

«اشتكت إلي أنك تَدخل عليها غرفة الدش أثناء الاستحمام، وتنتهز الفرص للتمعن في جسدها، وقالت إنك ترميها بكلمات غزل ذات معان

متعددة». رفعت رأسها ونظرت إليه وهي تنطق بالجزء الثاني من هذا الاتهام.

«هذا ما يُزعجكِ إذاً، أصبحتِ مثل العربيات تغارين وتُصدقين النميمة!» لقد قرر الدفاع عبر الهجوم.. «عندما تدخلين إلى غرفة الدش المزدوجة، ماذا تفعلين قبل خلع ملابسك»؟ نظرتْ إليه ولم تفهم قصده، هي طبعاً تدخل للاستحمام! «أليس أول شيء تفعلينه هو إغلاق الباب بالقفل من الداخل؟ وإذا لم تقفلي الباب ودخل آخر للاستحمام في الدش المجاور؛ فهل تطردينه، أو تَحتجين، أو تخبرينه بشيءٍ يعبر عن رغبتك؟». فهمتْ ما يريد قوله، ولكن الشكوى تدعي أنه يلاغِيها؛ ويتعمد النظر إليها رغم الجدار الفاصل بين الدشين! وظنت ماريون بعد سماعها الشكوى أن سامي يتعمد الذهاب للدش في مواعيد أريكا، ثم استدركت أن المشتكية لا مواعيد محددة لها، ودار في ذهنها تساؤلات: فعلاً لماذا لا تغلق الباب من الداخل؟! ولماذا تشتكي إليها ولم تطلب من سامي الكف عما تتهمه به؟!

تناولت كأس الشاي التي دفعها نحوها ونظرت إليه بعينين مُتطلِعتين لإكمالِ دفاعه.. «هي ليست بتلك العفة التي تتصنعها؛ ويمكنني أن أُثبت لك ذلك وقتما تشائين». ارتشف من الشاي وأضاف «أنها تغار من علاقتنا وتناغمنا، وربما تريد القول إن جسمها أجمل من جسمك، وإني أشتهيها أكثر منك، وهذا يعني أن كلينا أقل منها شأناً..هي تقول لنا إن الغربَان على أشكالها تقع وهي طاووس». ضحكت وانتقلت إلى الحديث عن مجريات يومها، أما هو فكظم غيظه من أريكا وقرر أن يبالغ في ملاحقتها في الدش؛ والنظر إلى جسدها؛ ولكنه سيقاطعها الحديث. سيدخل بعدها بفترة قصيرة وسيتمعن في لحظات استعمالها الشامبو، وينظر إلى الرغوة تسيل على تضاريس صدرها أو مؤخرتها، ويبقى تحت الدش حتى تنتهي وتخرج من

كابينتها عارية لتنشف جسدها أمامه. لن يدير لها ظهره؛ ولها حرية النظر إلى قضيبه سواء كان منتصباً أو مسترخياً، وإذا لم تعجبها هذه الحال فعليها إغلاق الباب.

«إنتَ زعلان منها»؟ خلص إنس الأمر، وإذا اشتكت إلي ثانية سأطلب منها أن تخبرك بذلك؛ ولا تُدْخلني في ما يُزعجها أو يُرضيها». قالت ماريون لسامي وقد لاحظت أنه لم يستوعب شيئاً من حديثها عن مجريات يومها.

شاركته في تنظيف ما استعملاه من أوانٍ مشتركة لكل الطلاب والطالبات العشرين في الطابق العاشر لبيت الطلاب، واتجها إلى غرفتهما المزدوجة المشتركة. احتل كرسيه أمام المكتب وجلست هي على كرسي مترجح جلباه مما يرميه سكان المناطق الراقية في المدينة أمام بيوتهم في كل سبت من مطلع الشهر. (تبقى هذه الأشياء حتى الظهر في الشارع قبل أن تتحرك سيارات البلدية لجمعها، في تلك الساعات ينتشر تجار الخردة والأثاث القديم والطلاب في الشوارع لاختيار ما يناسبهم من أثاث وملابس ومعدات كهربائية وحاجات أطفال). استدار سامي بكرسيه وواجه ماريون وأخبرها بإيجاز أنه سيبحث صباح الغد عن شقق للاجئين، وحدثها عن محاضرة اليوم وعَزْمِه أن ينجز البحث الليلة قبل أن تتلاشى الأفكار من رأسه.

«بإمكانكَ التعرض لما يواجهه اليهود من أمراض جراء تزاوجهم من الأقارب وانعزالهم عن الآخرين».

«لم تجدي غير هذا المثال! تريدين أن يتهموني بمعاداة السامية!؟» قال لها وضحك: «سأُوعزُ إلى آخرين بتقديم هذا المثال.. أُفكر في التنويه بتوريث رغبة الجنس من الآباء للأبناء.. نظرتْ إليه وظنتْ أنه لا يزال متأثراً بقصة الدش. أكملَ: «.. وأيضاً توريث صفات معينة مثل الكسل أو

المثابرة، الإفساد والنميمة أو عكسهما؛ وربما عن قوى الحسد الخارقة». سكتَ وانتظرتْ أن يكمِل ويقرر «أتذكر أيضاً بعض نتائج صحية مأسوية لزواج الأقارب». هزت رأسها مؤيدة لآخر ما سمعته، وعادت لمطالعة كتابها والترجح، وقرر هو أن يبدأ بحثه بمثال سلبي عن زواج الأقارب، ومقدمات لتوارث الأجيال للفساد والإفساد، والنميمة والحسد، واستبعد فكرة البحث في الإيجابيات المتوارثة.

أحب سمير ابنة عمه سميرة منذ صباهُما، وتزوجا برضىً من العائلة، وأنجبا طفلة جميلة متعافية. الطفل الثاني الذكر ولدته سميرة معوَّقاً، فجربا الإنجاب مجدداً فجاء الثالث كالثاني تماماً، وعاشا منعزلين عن العالم، وزادت عزلة الثاني وحزن الأبوين عندما توفي الأول المعوق؛ وتَوقع موت الثاني.

إلى جانب هذا المثال الجسدي السلبي لزواج الأقارب لدينا في أحد أفرع العائلة تَوارث للشكل والصفات؛ سمعت كبار السن يتحدثون عن جدٍ اشتهر بالإفساد بين الناس إلى درجة مقدرته على الإيقاع بين القرى، وبين العائلات، بل بين الزوج والزوجة. كنت أظن أنهم يبالغون في الروايات، لكنني عايشت وأنا طفل وصبي أفعال ابن وبنت ذلك الجد؛ وأشهد لهما بالمقدرة الفائقة على الإيقاع بين الناس، وأنهما لا يتركان النمِيمَة أبداً، كما أنهما يتمتعان بالذكاء. وانتقلت صفات البنت نسبياً إلى أولادها، ولكن حفيدتها وَرِثَتْها تماماً في الشكل والأداء؛ علماً بأن والدتها لم تكن من أقارب والدها.. الجد الأول تزوج أيضاً غريبة، وابنته تزوجت من عائلة والدها، أظن أن الصفات المتوارثة جاءت من قوة جينات الجد التي انتقلت إلى الابنة وقفزت جيلاً إلى الحفيدة.

في بلدتنا عاش رجل كان يُراهن الآخرين على قدرته على إعْطابِ أية

سيارة ينظر إليها من بعيد، وحتى يتهرب المراهنون من إمكانية تآمره مع أصحاب سيارات في الحارة؛ كانوا يقفون قرب الشارع ويختارون سيارة من بين التي تقترب منهم، فيطلبون منه إعْطابها؛ فينظر إليها ويتحدث بكلام جميل ومبالغ فيه عن لونها وصفاتها وغالباً ما تتعطل قبل الابتعاد عنهم؛ وإذا نَجت من عينه يطلب منهم السؤال عنها بعد ساعة، فيُصرون على أنه خسر الرهان لهم.. المهم هنا أن كبار السن كانوا يقولون عن والده إنه ينظر إلى الجمل من بعيد فيقول: «الله ما أجملك وأقواك من جمل»؛ فيخر الحيوان المسكين مكسور الساق!! ربما هذا شأنٌ من السحر أو الخوارق ولكني أظنُ أنه متوارث هو الآخر.

أَلْزَهْ ورِفاقُها

حضر جودتْ إلى اجتماع لجنة مناصرة فلسطين متأخراً عشر دقائق، ألقى التحية وجلس مع الخمسة واعتذر عن التأخير؛ وبرره بضياع كل فترة الصباح في محاولة إقناع المُؤَجرين بإيجارِ اللاجئين. أخبرته ألزه أنهم سمعوا شكوى رأفت من الأمر نفسه بينما هم ينتظرونه؛ وكان هذا نقداً مبطناً له لتأخره أكثر من رأفت. ابتلع جودت التلميح وطرح على رفاقهم الألمان أن يشاركوهم في العثور على شقق.

«لسنا مكتباً عقارياً، وإنما نحن لجنة لمناصرة فلسطين، الدولة الألمانية لا تَدخرَ جهداً في مساعدة اللاجئين السوريين، ومشاكلهم هنا يخلقها بعضهم لبعض، وبلدك فلسطين ضاعت قضيته في طي النسيان جراء أفعال حكومتكم، والعبث القائم في الدول العربية التي تنفذ المخطط الصهيوني؛ سواء بعلم أو بجهل». بدأ الاجتماع إذاً بهذا الهجوم من ألزه على جودت، والرئيس الفلسطيني أبي مازن، والقادة العرب، وتجار الحروب الأهلية الدائرة! هذا الموقف يتفق عليه أعضاء اللجنة اليساريون من ألمان وعرب. حضر النادل إلى طاولتهم فطلب زجاجة بيرة مثل الذين سبقوه للاجتماع. في العادة يجتمعون كل أسبوع في بيت أحدهم، أو في مقهى الطلاب المجاور لمطعمهم، لكنهم يلتقون اليوم في حانة توزع طاولاتها على رصيفِ شارعٍ مخصص للمشاة وسط المدينة القديمة، وتقدم لزبائنها الطعام والشراب.

انكمش جودتْ في مقعده فبدا أقصر مما هو، وصمت على اعتبار أن الصمت هو خيرُ جواب، كما أنه لم يشأ بداية اللقاء بمُناكفاتٍ نظرية. أشعل بيتر سيجارة وسحب المِنفَضة قريباً منه، وسحب نفساً ونفثه في الفضاء رافعاً رأسه إلى الأعلى، ثم وضع سيجارته في تجويف المنفضة؛ وقلَّبَ في ملف يحمله به أوراقاً وكتابات، أمسك السيجارة مرة أخرى بيد وسحب ورقة بيضاء وقلماً ليسجل عليها محضر الجلسة.».أقترحُ أن يبدأ جدول الأعمال بتعليقات وآراء حول المستجدات؛ ثم مراجعة ما أُنجز من المهام السابقة؛ وبالطبع تجديد أو استحداث مهام أُخرى». تقوس ظهر بيتر قليلاً وهو ينكب على الأوراق، ولمع شعره الأصفر في مواجهة شمس ما بعد الظهيرة، ولم يعترض أحد على ما قاله.

«موقف الرئيس الأميركي ترامب اتضح هذا الأسبوع بعد استقباله نتنياهو في البيت الأبيض بواشنطن في الأسبوع الثالث على تسلم السلطة. حتى الآن هاجم رئيس الجارة المكسيك وشعبها؛ جارة الجنوب، واستقبل رئيسة وزراء بريطانيا، ورئيس الوزراء الكندي؛ الجار الشمالي، وتوعد كوريا الشمالية، وتحرش بالصين، واستقبل نتنياهو قبل بقية حلفاء بلاده. لم يكن هناك شكوك في موقف هذا العنصري تجاه الصهيونية وهو الذي قرر منع دخول مواطنين من سبع دول إسلامية على الفور، ويُصرّ الآن على تجديد القرار الرئاسي بالمنع بعد إلغاء المحاكم قراره الأول. في ألمانيا تنشغل الأوساط الشعبية الفعالة بتَقدم قوى اليمين العنصري بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأُوروبي ونجاح ترامب، وارتفاع شعبية حزب (لابن) في فرنسا، وبالطبع كل ذلك من تأثير ضغوط اللاجئين على دول أُوروبا. كل هذه التعقيدات بالإضافة إلى الحروب الأهلية العربية والانقسامات الطائفية والسياسية هناك تدفع اهتمام الأوساط الشعبية الفَعالة بقضية

فلسطين إلى المواقع المتأخرة من الاهتمامات؛ ولجان مناصرة فلسطين في كل مدن ألمانيا بحاجة إلى تنشيط المهام القائمة وتجديد في الشكل والنوع». لم تكن ألزه بحاجة إلى توضيح أكثر لبقية الأعضاء، فهذه اللجان تعمل منذ أجيال عبر تعاون طلابي وحزبي يساري؛ وانتقلت من الاكتفاء بالدعاية الداخلية إلى عمليات الدعم الإيجابي في فلسطين بإرسال متطوعين لمساعدة الفلاحين على جمع زيتونهم من أراضيهم المُهَيمَن عليها من قبل المستوطنين، والاشتراك في التظاهرات السلمية عند جدار الفصل العنصري، ومرافقة الأطفال من قراهم المحاصرة في طريقهم إلى مدارسهم. لكن تَعثر القضية الفلسطينية داخلياً؛ وعلى المستويين العربي والدولي أصبح ينعكس سلباً على عمل لجان المناصرة.

كل من يعرف ألزه يقدر عزمها وإصرارها وأحياناً صراحتها الجارحة التي تتماشى مع شكلها؛ فهي أقرب شيء لما تشتهر به المرأة الألمانية؛ شقراء ذات عينين زرقاوين، جهمة الوجه مع قوة ورشاقة، ولا تظهر حنانها ودلالها إلا في الفراش، وبعد لحظات معدودة تعود إلى طبيعتها العملية المُنظّمَة.

سَجل بيتر بعض الملاحظات المُوجزَة على ما قالته ألزه، والتقط رأفت طرف الحديث بعدها وهو يمسح أثر البيرة عن شاربيه المُهذبين بمحاذاة فمه، ويعدلُ قامته الطويلة على الكرسي لِتَظْهرَ نحافة جسده التي لا تتماشى مع طبيعة وجهه.. «بالإضافة إلى إيجاز الرفيقة ألزه يَلزَمَنِي إخباركم بتطور أتوقع أن يعقد الأمور الفلسطينية لوهلة من الزمن.. في مؤتمرهما الصحفي أكد ترامب – ولم يحتج نتنياهو – أهمية وقف الاستيطان الآن، وأنهما سيجدان حلاً لا يتخيله أي من الحضور الصحافيين، وأشار إلى أنه متشجع لحل الدولتين، وأنه لا يمانع بحل دولة واحدة أو دولتين طالما أَسعدَ ذلك

الحل الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي. هذا الكلام فُهِمَ من الكثيرين على أنه يعبر عن رغبة الإدارة الجديدة في حل الدولة الواحدة، وظنوا طبعاً أن الدولة ستكون ديمقراطية؛ وتعامل مواطنيها بالتساوي، وأعرب البعض في وسائل التواصل الاجتماعي عن رضاهم بحل الدولة الواحدة المُفترض، ولم يُخفُوا كراهيتهم لسلطة أبي مازن وحركة حماس، وللقيادات السياسية الفلسطينية عموماً؛ التي اعتبروها المستفيد الوحيد مع إسرائيل من استمرار إسطوانة حل الدولتين».

توقف رأفت ريثما يبلل ريقَه من الزجاجة، وقد شد انتباه رفاقه الألمان لهذا التحرك الشعبي الفلسطيني الرضيع! «إذا رفضت القيادات الفلسطينية المتنوعة الفكرة لسبب أو لآخر، والأسباب في الواقع كثيرة، فإن الصدْعَ بين القيادات والشعب سيتجلى بصور يحددها موقف إسرائيل، وإذا سكتت حكومة نتنياهو ولم ترفض سيفهم الشارع الفلسطيني أنه موافق، وحينئذ ستحدث تطورات شعبية، أما إذا عارضها نتنياهو أو وضع شروطاً قاسية فلن يزيد شرخ الموقف الفلسطيني عما هو الآن». سأل بيتر رأفت عن الأسباب التي قد تدفع القيادة الفلسطينية لرفض فكرة حل الدولة الواحدة؟! بيتر يساري ولكنه غير حزبي، ويتمتع ببراغماتية في رؤيته إلى الأمور. «حل الدولتين هو مطلب عربي فلسطيني مشترك، ويمكن للقيادة الفلسطينية اعتبار أي فكرة جديدة على أنها تهرب يبدأ الآن ولا ينتهي بعد عقود، ويمكنها القول إن إسرائيل لن تتقبل أن يُسَاوى بين مواطنين عرب ويهود في دولة واحدة حسب التجربة، وأنها سترفض عودة اللاجئين بالتأكيد إلى أي قسم من هذه الدولة.». قاطعت ألزه حديث رأفت وسألته عن حجم التفاعل الشعبي الفلسطيني حول فكرة الدولة الواحدة، موضحةً هدفها من السؤال بإمكانية تحول الفلسطينيين للمطالبة بحل الدولة الواحدة

على حساب حل الدولتين، وبغض النظر عن موقف إسرائيل الرافض أو الموافق الآن.

«كما قلت هناك تحرك في الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي، ويفهم ممن عبروا عن تفضيلهم لحل دولة واحدة ولم يَعترضْ عليهم إلا قليل جداً من أصدقائهم ومن يتبعُونهم على الفيس بوك وتويتر، بالطبع قد يتَضحُ رفض حل الدولتين الذي أفرغته إسرائيل من محتواه ويتجه الشارع للمطالبة بحل الدولة الواحدة». توقف رأفت عن القول بأنه متيقن أن الشارع الفلسطيني أصبح الآن يُفَضل الحكم الإسرائيلي على حكم السلطة الفلسطينية وحماس، لأن الفلسطينيين أصبحوا غير مؤهلين لحرب أو سلام أو تفاوض أو إدارة للمناطق الفلسطينية، لم يقل رأفت ذلك لأنه تَخوفَ من الاصطدام مع رفاقه الذين يناضلون ضد الامبريالية والاستعمار والعنصرية، ولن يفهموا كيف يمكن لشعب مُحتل من أغراب تفضيل حكمهم على أبناء جلدتهم. رأفت يساري مخضرم، أنهى دراسة الكيمياء ويعمل في شركة ألمانية منذ سنوات، غير متزوج، ويُسَخرُ أوقات فراغه في مساعدة العمل النقابي الطلابي والعمالي الفلسطيني، كما ينشط مع لجنة المناصرة بشكل كبير.

«حل الدولة الواحدة.». قال جودت واعتدل في جلسته «.. اقْتَرحتهُ حركة النضال الوطني الفلسطيني قبل نكسة عام ١٩٦٧م؛ آنذاك كان الشعار: دولة علمانية واحدة للشعبين، بمعنى حقوق متساوية للمواطنين، وعزل الدين عن السياسة. لكن إسرائيل لم تعترف بوجود شعب فلسطيني إلا بعد النكسة وانطلاق العمل الفدائي ثم الانتفاضة ومؤتمر مدريد واتفاقيات أُوسلو التي وقَّعَت عام ١٩٩٣م.. أرادت إسرائيل لمحادثات مدريد التي استكملت في واشنطن التوصل إلى حل إقامة الحكم الذاتي الفلسطيني

ضمن دولة إسرائيل من النهر إلى البحر، ثم انتهت تلك المفاوضات وحَلت مكانها اتفاقيات أُوسلو التي رأت حكماً ذاتياً لخمس سنوات برقابة وإشراف إسرائيلي؛ ثم إذا نجحت الفكرة وتم التعايش يتحول الحل إلى سلطة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة، وأفشل التطبيق الإسرائيلي ذلك الحل كما رأينا؛ الآن وحتى هذه اللحظة لا نعرف ما اتفق عليه ترامب ونتنياهو، ويقال إن زوج ابنة ترامب اليهودي هو الذي قد يضع خطوط مقترح حل جديد». ضحك جودت وهو يحاول ترجمة وإيصال مفهوم «انتظر يا حمار حتى يأتيك العلِيْق».

«لِننتظر إذاً؛ فتلك قرارات ليست بيدنا أصلاً؛ وتأثيرها في الشارع الفلسطيني والعربي مجهول الآن، وإن كان من المؤكد أن الخلافات سَتدب بين كل الأطراف.. شخصياً لا أتوقع أي خير من ترامب، بل أنتظر شروراً مكثفة، فوالده كان عضواً في جماعة الكوكسكلان، وجده هاجر من بافاريا واشترى ماخوراً وجمع ثروة من الدعارة اورثها لابنه ثم لحفيده». نظر هيرمان من خلف نظارته إلى بيتر وطلب البدء بالنقاش في المهام المُنجزة والأُخرى المطلوبة.

شَيْطانُ العَقْل

طُرقَ باب جودتْ في الطابق السابع لبيت الطلاب، فأُذنَ للطارقِ بالدخول، وواصل مطالعة ما بين يديه. سمع صوت الباب يُفتح ويُغلق، استدار فإذا به يواجه ألزه تحمل بيدٍ صندوقاً كرتونياً يتسع لست زجاجات بيرة صغيرة، وبالأُخرى علبة تَبَلَّلَت أطرافها بالسائل من البيتزا داخلها. رحب بها محاولاً إخفاء دهشته؛ فلا تَزَاور شخصياً بينهما في العادة! ولم تخبره هاتفياً برغبتها في الحضور، أو حتى السؤال إذا كان في الغرفة أم لا؟!

دعاها لتجلس على كرسيه الوحيد في الغرفة، ولكنها وضعتْ ما تحمل على الأرض وجلست على حافة السرير. «أنت منظم، غرفتك نظيفة؛ وسريرك مرتب؛ وملابسك لا تملأ المكان».

«هكذا أفضل وأجمل، أحاول تقليد الحياة العسكرية في مسكني ومواعيدي، فالنظام نعمة وتربية طبعاً» أراد أن يقول لها نعمة من الله ولكنه تَمنع. سألها إذا كان أحد الرفاق سيأتي فَنفتْ!.».هل تريدين أن نتناول البيتزا في المطبخ قبل أن تبرد؟ فليس لدي هنا أي صحون». أراد إخراجها إلى العلن في المطبخ الجماعي لتبقى الأحاديث بينهما عامة، وحتى يستَشف سببَ حضورها. لقد توقع أنها تشعر بوحدة مساء الأحد، وربما تشعر بشوق إلى المطارحة، ولهذا حضرت لزيارته ظناً منها أن لا صديقة دائمة له وأن الشرق أوسطيين منساقون بسهولة للجنس. لم يخطر له أنها ربما تريد تلطيف الجو بينهما في إثر حديثها المتوتر معه في اجتماع الأمس، فمثل تلك الأحاديث عادية بين الرفاق ولا تَبعَات لها.

«كما تريد، لنذهب إلى المطبخ». نهضتْ وانتزعتْ من صندوق البيرة زجاجتين وحمل هو البيتزا. «لديكم في المطبخ ميكروويف على ما أظن، ويمكن أن نأكل ما نستطيع من البيتزا الآن؛ وتسخين الباقي لاحقاً». لم يعلق وتنبه لحجم البيتزا الكبير بالفعل وهو يغلق باب غرفته ويتحرك خلفها عبر الممر إلى المطبخ. تَأملها لحظات، إنها أطول منه، ولها جسم متناسق، كتفان عريضتان وخصر يضيق تحتهما ثم يتسع تدريجاً حول الحوض، ومؤخرتها مستديرة ناهضة. قال له شيطانه: «لن تتمكن من نكحها وأنتما واقفان؛ فأجابه بعدم عزمه على هذا أصلاً، فقال له: سنرى». كان شيطان جودت يحادثه في مثل هذه الحالات وغالباً ما اهتدى برأيه، لكنه الآن مُتشكك. ألزه لا يعيبها شيء لممارسة الغرام معها، وتخيل جمال جسدها وهي عارية، وتوقع عنفوانها في الفراش؛ وربما توليها أمر القيادة، فهي حازمة عازمة لا تحب الحال المايل.

«هل تحتاج البيتزا إلى تسخين»؟ سألها وهو يُخرج من الدرج شُوكاً وسكاكين. أجابته بالنفي وهي تفتح الخزانات بحثاً عن صحنين. جلسا إلى الطاولة وفتحت زجاجتي البيرة بيديها، وأخذ كل منهما قطعة مثلثة إلى صحنه. «تبدو لذيذة؛ إنها بيتزا الربيع»؟ أيدتْ استنتاجه؛ ورفعت زجاجتها ففعل مثلها متمنياً لها الصحة؛ وارتشفا قبل أن يقضما. دخل صديق وصديقته يقطنان في الطابق، تبادلوا تحية المساء ودعاهما جودت لتناول بعض البيتزا. اعتذرا وهما يجهزان الشاي؛ وقال الشاب إنهما يشاهدان في الغرفة مباراة بيرن ميونخ وبرشلونة.

«ربما بيت الطلاب كله مشغول بالمباراة.». قال شيطانه؛ «.. وأنت تَتَكرم على بيتزا الفتاة حتى تنتهي بسرعة؛ وتتبخر فكرة أن تتأخر لاستكمال الأكل آخر الليل؛ لن تفلح فهي باقية هنا بأكل أو بدون أكل». رد على

شيطانه: «هذه رفيقة في حالة ضعف إنساني لا يمكن أن أستغلها! أجابه: «هي قادمة حتى تستغلك؛ ويمكنك التجاوب المحايد معها حتى تهجم عليك فتتيقن أنك لم تستغلها». «أيها الشيطان،إن فعلته معها فقد تعود مجدداً وتُقررُ أن تصبح صديقتي ويقال بأني أستغل الرفيقات في اللجنة، وقد تتطور الأمور منها إلى ما لا أريده، فأنا لا أفكر في ارتباط؛ وهي تكبرني سناً؛ كما أنها رغم جمالها رِجالية الطبَاع».

كان جودتْ يجادل شيطانه ويأكل البيتزا ببطء؛ ويستمع بنصف أُذن إلى ألزه. «دعها تنكحك الآن وإذا عادت مجدداً يمكنك مطالبتها بطرائق لا تُرضِيْها فلا تعود إليك بعد ذلك». رد على شيطانه بتساؤل عما سيكون إذا أعجبها أي شيء يطالبها به المرة القادمة؟ «أنت حر، إذا هان عليك كسر خاطرها وتركها تعود عطشى فافعل ما بدا لك، ولكن هذه ليست مروءة، وهي ليست بنتاً عربية عذراء؛ وستهدم حياتها بنكحة وتتركها بدون زواج! كل ما في الأمر أنك تخاف انكشاف أمرك لأنك جبان، اجبر بخاطرها الآن ثم اطلب منها أن تُبقي الأمر بينكما ولا تُظهر عواطف أمام الآخرين، فإن رضيت فلا بأس وإن لم تعجبها السرية تكن أخذت نصيبها الليلة ولا تعود إليك». «... أصلاً ربما لا تعجبها أنت في الفراش؛ وتقرر الاستغناء عن خدماتك، أم تظن نفسك كزانوفا؟!». تَنبه إلى ألزه تعيد عليه السؤال بماذا يفكر، وإذا كان حضورها المفاجئ قد عطلَ عليه مخططاته؟

«لا مخططات؛ اليوم الأحد، في العادة أستلقي أو أطالع أشياء غير دراسية أو سياسية».. ها قد أضاع فرصته؛ كان بوسعه ادعَاء موعد مع أي أحد في أي مكان. «...البيتزا طيبة بالفعل، شكراً لجلبها». تناول مثلثاً آخراً لِيطيل جلسة المطبخ، وسمع ضحكة انتصار من شيطانه. مدت يدها لإزالة بعض الجبنِ الذي التصق بزاوية فمه، تأَمل وجهها عن قرب، عينان

زرقاوان صافيتان لم يلاحظهما قبل الآن، بشرة ملساء لا يظهر عليها أثر لمسامات الجلد، ولا يبدو أنها تستعمل أي مساحيق تجميل! مد يده إلى خدها فأَمَالت وجهها ليرتكز على كفه، شعر بنعومة جلدها ودفء خدها الذي اكتسب اللون الزهري. هل خجلت من لمسها له أم أن الاحمرار نتيجة لجرعات البيرة؟ لا ليس خجلاً؛ استنتج ولم يعد يسمع نصائح من شيطانه، لكنه أيقن أن وجهها خالٍ من المساحيق.

«هل تود أن أسدل شعري أم أُبقيه على حالة؟» سألته عندما أجال عينيه في وجهها وشعرها الأشقر المربوط كذيل فرس. تَبسم ولم يقدم لها إجابة وهي تفك عقْصتها؛ وتنفض رأسها مبتسمة ومحدقة إليه.

«هكذا أجمل».. قال لها واستدرك: «وذنب الفرس جميل هو الآخر».. مر بخاطره رسوم لذكور العصر الحجري يجرون خلفهم الإناث من شعورهن.. فأضاف: «جميل وعملي أيضاً». تبسمت وهي لا تدري ما بخواطره، ونهضت لغسل الصحون. استغرب ما تفعله وتَشككَ في نياتها.. «يمكنني غسلها لاحقاً، لا تشغلي نفسك بالصحون الآن».

«الأفضل أن نغسلها الآن قبل العودة إلى الغرفة، فربما أراد الآخرون استعمالها بعد نهاية المباراة». أيدها بحركات من رأسه وباشر تجفيف ما تغسله وإعادته إلى مكانه، وتَمنى لو كل الناس عمليين مثل الألمان؛ أو بالأحرى مثلها، فهو يعرف ألماناً اتكاليين في شأن الطبخ والغسل. انتهت من الغسل ونظرت إلى مؤخرته وهو يشد جسده لأعلى لإعادة آخر صحن إلى الرف. «هل تمارس رياضة؟». سألتهُ وهي تزن بيدها مؤخرته.. فوجئ بحركتها وابتعد لا إرادياً.. إلتفتَ إليها فبدا وجهها طفولياً وهي تبتسم.

عادا إلى الغرفة، دخل من الباب قَبْلها، اتكأت على الباب بظهرها وأقفلته، وأدارت مفتاحه بيمْنَاها، استدار بعد أن سمع صوت القفل، تقدمت

إليه، ضمها وضمته، وانهالت عليه تقبيلاً من علو إذ كانت أطول منه بعض الشيء. «أَجْلَسَها على السرير ثم ابطحها؛ واستكمل التقبيل.». سمع شيطانه يأمره فاستجاب ونفذ. «فك أزرار قميصها ومد يدك تحت حمالتها وتَنقل بين الحلمتين».. باشر الاستجابة للأوامر، لكنها اعتدلت وخلعت ملابسها بنظام، وبسرعة، وعاد هو يحاول التجاوب مع التعليمات التي تلح على دماغه، لكنها كانت تستمع لشيطانها هي الأخرى حتى تحول الأمر إلى أشبه بالصراع الملتحم؛ كل منهما يريد ضبط الوضع حسب مِزاجه، هذا يعلو مرة وتلك تستدير به مرة أخرى. انتهى وحاول الاسترخاء؛ لكنها واصلت الالتصاق به، طاوعها حتى ارتضتْ.

ساد رعد الصمت بينهما فترة، كل منهما يفكر في الخطوة أو الجملة التالية.. «أنتَ سريع».. قالت وانتظرت إجابة. هَم بالقول: أنتِ بطيئة، لكنه تراجع. هَبط عن السرير؛ وأبلَغها أنه سيزور الحمام ويعود. خرج من الباب بعد أن وضع ثوب الحمام على جسده العاري، وتحركت هي إلى المغسلة في الغرفة. لم يتأخر كثيراً، عاد يداعبُها وطلب منها الاستلقاء على بطنها، نظرتْ إليه باستغراب وتساؤُل! فأَبلغها ألا تخاف فالهدف واحد ولكن الوضع مختلف عما سبق، وأخبرها أن الأمر سيطول هذه المرة.

قبيلَ منتصف الليل التهما بقايا البيتزا، واستقل كل منهما بهاتفه النقال يتَفقد الرسائل والأخبار. «بينما كنا نتضاجع، دهس أجنبي عمداً عدداً من المشاة أمام البنك وسط المدينة، وقتل شخصاً وأصاب عجوزاً وامرأة؛ ثم غادر السيارة حاملاً سكيناً، ورفض الاستسلام للشرطة فأطلقوا عليه النار ونقلوه إلى المستشفى». وضعت هاتفها جانباً ونظرتْ إليه، ولكنه لم يتجاوب معها. أراد القول إن اتهام الأجانب يتم بسرعة هذه الأيام، وإذا اتضحَ لاحقاً أنه ألماني وليس أجنبياً فسيقال إنه مضطرب عقلياً. لم يفصح

لها عما يدور في خلده لأن حوادث دهس قد حصلت فعلاً في برلين وقام بها مسلمون، وسبقها مهاجمة ركاب قطار بساطور؛ وبالطبع ما وقع من أحداث في فرنسا؛ وبحثُ الشرطة هنا في هايدلبرج قبل أسبوع عن إرهابي يخطط لأعمال قتل؛ كل تلك الأفعال تُعطل الدفاعات البديهية.

«ألمانيا تتعرض لنقد أوروبي وأميركي لاستقبالها أعداداً كبيرةً من اللاجئين الأجانب، والمعارضة اليمِينية تَنْشط وتَتوسع؛ ومع ذلك تجد من بين اللاجئين من يفكرون ويمارسون الإرهاب ضد المدنيين!».

«المسلمون والعرب والسوريون والعراقيون والسنيون والشيعة؛ ليسوا على فكرٍ واحد، بل كل منهم يقاتلُ الآخر؛ كما أن كل مجموعة غير متوافقة داخلياً على شأن سياسي أو أخلاقي، ولذلك إذا مارس أحدهم الإرهاب فهذا لا يعني أن كل قومه مثله.. أنتِ بالطبع لست بحاجة إلى هذا التذكير، وأنا لن أُدافع عن هذا الطرف أو أتهم ذاك؛ اللاجئون قادمون من مناطق حرب، وهم متنوعو الثقافات، وعلى الرغم من ذلك إذا قارنا جرائمهم وإرهابهم نسبياً بأعداد مماثلة من الألمان سنرى كم هم مسالمون». صمتَ وتَذكرَ أهمية قيام اللاجئين بنبذ الإرهاب والتبليغ عن أي متطرف بينهم. «تعرفين أن المخابرات الألمانية حددت تِعداد الأُصوليين بعشرة آلاف؟ وتخمِينها بوجود علاقة بين (١٦٠٠) لاجئ في ألمانيا وتنظيمات إرهابية في الخارج؟ يمكن القول إن العدد كبير، لكن كل اللاجئين قادمون من مناطق يديرها الإرهاب، وهذا الرقم تخْمِيني، ولو كانت الأجهزة الأمنية تعرفهم لتخلصتْ منهم». صمتَ وراوده اقتناع أن الأمر خطير فعلاً، وكيف ترفض دول عربية غنية استضافة هؤلاء؛ وهي التي تسببت بكوارثهم!

«في الواقع إن المستشارة ميركل وحكومتها وحزبها في حالة لا يُحْسدونَ عليها. اليمين الألماني يتطرف، والوسط يتجه إلى اليمين،

والأُوروبيون يحتجون على السياسة الألمانية تُجاه استقبال اللاجئين، وترامب يُهَولُ بأن ألمانيا مكتظة بالإرهابيين، والرئيس التركي يتحدى ويهدد؛ ويريد دخول ألمانيا لقيادة تظاهرات تؤيد تسلطه المُزمع التصويت عليه.. يعني يا ألزه ميركل أصبحت تَقدمية وإنسانية ويسارية أكثر مني ومنك.. الله يعينها».

«دعنا من ميركل.». قالت وهي ترتدي ملابسها «... لقد قرأتُ خبراً غريباً يفيد بأن ترامب كان عازماً على توقيع أول أمر رئاسي بعد تسلمه الرئاسة لنقل السفارة الأميركية من تل أبيب إلى القدس، لكن الإسرائيليين سمعوا بالأمر وطلبوا منه التَروي حتى لا تتوتر علاقات إسرائيل مع دول عربية تتشارك معها الآن في التصدي للمشروع النووي الإيراني، انتظاراً لتوقيت أفضل، فاستجاب لهم ولم يأمر بنقل السفارة، وسكتَ كل اللوبي الإسرائيلي في واشنطن، في انتظار لحظة مناسبة.. والذي كشف الأمر هو رئيس لجنة العلاقات الخارجية في الكونغرس، السيناتور بوب كروكر خلال مقابلة صحفية؛ وقال لم يَكُن لإسرائيل في أي فترة علاقات جيدة مع الدول العربية كما هي الحال الآن؛ وأنه من محاسن الاتفاق النووي الإيراني أن قرب الدول العربية – وخصوصاً السعودية – إلى إسرائيل بشكل يفُوق كثيراً ما يرغب زعماء بعض الدول العربية في كشفه أمام شعوبهم».

«هذه معلومة جديدة بالنسبة إليّ، ولكني لا أستغربها، بل يبدو أن الرئيس الأميركي يريد حلاً في المنطقة يشمل إسرائيل مع كل الدول العربية، وليس بين إسرائيل والفلسطينيين ودول الجوار فقط». وقف إلى جانبها قرب الباب وأضاف: «المنطقة مجنونة يا ألزه؛ الدول العربية كلها مزعزعة وتتجه للشرذمة؛ بينما إسرائيل تسير نحو التَطرُف اليميني بسرعة، وأعتقد أن السلام أبعد ما يكون». قَبَّلَهَا وشَكرها على البيتزا والبيرة، وافترقا بوداعٍ إلى اللقاء.

أَقارب ومَحَارِم

حيا يورجن طلابه، وذَكرَهم بما اتفقوا عليه في المحاضرة السابقة، وطلب من حميد أن يبدأ بعرض بحثه الموجز بعد أن أكد على الجميع ضرورة تسجيل الملاحظات وتأجيل أي نقاشات إلى نهاية المحاضرة.

قال الله تعالى ﴿**ومن آياته أن خلقَ لكم من أنفسِكم أزواجاً لِتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودةً ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾. بعد تلاوته الآية بالعربية قرأ ترجمتها إلى الألمانية، وواصل القراءة من النص الذي خَطه ووزع نُسَخاً منه على زملائه قبيل وصول يورجن إلى المحاضرة، وهذا ما فعله بعض الطلاب الآخرين أيضاً.

«العرب فَضلوا منذ القدم زواج الأقارب، خصوصاً من بنات العم لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك يَشد أواصر الأسرة، ويحفظ ثرواتها، لكن الإسلام حث على الزواج من غير الأقارب لربط الأسر بعضها ببعض؛ بهدف التخفيف من حدة العصبية القَبَلية؛ بل يُعْتبر النسب مع غير الأقارب مَكْسباً سياسياً. مع ذلك فالكثير من العائلات تُحبذ زواج الأقارب فهو من العادات الراسخة، والأنماط الاجتماعية المُفضلة في المجتمعات العربية، باعتبار أن الزواج المثالي هو ما يربط بين أبناء العمومة للحفاظ على الثروة والاسم داخل الأسرة. كما أن هناك بعض القبائل العربية التي لا تقبل زواج البنت إلا من ابن عمها الذي يمكنه معارضة زواجها من رجل غريب، ولم تذوب حتى الآن عادات إعطاء أبناء العم لبنات العم عند ميلادهم، مما يُرَغِب هؤلاء بزواج الأقارب، فهنا يتوافر الأمان

العائلي والروابط المضمونة، فضلاً عن سهولة التفاوض في أمور الزواج والمهور بين الأقارب. ومن العوامل التي تُساق كإيجابية أن الفتاة سيكون زواجها سعيداً لكون الحماة قريبتها وهي التي اختارتها لابنها، وبالتالي تزداد الأواصر والروابط العائلية. بينما رأى آخرون أن زواج الأقارب نقمة لأنها تولد الضغوط، وتفتح المجال لتدخل العائلة بحيث لا يكون التدخل من الزوجين أو أهلهما المقربين فقط؛ وإنما العائلة كلها قد تَتَدخل، وهذا يُنشئُ شرخاً في العلاقة بين الزوجين»..

.. «يعرف الناس الآن أن الطب الحديث اعتبر هذا النوع من الزواج غير مستحب، واصطدمت هذه الظاهرة القديمة أخيرًا بالعديد من العقبات، والمُعوقَات، ويعتمد المعارضون على الأسباب الطبية، حيث أثبتت معظم الدراسات خطورته على صحة الأبناء، إذ بتشويههم وإعاقتهم، إضافةً إلى أنه سبب رئيس في الإصابة بأمراض وراثية، وهذا قد يدفع الزوجين إلى عدم الإنجاب رغم أهمية الأطفال للعائلة العربية، وإذا تم إنجاب طفل مصاب بمرض وراثي، فهذا كفيل بالكثير من التعاسة وقد يهدم العلاقة، وقد يُولِد حقداً وكراهية بين العائلات في حال تم الطلاق، ويبقى الخلاف إلى أجيال متلاحقة».

وضع حميد ورقته على الطاولة وأكمل من الذاكرة: «زوجة ابن عمتي تكون ابنة خالته، وقد تزوجا منذ عشر سنوات، ولم تكتمل فرحته بولادة أول مولود له، حتى عصفتْ به الأحزان بعد ثلاثة أشهر من الولادة، بموت هذا الابن نتيجة تشوهات خلقية. بعد الولادة الثانية اكتشف أن ابنه معوق، وكذلك الثالث. بعد وفاة ثلاثة أبناء لجأ وزوجته إلى الطبيب؛ فأخبرهما أن السبب مرض وراثي، نتيجة صلة القرابة مع زوجته. وقد رُزقا ابنة العام المنصرم ليكتشِفا أنها صَماء.

انتهى حميد مما كتب، ونظر يورجن إلى الطلاب فوقفت جريتشن وانحازت قليلاً عن المقعد إلى الممر الفاصل بين الطاولات، ووضعت يمناها على كراستها لتثبت الصفحة حيث سَجلت بعض الملاحظات. «في الواقع ما راودني هو تساؤلات أَودُ التوسع بها لاحقاً في البحث المشترك، ما عَرفناه إلى الآن يَفْتَرِضُ أن أهم العناصر في الزواج قد لا يكون الحب؛ بل تَفَحُص الشريك لشريكه، وذلك بأثرٍ رجعي لعدة أجيال بحثاً عن الأمراض الجسدية والنفسية، وأيضاً سعياً وراء عوامل الذكاء، وقوة التحمل وما يريده كل شريك من شريكه. ومن منا يريد التعرّف إلى ذاته بالفعل فما عليه سوى تسجيل خواص الأب والأم والأجداد ليكتشفَ أنه خليط منهم؛ وربما يَميل الواحد منا إلى صفات جينية أقوى! أي اعرف أجدادك لتعرف نفسك حقاً. كثير من الناس يشبهون الأب أو الأم فقط؛ مما يدل على تَغلب جينات هذا أو ذاك وتوريثها للابن أو البنت. عملياً إذا تَفحَصنا الوالدين والأجداد لن يبقى الكثير من الأسرار التي لا نعرفها عن أنفسنا، وبالتالي يمكن الاستفادة من النتائج لتصحيح الأخطاء الذاتية بتحدي الجينات في الحالات النفسية؛ كالخوف، والطمع، والميل إلى الإجرام، والنميمة، وسوء الخلق، فهذه أُمور يمكن التصَدي لها إذا عرفنا بوجودها فِينا وراثياً..الشيء الآخر الذي لفت انتباهي هو المقدرة على خلق أجيال صحية نفسياً وجسمياً، ومتميزة عقلاً وجمالاً، إذا عَثر الأزواج بعضهم على بعض بالعقل وليس بالقلب وطلباً للجنس واللذة أو المال. ربما يكون الأمر في شكله البدائي مُهماً للدول الفقيرة في العالم الثالث، والتي ينتشر فيها زواج الأقارب. أَظن بوجود علاقة بين الفقر وزواج الأقارب، وأعتقد أن أبحاث بعض الزملاء سَتُظهر هذا عمداً أو مصادفة. تساؤلي هنا هو لماذا لا يتم منع زواج الأقارب بقوة القانون حتى الدرجة الرابعة أو أكثر؟! أم أنه لا يمكن تقويم ما لا يستقيم!».

عادت جريتشن إلى مقعدها مع هَمْهَمَات الرضا على ما أسمعتهم من آراء، وما طرحته من تساؤل.

جلس يورجن على مقعده أمام السبورة وتَجاوب مع طلب إستيرا لِتُقَدم ما لديها بينما سجل بعض الملاحظات عما سمعه إلى الآن. قرأتْ إستيرا وهي واقفة مما كتبتْ: «الله هو الذي يقرر ما سيكون». اشتد انتباه بقية الطلاب، واتسعت عيون بعضهم، وارتفعت حواجبهم.».ليست كل حالات زواج الأقارب تؤدي إلى نتيجة سلبية على الأطفال، ففي قريتي حالتان؛ واحدة سلبية أدت إلى مرض وموت الأطفال؛ وأُخرى إيجابية جمعت الذكاء والجمال، وهناك مثال ثالث أيضاً لم أعرف نتيجته بعد؛ حيث تَحدى أحدهم النصحَ وتزوج ابنة عمه على الرغم من زواج أخيه بأختها؛ وأنجبا بنتاً مصابة بمتلازمة داون. والمثال الإيجابي يشهد به زواج شاب بابنة عمته، وأنجبا صبيين وبنتين بصحة جيدة، ويعيشان بتفاهم وتناغم نتيجة لقرابتهم. وأعرف شابين أخوين أحدهما أخرس؛ والآخر أطرش؛ ووالداهما أحدهما ابن عم الآخر، حين تكثر الضغوط وتقل فرص التعارف والحب يغدو زواج الأقارب هو المنقذ من العنوسة التي تَتَفشى في المجتمعات، وأعتبر أن ابن عم أو خال في اليد أفضل من وسيم ذكي على فرع الشجرة». قهْقه الطلاب على تحوير زميلتهم لهذا المثل العالمي: «عصفور في اليد خيرٌ من عشرة على الشجرة».

أَسْكَتَ يورجن الضحك قائلاً: «إن أجداد الحالة الإيجابية في قرية إستيرا على الأرجح هم غرباء بعضهم عن بعض، وكذلك الحال مع آبائهم وأجدادهم، وحينئذ قد ينجو زواج أقارب صحياً، ولكنه سيعود إلى مراكمة الأمراض جيلاً بعد الآخر إذا تواصل زواج الأقارب لدى الأحفاد».

اختار اتسوشي لبحثه جمع معلومات عن نكاح المحارم من عهود

مَضت، وطبع نسخاً من بحثه على عدد زملائه الطلاب، ووزع الورقة عليهم لإعفاء نفسه من سرد المحتوى، وطالبهم بالمطالعة الذاتية؛ لكن البروفيسور باشر بقراءة محتوى بحث طالبه الياباني الذي يُجيد الألمانية ولكنه يَنْطقها بلكنة صعبة؛ ويَتحرَج من عدم فهم زملائه السريع لما يقول.

«...نكاح المحارم كان ثقافة عند البعض؛ ففي التاريخ الفرعوني تزوج الآباء بناتهم والملوك أخواتهم؛ فقد تزوج الملك (سنفرو) ابنته الكبرى (نفرت كأو)، وأنجبا ابنهما أمين الخزينة (نفرت ماعت)، الأمر الذى فعله أيضاً الملك (رمسيس الثاني) الذى تزوج أكثر من بنت من بناته، كما تزوج الملك (توت عنخ آمون) أُخته.. واستمر هذا الوضع حتى العصر الروماني، ولعل زواج (كليوباترا) بأخيها الأصغر لم يكن تقليداً للملوك المصريين القدماء بقدر ما كان تطبيقاً للنظام الذي كان سائداً فى بلاد الإغريق التي جاء منها آباء هذه الملكة، حيث كانت القوانين الإغريقية – وخصوصاً قانون أثينا – تسمح بالزواج بين الإخوة والأخوات؛ فقد تزوج (بطليموس الثاني) أخته (أرسينوس)، وفي روما القديمة مارست الملكات الجنس مع أولادهن؛ (أجريبينا) التي كانت زوجة للإمبراطور (كلوديوس) مارست الجنس مع ابنها من أجل شفائه من الأرواح الشريرة بموافقة أبيه حيث نصحهم أحد الأطباء بذلك، كذلك الإمبراطورة (دواجر) التي اتخذت من ابنها عشيقاً تمارس معه الجنس ومن ثم تزوجا بعد أن طمع في العرش الجميع وأرادوا التقرب إليها والزواج منها وفعلاً أنجبت منه تسعة من الأبناء. في اليابان القديمة تزوج ثلاثة أباطرة أمهاتهم.. حيث يموت الأب بينما الأم شابة فتضطر إلى الزواج بابنها الصغير.. ليبقى الملك في داخل العائلة، ويذكر أن الامبراطورة (هيمياتي) مات عنها زوجها وعمرها ٢٨ عاماً فتزوجت ابنها (توشينور) البالغ من العمر أحد عشر عاماً، وأنجبت

له ستة أبناء؛ مات منهم اثنان. كذلك الإمبراطور (نياهي) الذي تولى العرش وعمره ثماني سنوات بعد وفاة أبيه، وكانت أمه ما تزال في السادسة والعشرين فتزوجته وهو بمِثلِ هذه السن الصغيرة، وأنجبت منه لاحقاً ثلاثة من الأبناء وابنتين. كذلك الإمبراطور (تستيوشان) الذي تزوجته أمه وعمره ثلاثة عشر عاماً بعد أن مات زوجها، وكانت على علاقة جنسية به منذ أصيب زوجها بالشلل التام حيث ظل سنة كاملة جثة هامدة، وكانت تعلم أنه سيموت لا محالة، فأقامتْ علاقة مع ابنها لكونه الزوج القادم».

«في بلاد الفرس لم يكن الحال مختلفاً؛ ففي عام ٤٩٠ للميلاد ظهر فيها أحد رجال الدين الزرادشتيين ويدعى (مزدك)، قام بثورة دعا فيها إلى إباحة نكاح المحارم والزواج بهن، وقد ناصره الملك (كفارة الأول) ٤٨٨-٥٣١ في دعوته وتزوج ثلاثاً من أخواته». في نهاية الورقة سَجل اتسوشي اعتذاره من عدم التعمق في البحث عن صحة الأبناء من نِتاج تلك الزيجات، فقال البروفيسور: «نعرف أن الكثير من أبناء أباطرة الرومان ماتوا، ومن عاش منهم كان مريضاً نفسياً أو جسدياً، وكذلك كانت الحال بين قياصرة روسيا، ولا يعقل أن يكون الحال في اليابان غير ذلك إلا أن الأمر يستحق التمحيص».

تحدث ديتلف من دون ملاحظات مسجلة عن زيارته في الصيف الماضي لموريتانيا: «أخذني تجوالي على بعد ٢٣٠ كيلو متراً تقريباً شرق العاصمة الموريتانية حيث توجد قرية، اسمها (جدة)، تلفت انتباه من يمر بها لكثرة المعوقين فيها، ما عرفته من مرافقنا المحلي هو انتشار الفقر والبطالة في القرية أكثر من بقية المدن والقرى الموريتانية إلى جانب تنوع الإعاقات».

«... هنا سيدة أربعينية تجلس أمام عتبة بيت وتعجز عن المشي،

وتحدثت للمُرافق عن إصابة الكثيرين في محيطها بإعاقات مثل العمى والشلل والارتعاش، وتقول إن هذه إرادة الله، وفي شارعها رأينا رجلاً تحت الثلاثين أُصيب بنقص الوزن والعمى، ولم ينقذه المشايخ والأطباء الطبيعيون، وقال إنه لم يراجع طبيباً حديثاً وتمنى المساعدة للقرية من الحكومة. طلبتُ من المُرافق زيارة المصحة الحكومية، وقال الطبيب هناك أنه لا توجد إحصائيات رسمية حول عدد المعوقين، ولكنهم كُثر جداً رغم مساعدات الحكومة لبعض الأسر الأسوأ حالاً، أما الأسباب لمُصاب هذه القرية فلم تحدد بعد بالكامل؛ ولكن الجهود الحكومية تعرفت إلى ربع أسباب الإعاقات؛ ومعظمها وراثية؛ وأُخرى تُصيب النساء الحوامل. أكد الطبيب أن جل الأسباب تتعلق بزواج الأقارب خصوصاً وأن الفحوصات التقليدية قبل الزاوج غير معمول بها في موريتانيا؛ وإذا أُصيبت قرية يكثر فيها زواج الأقارب بسلسلة من الأمراض فإنها تتفشى بسرعة ولا يخلو منها بيت».

أيدت بيرثا – التي يَعني اسمُها نبيلة السلوك – ما سمعته تواً من زميلها، وأخذت تسرد على زملائها عن قرية في الجنوب الإسباني ربما تعاني من شيء مشابه «... نعم هذا المثال شاهدته في إسبانيا». قالت بيرثا بعد أن أذِن لها البروفيسور بالتعليق على ما سمعوه من ديتلف.. «مررنا في الصيف الماضي بقرية مونت فريو على الطريق من الجنوب إلى جرنادا، هناك شاهدتُ مجموعات من السكان يتكدسون في عدة مواقع وسط القرية وحول الكنيسة، كانت أشكالهم متشابهة؛ ضخام الجثة والرأس، ينظرون إلى المارة وحركة السير بهدوء، لا يتحركون ولا يتحادثون فيما بينهم. ظننت للوهلة الأُولى أنهم مصابون بمتلازمة داون؛ ولكن نظراتهم لم تكن ودية؛ وعيونهم لم تكن مسحوبة إلى الأطراف، لم أهتم كثيراً بالأمر، ولكني أتذكر وجوههم الآن بعد ما سمعت عن قصة قرية جدة في موريتانيا».

أخرجت بيرثا ورقة من ملف وقرأت على زملائها: «مع فارق صغير جداً في حالات معينة يمكن القول إن الطفل يأخذ خمسين بالمائة من الحمض النووي (DNA) الخاص بالأب ومثلها من الأُم؛ بالتالي يشترك هذا الطفل مع الجد والجدة، والعم والعمة بخمسة وعشرين بالمائة، ومع أبناء العم والخال بإثني عشر جزءاً ونصف الجزء من الـ(DNA).. إذا وُجدتْ جينات مريضة فإنها تتضاعف مع كل زواج أقارب بمقدار القرابة، وطول سلسلة التزاوج أباً عن جد.. مثلاً هناك حالة اليهود الذين يكْثِرون من التزاوج البيني؛ وبالتالي تنتشر بينهم أعطاب جينية عديدة، بعضها يُتوارث بنسبة واحد إلى ستة، وغيرها بنسب أعلى تصل إلى واحد لكل ثلاثمائة. أخطر الحالات كانت تُصيب الأطفال بمرض عقلي قبل الوفاة.. هذا المرض أُكتشف أيضاً لدى تجمعات هولندية في بنسلفانيا، وفي جماعة أُخرى في جنوب لويزيانا الأميركية، وشرق مقاطعة كيبيك في كندا، وكلها تجمعات دينية مُنغلقة على ذاتها، وتتزاوج بينياً ولديها تعدد زوجات. المهم هنا في حالة اليهود أنهم تنبهوا للأمر منذ نهاية السبعينيات من القرن الماضي، ولجأوا إلى الفحوصات الجينية قبل الزواج، ويتفادون الخطر الآن تدريجاً، علماً أن القانون الديني اليهودي لا يزال يسمح بزواج الرجل بابنة أخيه أو ابنة أخته!».

طلب البروفيسور من الطلاب الكف عن قراءة ما كتبوا وأخبرهم بضرورة نسخ ما كتب كل منهم، وتوزيعه على الآخرين، ثم باشر بالتعقيب عما سمع وبطرح المزيد من النظريات.. «عليكم عدم استهجان زواج الأقارب وزواج المحارم، لأن الإنسان نفسياً وجسدياً يتطور ببطء شديد، ولا يغرنكم التطور التقني الذي يتسارع حولنا من جيل إلى آخر؛ بل كل عام ويوم، فنحن البشر ما زلنا أقرب إلى إنسان العصر الحجري؛

حسب نظريات التطور لداروين وأيضاً المدرسة النفسية الفرويدية؛ اللتين تتصارعان لإثبات أن تطور رفض نكاح المحارم نابع من حاجة جسدية، بمعنى اكتشاف البشر تدريجاً ضرر زواج الأقارب على الأجيال، بينما المدرسة الفرويدية تقول إن معارضة الإنسان لنكاح الأقارب مردها روائح مميزة تطلقها الخلايا وهي ما تجعل الطفل يتعرف إلى أمه أو مرضعته، ولكنها لا تُعرف الطفل بأبيه أو الأب بطفله؛ كما أن العوامل النفسية القائمة على المشاهدة والتقارب تُولِد حالة قرف ورفض لنكاح الأقارب! ما يهمنا هنا أن الرؤيتين تُعارضان نكاح وزواج الأقارب الذي لا يزال منتشراً حتى الآن بكثافة وبأشكال متنوعة.. كما قال زملاؤكم عن حَالتَي قُرى موريتانيا وإسبانيا، وهناك الكثير من الأماكن التي تمارس ذلك، هذه ليست حالات من الماضي فقط كما جاء في بحث زميلكم اتسوشي...».

انفرجت أسارير الطالبين، وانشد اهتمامهما مع بقية الطلاب بما يقوله البروفيسور؛ إذ لم يكن أي منهم يعرف عن هذه النظريات، ولا ما سيصل إليه أستاذهم من استنتاج بعد إكمال قوله. «يَستدلُ التحليل الدارويني التطوري إلى نتيجة أن الإنسان الأَولِـي وبعد أن تَشكلت التجمعات القبلية كان يمارس نِكاح الأقارب، وكان أبو القبيلة هو الأقوى جسدياً، ويستحوذ على الإناث، ويمنع الشبان الناضجين جنسياً من نكاح إناث القبيلة.. هذا الوضع كان يؤدي دوماً إلى انقلاب أحد الشباب على الأب وقتله والاستحواذ على الإناث، وهكذا دواليك مما تسبب بقتل الكثير، وحرمان الأكثر من الحصول على اللذة. كان من الطبيعي أن تصل هذه القبائل والتجمعات إلى حلول تمنع نكاح الأقارب، وتَلجأ إلى التزاوج من قبائل وعائلات أُخرى لوقف عمليات القتل؛ ولتوفير اللذة الجنسية للأجيال الشابة؛ علماً أن القبيلة كانت عائلة كبيرة بمفهومنا الحالي...».

توقف يورجن وكتب على السبورة: الأساطير والديانات، ثم استدار إلى طلابه المندهشين مما يسمعون.. «أظن أن بعضكم أقله يعرف أن الديانات التوحيدية اعتمدت في رواياتها على الأساطير القديمة؛ التي كان بعضها أدياناً لمن سبقوا، خصوصاً الديانة اليهودية اعتمدت أساطير الأَولين، واعتمد المسيحيون العهد القديم، وأخذ القرآن الكثير من القصص اليهودية أيضاً. لن أَخوض في الديانات؛ ولكن سآخذ فقط قصة آدم وحواء وابنيهما قابيل وهابيل، وتذكروا ما قالته زميلتكم عن عدم تحريم اليهودية لزواج العم والخال من بنات الأخ والأخت حتى الآن، وهو الشيء المُحرم عند المسيحيين والمسلمين لأن دياناتهم أحدث من الأولى، وأدركوا عيوب زواج الأقارب النفسية والجسدية فَحرموها، رغم أنهم لم يُحرموا زواج أبناء العم والخال.. إذاً أصبح لدينا مبدأ الواقع الذي يحرم نكاح الأقارب في مقابل مبدأ اللَذة، وذلك نتيجة للخبرات المؤلمة؛ وبالتالي إشباع حاجات الإنسان الجنسية مع مراعاة التوافق مع الواقع. بمعنى أوضح، قصة قابيل وهابيل ابني آدم هي قصة الصراع بين مبدأ اللَذة الذي قامت عليه الحضارات السابقة؛ ومبدأ الواقع الذي فَرضته الأديان التوحيدية بعد ذلك، ويبدو جلياً تمثيل طرفي الأسطورة لهذين المبدأين، فقابيل الذي يبحث عن لذته في نكاح أُخته الجميلة مخالفاً بذلك شريعة الله التي كانت واضحة ومباشرة في قبول الله قربان هابيل ورفضه لقربان قابيل الذي لا يتوانى في ممارسة العنف من أجل الحصول على الجنس! فيعود إلى مبدأ اللَذة بما يتضمنه من تفريغ غريزي مباشر بأخذ أخته الجميلة، وغريزة العدوان بقتلهِ أخيه، تماماً كما كان يَقتل الشبانُ آباء القبيلة للتمتع بالجنس! أما هابيل فقد ضحى بنفسه استجابة للشرع؛ وأَخفى غرائزه الجنسية والعدوانية. لكن قابيل هو الآخر اعتبرَ ونَدِمَ؛ وكأنه أيضاً يضع حداً للَذة الجنس وللعنف

في سبيله؛ وللصراع الجنسي البشري الطويل، لِتُصبح ممارسة هذه اَللذة الجنسية الغريزية برسم التنظيم والتقنين؛ مع وعدٍ بأن تعود لتكتسب قدسيتها الجنسية وانفلاتها حينما تكون بجنة الله التي وُجدت في أساطير الأولين، وفي التوراة والإنجيل والقرآن، وهذا الأخير أَعطى جنس الجنة أهمية كبيرة، كما أنه سمح بلَذة على الأرض عبر تشريع زواج الرجل من أربع نساء».

الجِنْسُ العَرَبِي

ناقشتْ لجنة سكن الطلاب في اجتماعها الشهري مشاكل ومقترحات حَمَلها كل من الأعضاء العشرة الذين يُمَثِلُون طوابق السكن، قرروا تَخويل أي من السكان إعدام الصحون وأدوات الطبخ والأكل التي تمكث في المطبخ بدون غسلها أكثر من أربع وعشرين ساعة؛ سواء كانت ملكية جماعية أو خاصة. سَبب هذا القرار هو انتشار الصراصير في بعض الطوابق.

التزم كل مندوب طابق بمطالبة السكان تنظيف المطبخ وأدواته وأدراجه وخزائنه أقله مرة في الشهر، وتسجيل أسماء من يرفضون المشاركة ومن يَتَسببون بمشاكل الصحة العامة؛ بحيث يتم طردهم من السكن إذا تكررتْ أفعالهم. اتفقوا أيضاً على تفعيل بند خفض صوت الموسيقى بعد الحادية عشرة مساءً، وتسجيل المخالفات. ومن ضمن الشكاوى فوجئ جودت بما اتُهِمَ به العربي السوري سامي من «بَصبَصة» على ساكنة أثناء الاغتسال، وتم الاتفاق على توجيه إنذار إلى سامي وتخيير الفتاة بتغيير الطابق.

في نهاية الاجتماع أَخبر جودت مندوب الطابق العاشر معرفته بسامي، وتَطوع أن يحمل عنه مهمة إبلاغه الشكوى والإنذار لحصر القصة في أضيق حدودها لمصلحة الجميع، وافق المندوب بعد أن أخبره جودت بوجود صداقة مع سامي، وأنهما يشتركان معاً في البحث عن بيوت للإيجار للاجئين السوريين كل يوم سبت.

في المساء نفسه استشاط سامي غضباً من شكوى أريكا عليه،

وكَون اللجنة أَيَّدتْهَا ووجهتْ إليه إنذاراً بعدم التكرار. «اللجنة لم تؤيدها، واختصرنا الأمر بدون نقاش؛ بل إننا خَيرنَاهَا بالانتقال إلى غرفة في طابق آخر».

«لكنكم وجهتم إلي الإنذار!». قال سامي مقاطعاً جودت.. وكانا يجلسان في الطابق الأرضي؛ حيث توجد طاولة تنس وبعض الكراسي.

«الإنذار لا معنى له ما دمت لم ولن تُضايقها، إذا اختارت هي البقاء في غرفتها وطابقها، غض النظر عنها، لا تُحادثها، اطرق باب الدش قبل دخوله فإذا كانتْ هناك انتظر خروجها».

«لكنني لم أفعل أي خطأ! كان عليها إغلاق الباب حين تذهب للدش». قال سامي وقد هدأَ قليلاً بعد إرشادات جودت البديهية، ولم يخبر جودت بشكوى أريكا إلى صديقته ماريون.

«لم يتهمك أحد بالخطأ، لا تُكَبِر الموضوع؛ بل إن مندوب طابقكم سَيُبلغها بإمكانية أن تُغير غرفتها، وهذا يُحَملها أيضاً مسؤولية، وهي لن تعرف أنني أو غيري تحدثنا معك، لكن عدني بتجنبها ولا تمنحها فرصة لتقديم أي شكوى أُخـرى». أَنْصت سامي بينما واصل جودت حديثه عن الاتهامات الجاهزة للعرب بأنهم يحبون النساء ويُسَيرهم قضيبهم، والاستشهاد على ذلك بالسماح بتعدد الزوجات وما يقال عن الإرهاب الإسلامي للذهاب إلى الجنة؛ حيث الحوريات بانتظار الشهداء الذين معظمهم هذه الأيام جنائيون خريجو سجون!.

هكذا وصلت الرسالة إلى سامي، وأنهى جودت الحديث في هذا الأمر بالقول: «تَصيد ذهابها إلى الدش؛ واطْرُقَ الباب قائلاً بالعربية «دستور.. بسم الله الرحمن الرحيم» بصوت مرتفع، حينئذ سترُدُ عليك وتخبرك بوجودها في الدش، وسيكون بعض السكان قد سمعوا ذلك، وعرفوا أنك انسحبت

إلى غرفتك بانتظار خروجها. هذا سيغيظها ويُحبط مساعيها، ويساهم في تحسين صورتنا، ويوفر لك شهوداً إيجابيين في الطابق». وافقه سامي مُخْفِيَاً امتعاضه، ودار في ذهنه نتائج الطرد من السكن، وانتقل حديثهم إلى عملهم المشترك في البحث عن شقق إيجار للاجئين السوريين.

«سنواجه مزيداً من الصعوبات في الفترة القادمة بسبب حادثة الدهس في وسط المدينة، والخلافات الألمانية التركية المتصاعدة، وشتائم أردوغان ووزير خارجيته.. بالنسبة إلى كل الألمان فالأتراك أولاً وأخيراً مسلمون، والتُهم الموجهة إلى المسلمين عموماً بالإرهاب تصيب الجميع، وتصرفات الأتراك تصب الزيت على النار».

«صحيح.». قال جودت مؤيداً ما سمعه من سامي وأضاف: «المشكلة أن المعروض أسبوعياً من الشقق والبيوت للإيجار قليل بالفعل؛ والطلب من الألمان يزداد على المعروض، وسيكون علينا ممارسة السحر على أصحاب البيوت ليختاروا لاجئاً سورياً بدلاً من مستأجر ألماني».

«والحل؟» سأل سامي.

«حتى تبني الدولة من الميزانية الفدرالية بيوتاً للاجئين، ولن تبني، علينا البحث في القرى المجاورة وعن أماكن لدى الفلاحين، وربما يُناسب هذا بعض العائلات اللاجئة». قال جودت؛ ثم أكملَ بعد أن خَطرت له فكرة: «ربما نجرب وضع إعلانات في الصحف المحلية والمجانية طلباً لأماكن سكن، ونحدد أنها لعائلات لاجئة مضمونة، والإيجارات حسب أسعار السوق».

«نعم نؤلف إعلاناً موحداً، ونتدبر تكاليفه وننشره أسبوعياً.. دعنا نناقش ذلك في الاجتماع القادم ونختار أياً منا يضع رقم هاتفه للتواصل». ظهر الارتياح على وجه سامي وهو يُؤيد اقتراح زميله الذي عاد وكرر

أهمية عدم تَجاهل المناطق القروية أيضاً. كانت اللجنة إلى الآن تبحث في المدينة؛ لكَون السلطات المحلية تدفع للاجئين أي مبلغ يطلبه المُؤَجر شهرياً إلى جانب المخصصات الأخرى، لكن تَوافر الإيجارات لم يعد يُلين موقف المُؤَجرين خصوصاً وأن جلهم من كبار السن، أو أصحاب عائلات يُؤَجرُون شقة أو أكثر في الطوابق الأرضية لبيوتهم.

كان سامي يجلس قبالة جودت حيث يمكنه أيضاً رؤية الحركة عبر باب العمارة.. رد التحية طالب جديد على ألمانيا، وانتقل إلى سكن الطلاب هذا قبل شهرين. «السلام عليكم، شلونكم؟» حَياهما؛ وردا عليه وعَرضا عليه الجلوس؛ لكنه وجه حديثه إلى سامي معتذراً عن مجالستهما، وأخبرهما بوجود عرض لأفلام جنس على شاشة كبيرة في غرفة صديقه في الطابق الثالث، ودعاهما للحضور.

«توكل على الله.». قال له جودت باقتضاب مشيراً إليه حيث يوجد المصعد «...لا تُحدثوا ضجيجاً حتى لا يُطرد صاحبك من السكن». كان بعض الارتباك قد أصاب سامي لأن هذا الشاب تحدث إليه بهذه العفوية.

«الجنس مُجنن العرب»! قال سامي بعد أن استدار الشاب، وتحرك إلى المصعد وهو يحادث نفسه «هل تَصدق فعلاً إنها الجينات المتوارثة؟». لم ينتظر سامي إجابة وتحدث ببعض الإسهاب عن المحاضرة التي يشارك فيها هذا الفصل الدراسي وما يخبرهم به البروفيسور من نظريات. «في اليومين الماضيين فَحَصتُ المعلومات المتوافرة لإجراء بحث في مجال توريث العرب لحب الجنس، طبعاً ليس من السهل التَحقق من موقف قدامى العرب من الأجداد، لكني عثرت على إحصائيات مُذهلة تشير إلى متابعة العرب لأفلام ومواد الجنس على الإنترنت؛ وبالتالي فالكارثة المستقبلية ستكون أنْ نُورث هذا للأجيال القادمة». صَمتَ سامي وانتظر

جودت سماع الأرقام التي يتحدث عنها زميله الذي فتح شاشة هاتفه، وأخذ يقرأ بعض المقاطع:

«في الوقت الذي تُبدي الشعوب العربية، علنياً، نفوراً ومعارضة للبورنوغرافيا على الإنترنت، تُظْهِر عاداتها الفردية السرية واقعاً مغايراً، الإباحية منتشرة بشدة في العالم العربي، ووفقاً لـ(Google AdWord) فإن ١٠٪ من عمليات البحث عن كلمة sex (جنس) على الإنترنت في كل العالم تعود إلى الدول العربية الـ(٢٢)؛ هذا مع العلم أن نسبة السكان العرب لبقية العالم تعادل ٥٪ فقط، ولا زال هناك الكثير من سكان بعض الدول العربية لم تصلهم خدمات الإنترنت، وهذا يرفع من نسبة الأفراد العرب في البحث عن الجنس الإلكتروني». يُجرِي العالم العربي حوالى ٥٥,٤ مليون عملية بحث عن هذه الكلمة شهرياً (إذا ما استثنينا ٢٤ مليون عملية بحث إضافية عن كلمة جنس بالعربية)، أي ما يعادل الولايات المتحدة والهند، اللتين تُعدان من رواد استهلاك الإباحية الإلكترونية في العالم؛ مع الأخذ في الاعتبار أن (٨٦٪ من الأميركيين لديهم اشتراك إنترنت، و٢٠٪ فقط من الهنود لديهم اشتراك)! ولعل الأمر المثير للاهتمام هو أنه عند ضبط هذه الأرقام لتعكس مدى سهولة وصول الأفراد العرب إلى الإنترنت (النسبة تراوح بين ٨٥٪ من سكان الإمارات العربية، و١,٤٪ من سكان الصومال لديهم الأنترنت) فكل مئة مستخدم عربي، يُجْرونَ ما يقارب ٥٢ عملية بحث شهرياً، مقابل ٢١ للولايات المتحدة، و٣٦ للهند، و٤٥ لفرنسا و٤٧ لباكستان.

تُظْهِر المعلومات التي توفرها شركة الإحصاءات الإلكترونية (اليكسا)؛ أن المواقع الإلكترونية المخصصة للكبار تشكل ٧ من المواقع الـ(١٠٠) الأكثر استهلاكاً في الولايات المتحدة، وهو رقم كبير، ولكن ٦ دول عربية

تتجاوز أميركا نسبياً وهي الجزائر، العراق، لبنان، ليبيا، تونس واليمن؛ كما أنه ، وفقاً لـ(Google Trends) التي تُظْهِرُ حجم البحث عن كلمات محددة نسبة للأبحاث كافة على غوغل، يميل سكان المنطقة العربية للبحث عن كلمة sex أكثر من أي مكان آخر في العالم، باستثناء شبه القارة الهندية. تزودنا الإحصاءات الإلكترونية أيضاً بلمحة عن التنوع البحثي في الدول العربية المختلفة، وتُظْهِر أذواقاً وثقافة إقليمية متفاوتة؛ فبينما يبدو أن مصر، أكبر دولة عربية من حيث عدد السكان، هي أكبر مستهلك للمواقع الإباحية بالمطلق؛ إذ تستحوذ على ٤٤٪ من عمليات البحث عن الكلمات الإباحية في المنطقة، كما يظهر أن العراق وليبيا يُسجلان أعلى الأرقام من حيث عدد الأبحاث للفرد الواحد.

في العراق، يبلغ معدل البحث عن مجموعة من الكلمات المتعلقة بصور ومشاهد خلاعية ٨٤ لكل ١٠٠ مستخدم للإنترنت شهرياً، بينما تُسجل ليبيا ما يعادل ٥٤ عملية بحث؛ أما المغرب، فتُسجل حوالى ٥ عمليات بحث فقط للكلمات نفسها لكل ١٠٠ مستخدم، جنباً إلى جنب مع عُمان وموريتانيا اللتين تُسجلان حوالى ٧ عمليات بحث شهرياً. إذا تَعمقنا في الكلمات التي يستخدمها العرب للبحث عن مشاهد بورنوغرافية سنرى العجب؛ فبينما يتم البحث عن كلمة «بزاز» حوالى ٨٩٥,٠٠٠ مرة شهرياً وعن كلمة سحاق حوالي ٧١٨,٠٠٠ مرة شهرياً (تُسجل العراق أكبر عدد من مستهلكيها على المستوى الفردي)، يبدو أن كلمات أُخرى، أَكثر غَرابة، تحظى بشعبية أكبر؛ حيث تُسجل كلمة «نكاح الحيوان» (بالعربية والإنكليزية) حوالى ١,٠٣ مليون مرة شهرياً في المنطقة، وكلمة «نكاح المحارم» ١,١٨ مليون مرة شهرياً؛ ولو رُصدت كلمات أُخرى لزادت الأرقام الإجمالية مثل ما يتعلق بأجزاء الجسم والأعضاء التناسلية وأوضاع النكاح.

في المحاضرة الأخيرة تَحدثَ بعض الطلاب والأستاذ أيضاً عن نكاح المحارم، وطرحوا أمثلة من الحضارات القديمة وعبر العالم، لكن يَبدو أن البحث عن هذا النوع في الإنترنت يُدللُ على الرغبة فيه؛ وربما يعكس سعة انتشاره أيضاً». أنهى سامي قراءته وتعليقه على مسامع جودت الذي بدا مندهشاً!

«الإنسان يبحثُ عما يحب ويشتهي سواء من التجربة أو من الخيال؛ عموماً هذه الأرقام ستكون ذات قيمة أكبر بكثير لو عرفنا نسبة الإناث للذكور ممن يبحثون عما ذكرت». تذكر جودت السؤال إذا كان هذا التعلق وراثياً وأضاف: «يمكن أن يكون الأمر وراثياً، ولكنه كما يبدو لا يخص الجنس العربي فقط، فأميركا والهند، كما قلت، لديهما نشاط إلكتروني جنسي قوي، لكن يمكنك الاستشهاد بارتفاع النسب عند العرب لسببين؛ الأول الحرمان الجنسي نتيجة للتربية؛ وربما لهذا نرى الإقبال على طلب مشاهدة نكاح المحارم في الانترنت، السبب الثاني قد يكون وراثة جينية أيضاً، وربما هناك دور للمناخ، ولا يَغرنك كثرة حديث الشيوخ والأصوليين بدرجاتهم المتنوعة والمتعددة الطبقات، حول عفة الماضي وتخريب الغرب لأخلاق الحاضر الإسلامي».

«كيف؟» استعجل سامي أخذ المعلومة التي يبدو أنها الحلقة المفقودة فيما ينوي كتابته في بحثه.

«كان الجنس العلني منتشراً قبل الإسلام، فهناك الزواج المتعدد، وهناك بيوت تَرفع الرايات دلالة على استقبال الناكحين، وكان بعض الرجال الضعاف جسدياً يسمحون لنسائهم بالتَبضع الجنسي عند رجل قوي البنية لإنجاب أطفال أصحاء، وبعد الإسلام استمر حب النكاح مع تحريم التَبضع وتغيير بيوت النكاح إلى بيوت غناء وطرب، وطبعاً

تحديد الزواج بأربع نساء فقط وتوسيع أنواع المحارم التي يُمنع نكحها. وشهدت الحقبة بعد الإسلام مباشرةً كثرة الطلاق وزواج الغير بما يشبه التبادل؛ ولكن ضمن الشريعة. في مرحلة لاحقة؛ وعندما تَمركز رأس المال في أيدٍ معينة ظهرت بيوت الحريم للأغنياء والخلفاء والسلاطين.. كل مظاهر إخفاء الأنثى لا علاقة لها بالعفة والدين، وإنما سعي الذكر للاستحواذ الجنسي إلى درجة عدم مشاهدة الآخرين لملكيته. بالطبع لا تنسَ كتب الجنس العربية القديمة وروايات ألف ليلة البورنوغرافية البحتة في نصوصها الأصلية؛ وهي بالمناسبة من أكثر الكتب مطالعةً في العالم العربي، وبوسعك البحث في النت عن كتب الفقهاء القدامى حول أوضاع النكاح ونصائحهم بهذا الصدد، أما عن الشعر الجنسي والغزل بالجسم الأُنثوي، بل بأجسام الغلمان، فَحدث بلا حرج.. يعني يُمكنك القول إن كثافة الأمر ربما تكون وراثياً عند العرب؛ ولكنهم أخفوه ظاهرياً عن الغير في الحقب الأخيرة وادعوا الأخلاق، وقننوا الدين ضد الجنس، حتى جاء (الانفتاح الإنترنتي) لِيُظهر لنا خفايا النفوس».

«أتذكر أخي الأكبر حين كان يُرسلني إلى بائع أشرطة محدد في الشام لأطلب منه أفلاماً ثقافية جديدة، ويُوصيني بالحديث المنفرد مع البائع والعودة مباشرة إلى البيت لأُسلمه الأشرطة التي عرفت فيما بعد أنها كانت أفلاماً خلاعية! اليوم يُقدم الإنترنت هذه المواد مجاناً وبدون قيود، وتَكثر مشاهدتها بخصوصية، ومحاربتها وشجبها في العلن!». تَذكَر سامي ضرورة التركيز على ما يرتبط بالجينات والوراثة، أو ما يمكن تحويره في هذا الاتجاه حتى لا يسير في طريق غير نافع لبحثه.

«سمح الرئيس محمد مرسي في عهده بحوارات برلمانية جادة حول تغيير بنود في الدستور تُبيح زواج الفتيات وهن في سن الرابعة عشرة،

كما ناقش جماعة الإخوان الذين يسيطرون على السلطة سُبل منع المواقع الجنسية على الإنترنت، وتوصلوا إلى دراسة تفيد الحاجة إلى ثلاثة مليارات ونصف مليار دولار لإنجاز المهمة، ولو لم ينقلبوا على رئاسته لأُهدر المال في قضية فنية يصعب التحكم فيها، وفشلت بعض دول الخليج في تطبيقها، فلا شيء يقف في طريق القضيب العربي». قال جودت وهو ينهض لِيودع سامي وأضاف؛ «ربما ليس القضيب وحده صاحب الإرادة في هذا النضال. جاء في إحدى رسائل الجاحظ: «عُرِضَتْ جارية على الخليفة المتوكل فقال لها: إيش تحسنين؟ فقالت: عشرين لوناً من الرهز، فأعجبته فاشتراها»

جِيناتٌ وهِرْمُونات

خَط البروفيسور على السبورة عناوين كتب إضافية تَخُص المواضيع المُعالجة في هذا الفصل الدراسي، وأعاد على الطلاب أن بوسعهم الاستفادة من أي كتب ومراجع أُخرى إضافية؛ ولكن ليست بديلة لما أبلغهم بها في المحاضرة الأُولى وما خطه الآن. «إلى جانب الجينات وعوامل الوراثة سنعالج في هذا الفصل بعض أنواع الهرمونات، وتأثيرها في تصرفات العقل البشري، ورؤيته الاجتماعية، وتحديداً موقع الديانات في العقل». سألت أنيتا الأستاذ عن نقاش بقية البحوث القصيرة التي وزعها الطلاب فيما بينهم، فأجابها يورجن أنها خدمت هدفها بتوسيع مجال البحث، وتوزيع الأفكار بين المشاركين، لكن ما سَيُعتمد هو البحوث المشتركة المُوسعَة، وقال للجميع: «عندما تَنْجزُ مجموعةٌ بحثاً يجب أن يُسلم إلي؛ ولاحقاً نُوزعها على الجميع، لديكم أربعة أسابيع لإنجاز البحوث». فتح يورجن دفتر ملاحظاته وتَوجه بالحديث إلى الطلاب الذين تأهبُوا لتسجيل ملاحظاتهم:

«لو سَألتَ نفسك لماذا لا يقتنع معظم البشر أن الإنسان تطور إلى ما هو عليه الآن من أصل كائني مختلف، أي حسب نظرية التطور؛ بينما عوالم الطب والعلوم كلها تعمل من منطلق نظرية التطور بما فيه موضوع الجينات الذي يدل على نظرية التطور واستمرارها إلى الآن، وكونها قابلة للتحكم فيها ولكن ببطء شديد، سيكون الجواب مرتبطاً بطريقة التفكير للعقل. ليس

من الحكمة مقارنة نظرية التطور بمقولات الأديان التي تؤمن بخلق الإنسان من الطين قبل ستة أو عشرة آلاف سنة على الأكثر. الإثباتات العلمية تؤكد العثور على بقايا إنسان عاقل قبل مائتي ألف سنة، وهناك اكتشافات جديدة لإنسان مُشابه لنا عاش قبل أربعمائة ألف سنة. تعرفون طبعاً أن الإنسان العاقل تَطور عن سلالات شبه بشرية أسبق؛ وقد اندثرت وبقيت آثارها العظمية. الآن لو حَكمنا العقل لدى أي إنسان متوسط الذكاء يُفترضُ أن يُصدق نظرية التطور أسهل من أخذه بمقولات دينية عجائبية صدقها السابقون لنقص معرفتهم. صعوبة الاقتناع ناتجة من كسل دماغي وخوف اجتماعي، وكلاهما يسايران الأغلبية والموروث من العادات والأحكام».

«لدينا إثباتات قاطعة من آثار جماجم بشرية قديمة متلاحقة التطور، حتى وصلت إلى شكل جمجمة الإنسان الحالي الهوموسابيس، ولدينا إثباتات غير قابلة للشك على انقراض أجناس شبه بشرية وحيوانية من أحجام مختلفة.. وكلكم تعرفون تقارب تركيبنا الجيني مع بعض الثدييات وفي مقدمتها الفئران، وهناك حقائق يومية نعايشها في المختبرات والتجارب قائمة على نظرية التطور. الآن على كل منكم توجيه سؤال إلى نفسه: لو سرت في غابة موحشة ليلاً، وسمعت فجأةً صوتاً غير متوقع، ماذا سيخبرك عقلك؟ بالتأكيد ستظن وجود خطر وتَتَحفز للوهلة الأُولى للتَصدي أو الهروب لتنجو من الموت».

«هكذا نحن الهوموسابيس مُبرمجون منذ نشأتنا، نفترض الخطر ونتحفز للتَخلص منه حفاظاً على الحياة، ولو اتضح عدم وجود أي خطر فلا بأس فلن نتكلف الكثير؛ لكن لو كان الخطر حقيقياً ولم نتحفز فقد يكون الثمن هو الحياة! لو كان الإنسان مخلوقاً ربانياً حسب الأديان التي تُؤمن بالقضاء والقدر لَمَا توجب على الإنسان الحذر، فالموت أَجل مكتوب في

مكان وزمان معينين ولا مناص منه. الإيمان بالقدر سيمنع الحذر، ويؤدي إلى انقراض النوع غير القادر على التَكيف البيئي والفكري». كان بعض الطلاب يؤيدون برؤوسهم ما يسمعون، والبعض الآخر سكنت حركتهم.

«الأفكار الجامدة لا تفيد ولا تنتشر؛ وتَنقرض مع أصحابها بعد فترات طويلة من التجمد والتخلف، والأفكار السهلة والمنطقية والظاهرة للعيان والقابلة للإثبات يَسهُل انتشارها، فأي الفكرتين يمكن للعاقل تصديقها؟ نظرية تطور لم تَعد خيالية؛ وإنما نتعامل مع تطبيقاتها العلمية يومياً، أم قصة شق البحر بعصا والمشي فوق الماء، وإحياء الموتى والطيران على ظهر حيوان بسرعة البرق إلى السماء السابعة؟! عقل الإنسان السَوي يوثق معلومات كحقائق ثابتة إذا كانت هذه الأفكار مُتماشية مع ما يوجد في الدماغ، وعقل الإنسان المتدين يرفض أي فكرة يَلتمس فيها تَناقضاً مع مخزون معلوماته الذهنية الأُخرى المُكتسبة، ولا يهمه إذا كانت الأفكار الجديدة صحيحة أو خاطئة؛ ما دامت لا تتطابق مع القالب الذهني الذاتي.. الدماغ التقليدي لا تهمه الحقيقة؛ وإنما البقاء والاستمرار، ولذلك يُؤمن بظواهر غير طبيعية، وبدون دلائل؛ لأنه وَرث هذه المعتقدات التي ظن أنها مَثلَت في زمن ما دوراً في حمايته من الأخطار؛ مثل حماية الآلهة للبشر من الأشباح والشياطين، ولا تزال هذه الاقتناعات سائدة، ويَظن معتنقوها منذ أسلافنا الأوائل أنها تحميهم وتمنحهم البقاء».

«انتبهوا قليلاً.». قال البروفيسور، ثم أكمل بعد نظرات تفحص إلى الطلاب: «.. سأُخبركم بشيء أعرفه تماماً؛ نبع الماء في أسفل جبل القلعة في هايدلبرج يعرفه بعضكم؛ وربما تحابيتم هناك أو تناولتم في رحابه كأساً من البيرة، لكنكم لا تعرفون أن الشرب من هذا الماء وغسل الوجه يعيدان النظر إلى الأعمى فوراً! من يُصدقني منكم فليرفع يده ليراه الجميع».

«.. لا أحد منكم يُصدق ما قلته؟ دعوني إذاً أروي القصة عليكم بأُسلوب آخر: ذهب أعمى إلى نبي وسأله الشفاء وأطلعه على حاجته إلى النظر ليعيل زوجته الكسيحة، كان النبي يعرف حاجة هذا الأعمى فقال له: صل ثلاثة أيام متتالية، ومن ثم سَيَحين ظهور القمر مكتملاً؛ وحينئذ ستذهب إلى النبعة المُقدسة، وترفع يديك مبتهلاً ثم تغمسهما في الماء، وتشرب ثلاث جرعات وتغسل وجهك ثلاثاً». «وبالفعل قام الأعمى بما طلب منه النبي واستعاد نظره!».».الآن لأني أخبرتكم في البداية بما هو غير منطقي فلن تصدقوا قصتي الثانية، لكن لو رويت لكم القصة الثانية أولاً لصدقها البعض ولم يعارضها آخرون، ولم يجرؤ البعض الآخر على إنكارها علناً. هذا بالطبع رغم أن جوهر الروايتين واحد! عليكم سؤال أنفسكم لماذا تَنكرون قدرة نبع ماء صافٍ على شفاء أعمى؛ وتُصدقون، أو أقله بعضكم، المعجزات التي تتحدث عنها قصص الديانات ومنها معجزات تَحدث بفضل الماء، ولا يزال مليارات من البشر يعتقدون بقدرة ماء زمزم، وماء الكنيسة، والتعميد، وينابيع موسى، على إحداث معجزات شفاء للمرضى؟ السر في هذا أن اقتناعاتك تتكون على مدى طويل، وتترسخ الأفكار منذ الطفولة».

«في البداية عندما نستمع إلى فكرة مغايرة نستنكرها حتى لو كانت موضوعية، البعض يتقبلها تدريجاً ويعتبرها ربحاً ذهنياً وآخرون يرون فيها تناقضاً مع اقتناعاتهم، وتهديداً لها إذ تتطلب منهم استبدال منظومة المعلومات المكتسبة تراكمياً ونَسف أُسسها».. «إذا أردتَ إقناع الآخرين بفكرة فلا تَطرحها عليهم بديلاً كاملاً لمنظومتهم، بل استهدف جزئيات صغيرة تَكْثُر تدريجاً حتى تُحدث تناقضات في منظومتهم».

«... الجينات تتحكم في الجسم البشري، أما الهرمونات فتدير عمل

هذا الجسم، وهناك أكثر من مائة هرمون تُفرزها الغدد؛ ولكل منها خواص ومهام للحفاظ على الحياة ضمن أفضل الظروف. لن ندخل في عالم الطب؛ لكننا سنتحدث عن بعض الهرمونات المُؤثرة في تصرفنا الاجتماعي حتى نعرف لماذا نحب، ونكره، ونخون، ونثق، ونخاف، ونتشجع، وبقية التصرفات التي تبدو لا إرادية، ويفرضها علينا العقل، ولنعرف لماذا تصدقون قصصاً وتنكرون أُخرى. سأخبركم ببعض هذه الهرمونات وعليكم البحث عن غيرها مما تؤثر في تصرفاتنا الاجتماعية»:

«السيروتونين، هرمون دماغي يتوافر لدى كل الثدييات، ويتحكم في المزاج والشهية والنوم؛ إذا غضبت أو حزنت لأي سبب سيهبط هذا الهرمون وسَتُصاب بالكآبة، وإذا وصلك خبر جيد سَيرتفع مستوى الهرمون؛ وتشعر بسعادة تُعادل مقدار الخبر الجيد. الدماغ ينتج السيروتونين أيضاً بعد النشاط الجسمي الرياضي لإخفاء حالة الإرهاق وتعميم الرضا والسعادة، أي إن العقل يَتحايل إيجابياً على الجسم».

«الدوبامين، هو باختصار هرمون الإدمان؛ ولكنه مُخصص للمكافأة، ويُفرز الجسم هذا الهرمون عندما يعجبه فعل ما؛ تدخين أو ممارسة جنس، أو نوع من الطعام، أو حتى التحبّب إلى الله، ويطالب الجسم بتكراره».

«... هرمون الاستروجين مُحفز للجنس».

«البروكتين يُنتج الحليب في الغدد الثديية، ويُقدم المتعة والارتياح بعد ممارسة الجنس».

«المورفين هرمون يُقاوم الألم بعد الجهد الجسمي».

«هرمون الأدرنالين للكر والفَر، يَنقل السكر والأوكسجين بسرعة إلى الخلايا في حالة الخوف أو الخطر، ولهذا تتسارع دقات القلب لتوصل الغذاء إلى الخلايا».

«أوكسيتوسين، يعتبر هرمون الحب والثقة؛ ومُقاوماً للخوف، ومنشطاً

للتقارب الاجتماعي، يزيد من تدفق حليب الأُم ويضَيقُ عنق الرحم ويُشارك في هَزة الجماع».

نهض البروفيسور وأخذ يكتب أسماء الهرمونات على السبورة ويعيد على الطلاب مفعولها، ثم استدار إليهم وقال: «سَأطرح عليكم الآن موقفين إنسانيين، وعليكم التدقيق في سبب حدوثهما؛ بمعنى التفاعلات التي تسببت بكل من الموقفين».

تَمهلَ يورجن حتى انتهى الطلاب من تسجيل أسماء الهرمونات، واستعدوا لسماع ما عليهم تفسيره.. «فتاة عزباء ذات الخامسة والعشرين من العمر، ورجل متزوج ولديه عدة أطفال، التقى الاثنان مصادفة أثناء تناول الكحول، وهما يجلسان متقاربين على البار، شاهدت الفتاة خاتم الزواج في إصبع الرجل؛ ولكنها أعجبها شكله، رفعت يدها ولمست يده.. تَشجع الرجل وتناسى الزوجة، والأولاد، والعواقب، وطلب منها أن يذهبا ويختليا؛ فطاوعته. سيكون عليكم تحليل مجريات ما حدث من منطلق هرموني». انتظر يورجن لحظات ليمكنهم من كتابة تفاصيل الحدث.

«الموقف الثاني كالتالي: أثناء صلاة جماعية ذات حركات رياضية، على طريقة بعض الكنائس الأميركية أو صلاة اليهود والمسلمين ذات الحركات الجسدية، يركع أحد المصلين، ويتضرع إلى ربه ثم تنهار دموعه، أُريد تفسيركم لماذا حدث هنا؟».

الراعي والقَطيع

لم يتمكن حميد من النوم رغم ما يَشعر به من إجهاد جسدي في إِثرَ عودته على الدراجة الهوائية إلى غرفته بعد مساء عمل طويل. كان يفكر في ما سمعه حول الهرمونات، والإدمان في محاضرة يوم الجمعة. كل يوم سبت وأحد يعمل حميد في صحيفة المدينة من العاشرة مساءً حتى الثالثة صباحاً؛ يجلس على شريط متحرك يقذف إليه بالصحيفة من دواليب الطباعة، فيضع مجلة إعلانات في وسط طي الصحيفة ويدفعها على الشريط إلى قسم التغليف قبل أن تنقلها الشاحنات للتوزيع فجراً. العائد المالي لهذا العمل، المضني والمُمل، جيد لأن عمل الليل بأجر مضاعف، ويكفي المبلغ حميد لدفع أُجرة غرفته في سكن طلاب كبير من عدة بنايات يَفصلُ بينها مساحات خضراء، وبقرب المكان بحيرة طبيعية صغيرة خارج حدود هايدلبرج.

عَلقَ في ذهنه وأقلق نومه ما قاله البروفيسور باعتبار التدخين يُولد النيكوتين؛ وبالتالي يُسبب إدماناً يُطالب هرمون الدوبامين بتكرار فعله، وقوله إن الطقوس الدينية تتسبب بإدمانها عليها، والتمسك بالأفكار الكامنة خلف الطقوس. «المسلمون من أشد الناس تمسكاً بدينهم وإدماناً له؛ وبالتالي يُفترض أن يحترموا مبادئه وقوانينه». قال له عقله وهو مستلقٍ يحاول النوم بعد حمام ساخن سريع لإزالة السواد عن يديه من آثار حبر الصحف. «المسلمون هم أكثر فئات العالم تدخيناً، وهذا يتنافى مع فلسفة دينهم، وهناك آيات تحرم ذلك»! «لكن الآيات لا تحرمه بالاسم»! قال له

جزء آخر من عقله، فرد عليه: «ليس كل مُحرم يَرد تحريمه بآية من القرآن، بل ولا حتى بحديث من السنة، لكن الدخان يأتي تحريمه لأدلة عامة من القرآن مثل: تحريم الخبائث، وتحريم كل ما يَضر بصحة الإنسان ويؤدي بنفسه إلى التلف، وكذلك تحريم تبذير المال، والجاهل بذلك إن سَألَ أهل العلم فسيعطونه جواباً بالتحريم». حاول الجزء الآخر من عقله التدخل بالقول إن الشيوخ يدخنون؛ فقاطعه: «الأهم أن القرآن واضح بالقول: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾. وأيضاً بالقول: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا * وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ﴾. ربما لم يَذكر القرآن التدخين بالاسم؛ ولكن الدخان من الخبائث، ويؤدي إلى الموت حسب شهادة العلماء وتجارب العلم، وإنفاق المال على شرائه بمثابة تبذير، ﴿إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾.

استعاد حميد سبب هذا التسلسل في أفكاره واستنتج أن الإدمان لدى المؤمنين ليس على أفكار وفلسفة دينهم، ولكنه على طقوس العبادة؛ إذا صَح القول بأن هذه الطقوس تؤدي للإدمان عليها؛ مثل مدمن الرياضة والرقص والجنس. لو طَرحت الأمر كتساؤل على البروفيسور فسيقول لي الإدمان على الحركات والطباع، ولو تمكن المؤمنون من فلسفة دينهم وأَلموا بها ومارسوها، لأدمنوا عليها أيضاً.

تراجع عن فكرة السؤال بعد أن جالَ في ذهنه فَرض الله الصيام، وكيف حَولَ المسلمون شهر العبادة إلى شهر عربدة طعام، وتبذير، وسهر، وانصراف عن العمل! وكذلك فَرضُ الزكاة الذي يتفنن الناس في التهرب منه والتحايل عليه. هم يُدلون بالشهادتين، ويصلي غالبيتهم بشكل

ميكانيكي بسبب الإدمان، ويَحج للبيت من استطاع إليه سبيلا.. تقافزتْ أفكاره ثم همدت وغط في النوم.

أَفـاق في الصباح متأخراً حسب برمجة مُسبقة أعدها لمواعيد محاضراته كي تناسب توقيت عمله ونومه، خصص يوم الإثنين من كل أسبوع للراحة والتسوق، وبعض الاستعداد لمواضيع الدراسة. قرر قبل عمل أي شيء؛ البحث في الإنترنت، والمراجع، والدراسات عن اختبارات تتماشى مع موضوع المحاضرة حول الجينات والهرمونات، وتأثيرها على البناء والسلوك البشري. «أعتقد أن الفكرة لن تخطر في بال أي طالب». قال لنفسه وعزم على الإشارة لهذا الأمر أمام البروفيسور يورجن وبقية الطلاب، فَيُسجل له التفرد والتخصص.

«علينا أولاً البحث عن المواد وتجهيزها». تساءل لماذا يتحدث عن نفسه بصيغة الجمع؟!، ولماذا يُخبر نفسه بما سيفعله؟! تجاهل الإجابة؛ وانغمس بحثاً في الإنترنت، وأخذ يسجل أسماء العلماء، والكتب، والمختبرات التي تَظهر على الشاشة ليتمكن من التعمق في بعضها لاحقاً. طَالع عناوين الكثير من التجارب التي تُثبتُ استعداد الغالبية العظمى من البشر لتَقمُص دور الجَلاد والسَجان، وتنفيذ الأوامر القاسية وبشدة ضد الآخرين، وتجارب تؤكد ظاهرة تَجاهل المحتاجين وعدم مساعدتهم، وكلما ارتفع عدد المارة قرب من قد يكون في خطر؛ قَل تجاوبهم مع هذا المحتاج. وهناك تجربة لعلماء نفس تَقمصوا دور مجانين، وتم اختبارهم وقبولهم في مَصحَاتٍ نفسية كمرضى، ولكنهم فشلوا لاحقاً في إقناع الأطباء أنهم عقلاء، ولم يُفرج عنهم إلا بعد أسبوعين؛ وبتعهد يقولون فيه إنهم مرضى، وخرجوا على مسؤوليتهم الخاصة. الجزء الآخر من هذه التجربة كان سؤال أطباء نفس أن يُميزوا بين مجموعة من المتطوعين؛ أيهم

عاقل وأيهم مُختل، وقد فشل الأطباء في ذلك، وأثبتت التجربة صعوبة التمييز بين الأصحاء والمرضى النفسيين.

عثر على تجربتين باسم (ضغط النظائر)؛ وكيف ينسجم الفرد مع المجموعة إذا رأى أنه قد يَشذ عنهم. وهناك عدة تجارب للعالم البولندي سولومون أش؛ تُظهِرُ الأثر المذهل الذي يُحدثه رأي الأغلبية في التأثير على الفرد والمجتمع، أو (عقل القطيع).

تَمَعن حميد في تجربة عقل القطيع كونها تُسَهل فهم انجرار الناس بدون نقاش خلف أفكار عَفَى عليها الزمن منذ آلاف السنين.. كانت التجربة متعددة الدرجات، ففي البداية جلس ممثلون مع مشترك يَظن أنهم مشتركون مثله في التجربة، طُلِب من الفريق التَمعن في خط مستقيم رُسم أمامهم، ثم أصبح عليهم اختيار شبيه من ثلاثة خطوط أُخرى رُسمت أمامهم؛ واحد قصير بوضوح؛ وآخر طويل؛ والثالث مشابه. أمر سهل جداً. اختار الممثلون بالإجماع الخط القصير، فنَظَر المشارك، وتَردَدَ ثم اختار مثلهم، وكرروا التجربة فاختار أحد الممثلين الخط المشابه بالفعل، وعارضَ الآخرون اختيار القصير، لكن المشارك انضم إلى الخط المشابه عندما وجد من يناصره. وأُعُيدت التجربة بأشكال أُخرى باختلافات بسيطة؛ مثل اختيار الممثلين في البداية اختيارات صحيحة ثم يختارون بشكل خاطئ ويُجمعون على صحته، بينما لم يخالفهم المشارك، الذي يتجدد كل مرة، أي من خياراتهم، واعتمد على رأي الجماعة، ولم يستعمل حواسه وعقله، وعندما تم الاختبار بممثلين اثنين فقط وأغلبية من المشاركين؛ لم تنجح الأقلية في إقناع الأغلبية بخطأ الاختيار الصحيح الذي انحازوا إليه.

«ربما تندم الأغلبية الأميركية التي انتخبت ترامب الآن بعد أن ظهر لهم شبه جنونه، وعدم صلاحيته». دار في ذهن حميد؛ وتَذكَر ما نُشر

من إجماع عدة أطباء نفسيين راقبوا تصرفات ترامب؛ وأعلنوا أنه مُصاب بمرض النرجسية؛ التي توصف بأنها سرطان معنوي ينسف الحالة الصحية للمُصاب، وقد تدفعه النرجسية إلى معاداة المجتمع وكل من ينتقده؛ كما أن النرجسي يرفض النقاش أبداً. وكانت هيلاري كلينتون قد حَذرت الأميركيين قبل التصويت بأن ترامب غير صالح عقلياً، ومزاجه قد يؤدي بأميركا إلى الهاوية.

مر في خاطر حميد أيضاً وهو يراجع الاختبارات، انصياع غالبية البشر لأديانهم التي تُلَقَنَ لهم منذ الطفولة؛ فلا يَجرؤون على الخروج العلني عن الجماعة التي ربما هم في السر غير مقتنعين بها، ولهذا لا يُطبقون أفكار وروح معتقداتهم مثل الأمانة، والصدق، والسلام، وحب الغير، ولكنهم يَتَظاهرون بتطبيق الطقوس، ويؤمنون بوجود الله. «حتى أغلبية المُلحدين وكل العلمانيين تقريباً يُؤمنون بوجود الله، أو قوة عليا، وفي طقوسهم اليومية يتوكلون على الله ويُسمون باسمه، ويَستعيذون به من الشيطان، وبالطبع عند المرض والاقتراب من الموت يتصرفون، ولو سراً، بعاطفية وينذرون إلى الله إذا شفاهم، أو يَتشهدون عند النَزْعِ الأخير؛ ظناً منهم أنهم لن يخسروا شيئاً على كل الأحوال! لماذا يحدث ذلك؟».

ابتعد عن الكمبيوتر، وتوجه إلى المغسلة، قذف بالماء على وجهه، اقترب من المرآة بحثاً عن الشعر على خديه، وأمسك بالملقط لإزالة ما يقع خارج حدود الحلاقة، تَوقف ونظرَ إلى حاجبيه وأنفه، ثم نظر إلى عينيه وأخذ يُدقق في تفاصيل اللون. ارتدع عن مواصلة التحديق، أَطفأ النور فوق المرآة، وانسحب إلى الخلف، فشاهد تشوهات خلف انعكاسه، واصل التحديق وقاوم رغبة الارتداع الذاتي، لاحظ تَغيراً في ملامحه، صَمدَ في مقاومة أوامر الذهن بالابتعاد؛ فَظن بعد وهلة أنه يشاهد وجه والده في

المرآة، ارتعب وأَدارَ ظهره لها وعاد إلى الكمبيوتر ليبحث عن اختبارات يستفيد منها في كتابة بحثه المشترك مع زملاء لم يتم تحديدهم بعد.

توقف حميد لِتَفحص تجربة قام بها الدكتور جم فاوس على الجرذان، وضع أُنثى جرذ في قفص بعد أن دَهنها برائحة كريهة، ثم أَدخلَ إليها جرذ ذكر عديم التجربة الجنسية، طوال الأسبوع تَجنب الذكر الأُنثى رغم اقترابها منه، ولكن الدكتور كان يُجدد دهنها يومياً بالرائحة الكريهة، ثم حَفز الدكتور الجرذ الأُنثى جنسياً؛ فَبذلت جهوداً مُغرية لإقناع الذَكر بممارسة الجنس معها، ونجحتْ في ذلك؛ بل أَصبحَ يُمارسه معها أربع مرات يومياً برغم استمرار رائحتها. بعد أن تعودَ الجرذ الرائحة وممارسة الجنس تم نقله إلى قفص مع إناث نظيفة وبدون تلك الرائحة، ولكنها فَشلت في إغوائهِ، حتى قام الدكتور بطلي إحداها بالرائحة الكريهة نفسها، فاقترب منها ولقحها. النتيجة لهذه التجربة أن الثدييات يرتبط حبهن للشيء؛ حيث أفرزت هرمون الدوبامين، هرمون السعادة، للمرة الأُولى، فالجرذ ربط بين السعادة والجنس مع الرائحة الكريهة، والإنسان الذي يعيش سعادة القذف للمرة الأُولى سيرتبط هواه بالظرف الذي ساد حين القذف الأول ونشاط شعور السعادة الفائق حينذاك؛ «لذلك فإن أفضل ممارسة للجنس في الهواء الطَلق». استنتج حميد ذلك بصوت مسموع، وقد تَذكرَ أنه قذفَ في بنطاله؛ ولا إرادياً لأول مرة حين راقب بدوية تُصاحبُ أغنامها، رَفعتْ ثوبها فظهرت مُؤخرتها، والتفتتْ حولها ثم جلستْ تَبُولُ بين الأشجار وهي مُطمئنة. بعد ذلك تَعلمَ كيف يَسْتمني، وصار يُفضل فعل ذلك بين ربوع الطبيعة. «لا داعي للاستمناء الآن». قالَ لقضيبه بعد أن تَحركَ قليلاً، وغادر الغرفة إلى المطبخ ليتناول الفطور، وقد حَانَ وقت الظهر، قبل أن يترك السكن لشراء مُستلزمات الأُسبوع القادم.

عَادَ ذهنه إلى الراعية، ومن ثم الرَعي والرعَاة، ومُصطلح الرَاعي والرعية، والقطيع، سواء كان من الماعز أو الإبل أو البقر، وإلى المقصود بعقلية القطيع.. تذكر أنه طَالعَ معلومة اشتغال كل الأنبياء بالرعي في مرحلة من حياتهم. القطيع يبقى متقارباً أثناء الرعي، ويتحرك بشكل جماعي، وحين يبتعد بعضه تعيده الكلاب إلى الجماعة، بل يعود إليها أيضاً غريزياً حين يشعر باقتراب خطر فيهرع إلى القطيع، أما الراعي فيتعلم تصرفات القطيع من مخالطتها ومراقبتها، واستنتج أنه حين يرمي حجراً أو يُصدر صوتاً إلى المخالف منها يركض عائداً إلى القطيع. يتعلم الراعي أيضاً كيف يَحلِبها ويستفيد منها، وكيف يُحسن إليها ليحافظ على إنتاجها، ويتعرف إلى تفاوت عقولها واختلاف طباعها، وكيف يُدرب الكلاب لتحميها من الأخطار الخارجية.

عاد من التسوق قبل المغرب، وانكب على الكمبيوتر يجمع ويسجل ما يراه مناسباً، استعمل يده اليمنى للكتابة، وأَمسك باليسرى بتفاحة يلتهمها. لقد توقف بين محطة الباص وموقع السكن أمام شجرة تفاح على قارعة الطريق وجمع حبات من ثمارها. عثر على دراسة عن إدمان الطعام: قامت جامعة ميتشغان الأميركية بدراسة الأطعمة التي يصبح تناولها شكلاً من أشكال الإدمان، كونها ترتبط مباشرة بمركز المكافأة في الدماغ، هذا الإدمان يُعرف بحالة «فقدان السيطرة على الاستهلاك».

شارك في التجارب ٥٠٤ أفراد، وتم تحديد الأطعمة المُدمنة من بين ٣٥ نوعاً كانت مجال الاختبار، تَصدرت البيتزا قائمة الأطعمة المُسببة للإدمان، ثم أَتت الشوكولاتة في المركز الثاني، تلتها رقائق البطاطا، ثم الكوكيز، فالمثلجات، والبطاطا المقلية، يليها البرغر، فالحلوى، وأخيراً الجبنَة. ثَبتَ أن الأطعمة العشرة الأُولى بالقائمة تتضمن جميعها نسباً

عالية من الدهون والكربوهيدرات، أما الأطعمة الأقل إدماناً فكانت الأرز، والتفاح، والبقوليات، والجزر، والخيار. إدمان الدهون وما تحتوي على سعرات حرارية عالية مُرتبط بعقل الإنسان منذ أزمنة غابرة؛ حين كان يجمع الحبوب، ويصيد الحيوانات، والطيور، والأسماك، لتوفير غذائه، ورَبطَ العقل البشري بين كمية السعرات والشعور بالسعادة، لأن نَيلها سيعني راحة عن العمل بضعة أيام، وهكذا يُطالب الدماغ بتكرار هذا الفعل، بينما الأطعمة الفقيرة تتطلب البحث الدائم عنها بالكاد لسد الرمق.

تنبه حميد لِطَرق على باب غرفته، فأذن للطارق بالدخول، واستدار عندما سمع صوت جارته تُخبره أنها جلبت من بيتهم أمس كعكة كبيرة أَعدتها والدتها، وسَألته إذا كان يرغب في الانضمام إلى بعض سكان الطابق ليشارك في التهامها «بالطبع».. أجاب فوراً ونهضَ وهو يسألها إذا كان اليوم عيد ميلادها.

«.. لا لا أمي أَصرت في نهاية الأُسبوع أن تعجنَ وتصنع عدة أنواع من الكيك، وحَمَلَتني كعكة الغابة السوداء الثقيلة الدسمة، ولو أكلتها وحدي، حتى على بضعة أيام، فستقضي علي». أخبرها أنه سيشاركها في الانتحار اللذيذ، وتَبِعها إلى المطبخ حيث تَجَمُعُ أربعة مدعوين آخرين تتوسطهم كعكة تكفي لعشرة من الأفراد. أَحضرتْ إبريق الماء الساخن، وأَخذتْ تصب في الأكواب فوق ميداليات الشاي؛ بينما البقية يضعون ما يحتاجون إليه من سكر، ويضبطون توقيت رفع الميدالية بالنظر إلى قتامة الشاي؛ وكل حَسب مِزاجه.

«لو حصل أجدادنا على واحدة من هذه لاستراحوا يومين أو ثلاثة عن العمل في الجمع والصيد». انتبهوا إلى حديث حميد، وظهر على ملامح بعضهم عدم استيعاب المَقصد! فَحدثهم عن المحاضرة التي يشارك فيها

هذا الفصل، وعما عثر عليه قبل قليل عن إدمان الأطعمة هذه الأيام، وعلاقة الإدمان بهرمون السعادة.

نَاولَته قطعة كبيرة مثل الآخرين، فَشكرها، وغرز الشوكة في القطعة وهو يتأمل الآخرين الذين لا يوجد بينهم من يعاني سُمنة، بل بعضهم أَنحف من المعتاد.

«الأطعمة التي ذكرت أنها على قائمة الإدمان هي اختياراتي المُفضلة مع غيرها من المأكولات الدَسمة، لكنني لا أعاني البَدانة، ولا أشعر أنني مُدمِنَة، بمعنى أنه يمكنني التوقف وقتما أشاء، ولا أتناول إلا القليل من الطعام أصلاً».

«.. نعم مشكلة السمنة هي كمية الطعام المتناول، وقلة الحركة والنشاط». قاطعتْ جارته المُضِيفة جارتها المُضافَة، وتأمل حميد بنظرة سريعة كلتيهما فبدتا كمحترفتي ريجيم.

«لم أقصد بحديثي عن الإدمان أنه يَخص أصحاب الأوزان غير الاعتيادية؛ ولكن يمكن للنحيف أن يُدمن حُب تناول الأطعمة اللذيذة الحلوة والدسمة». نظر حميد إلى جاره جارته وأكمل «أنتِ بالتأكيد تُفضلين البيتزا والهامبرجر على الفاصولياء والجزر، لكنك لا تُجَارين رغباتك بالمزيد، فلنقل إنه نصف إدمان للشباب الذي يُحافظ على أوزانه في هذا الجيل، لكن بعد مرحلة الشباب والنشاط يبدأ الروتين والتراخي، وتَظهرُ أعراض إدمان الأطعمة والمشروبات».

«أنا مدمن الفيسبوك.. أعترفُ بذلك». قال هيرمان، جار حميد المباشر من الناحية الأُخرى. «لقد راقبت مشاعري بشبه حياد؛ عندما يتفاعل البعض بسلبية مع تعليقاتي فهذا يُغضبني، ويعكر مزاجي، وأَبدأ التفكير الابتعاد ومقاطعة الفيسبوك، وعلى النقيض كلما ارتفعت اللايكات تنتعش نفسيتي،

لا أُخفي عليكم أنني أحياناً أضع لايكات على نشاط أصدقاء بحثاً عن رد الجميل على لايكات في المقابل على الرغم من عدم إعجابي أو اهتمامي بما كتبوه أو نشروه، أي أتملقهم ليحبوني». نظر هيرمان إلى حميد وكأنه يتوقع تعليقاً منه.

«لستُ خبيراً نفسياً، ولكن بقدر ما سمعت من البروفيسور إلى الآن، وما طَالعته استعداداً لإنجاز البحث؛ يمكنني التَخمين أن إدمان الفيس هو مطلب طبيعي إستجابةً لهرمون (أوكسيتوسن)، وعندما تحصل على الإعجابات ترتفعُ عندك كمية هرمون الدوبامين، وهو هرمون السعادة المُسبب للإدمان، والذي يَظهر في أفضل حالاته عند الممارسة الجنسية، ولحظات القذف. أما عندما يُغضبك بعضهم فَتُفرز هرمون الأدرنالين الذي يُحفزك لمواجهة خطر؛ سواء واجهت وحشاً في الغابة، أو عدواناً من متنمر، أو إجحافاً على الفيس بوك، فالأدرنالين يرفع ضخ الدم في مناطق على حساب مناطق أُخرى من الجسم ليست ضرورية في تلك اللحظة.. هذا ما أظنه». أضاف حميد بعد أن قطع من الكعكة: «شخصياً لا أفتح الفيسبوك إلا ربع ساعة قبل النوم، وبعد الانتهاء من كل أُمور يومي، حتى لا أُفاجأ بما يُعكر مزاجي لو رأيته في فترة العمل».

«كونك عربياً وفلسطينياً تَدرسُ عن الإدمان، هل لي بسؤالك إذا كان الإرهاب إدماناً؟» تَوقفَ الضيف الرابع عن التهام الكعكة، ولم يكن قد شارك في الحديث إلى الآن، وأعلن استهجانه لسؤال برقينا لحميد، وأبلغه أن معنى اسم جارة جارته (برقينا) هو الجبلية الجلفَة.

«لا يُغضبني سؤالها هذا، ولكني لا أعرف سببه!» قال حميد للمُدافع عنه (بيرنرد)، وهو ينظر إلى برقينا. وكان حميد قد تَعود مثل هذه الأسئلة وأَشد منها خلال إقامته للدراسة في ألمانيا، فقد كان البعض من كبار السن

أو العمال يسألونه إذا كان يحمل قنابل في جيوبه، فيجيبهم بالنفي، أو يَقلبُ أحد جيوبه الفارغة، فيصدقونه ويُكملون تعاملهم معه بشكل طبيعي.

«لم أقصد أي إساءة» قالت برقينا وأكملت: «لكن كون حميد عربي مثل الكثير من اللاجئين السوريين لدينا، أُريد معرفة لماذا يمارس بعضهم الإرهاب هنا وفي أوروبا بعد استقبالنا الوُدي لهم، وإنقاذهم من ورطة صنعوها بأنفسهم في بلادهم». كانت تنظر إلى بيرنرد وهي مُمسكة بالشوكة استعداداً لغرزها في الكعكة، ثم سَألته ماذا يعني اسمه، فأخبر الجميع بالمعنى وهو الدب الشجاع.

«أُنظري يا برقينا» أجاب حميد بعد أن استجمع بعض الأفكار «السوريون شعب طيب ومخلص وعملي، وهم أقرب الناس لطباع الألمان، وهذا ما يعرفه أهل الاختصاص هنا، ولهذا حَفزوا السوريين تحديداً على اللجوء بأعداد كبيرة إلى ألمانيا لإنقاذ الاقتصاد بتوفير العَمالة؛ ومن ثم تأمين معاشات المتقاعدين الألمان من الجيل القادم؛ هذا بدون الحديث عن مخاطر الانقراض التي تواجه الشعوب المتقدمة بالنظر إلى قلة الإنجاب، وتراجع أعداد السكان سنوياً.. أَظنك تعرفين هذا ولا أحتاج إلى التفصيل». لم تجب برقينا واسترسل حميد: «اللاجئون قادمون من تجربة حروب كانت تَمُس حياتهم بشكل يومي، ولذلك هربوا أصلاً إلى بلاد غريبة بعد أن تبهدلوا سنوات في ظل الحرب، والإرهابيين من كل نوع؛ وبالتالي ربما يعرف بعض اللاجئين إرهابيين من أقاربهم ومعارفهم، بالتأكيد هناك من قد يَضل ويُخيل إليه أن الغرب عموماً مسؤول عن كارثتهم فيقوم ببعض الأعمال من باب الانتقام، لكن هذه فرضيات مني في الهواء، فحتى الآن لم يقم أي لاجئ سوري بأي عمل إرهابي في هايدلبرج أو ألمانيا أو أوروبا، أم لديكِ معلومة أُخرى؟» لم تجد برقينا أي إثبات في جعبتها على الرغم

من كثرة الحوادث التي اتهم الإعلام المتسرع بها لاجئين، وتم الخلط بين الأجنبي عموماً حتى لو كان مُتجنساً، واللاجئين السوريين.

«برقينا» قال بيرنرد ناظراً إليها، وأكمل بعد ثوانٍ: «ما رأيك في طعم كعكة أم ماري؟» ارتشفوا بقية الشاي، وامتنعوا عن تناول قطع أُخرى من الكعكة، وبَالغوا في مديح طعمها، وتَمنوا على ماري أن تشكر والدتها ولا تجعل هذه آخر مرة.

غَيْبِيْاتٌ وأساطير

«نكبة سوريا أعظم من نكبة العراق؛ هجرة، وتهجير، وقتل، وتدمير جنوني» كان ذهن حميد يسترجع أحوال المنطقة وهو مسلتقٍ على ظهره. «لماذا كل هذه الحقارة والتقتيل؟ هل يستحق الكرسي كل هذا البلاء؟ ليس الكرسي فقط بالتأكيد، لأن من يفعل هذا لن يصمد إلا على خازوق». أَمسك بهاتفه الجوال ثم أعاده إلى مكانه فلم يطاوعه عقله في الهروب إلى السياحة الإنترنتية. «إنه الدين سبب كل هذه المشاكل، قد يقول البعض إنه الفهم الخاطئ للدين، ولكن ما هذا الدين المفهوم من أتباعه خطأً منذ موت الرسول، حيث بدأ الصراع على منصب الخلافة، وقُتل الخلفاء الثلاثة بعد خلافة الرسول، وكلهم من الصحابة، ونشأت الطائفية الشيعية ظناً منهم أنهم شيعة علي بن أبي طالب، وباشروا الاختلاف بالقتل، وإبادة بعضهم البعض انتقاماً وثأراً متواصلاً حتى يومنا هذا».

«عائلة الأسد عَلوية، يعني من أتباع علي؛ وبالتالي تنحاز الشيعة الإيرانية إليهم ضد السنة، وفي العراق استقوى الشيعة بإيران، وبأميركا، والغرب لذبح السنة، وفي ليبيا تنقسم الفرق المتقاتلة حسب الانتماء القبلي، والانفجارات المتوالية في دول إسلامية تدور حول هذه الفرق الإسلامية المتصارعة، والكل يَتهم الكفار والغرب ويحملونه المسؤولية». تنبه حميد لطرق على باب غرفته، اعتدل في جلسته وأَذِن بالدخول.

«مساء الخير، آمل ألا أكون قد أزعجتك». قالت ماري وقد توسطت الغرفة.

«أهلاً وسهلاً، بل أنقذتني من أفكار مزعجة». قال لها ودعاها إلى الجلوس، لكنها أبلغته رغبتها في التمشي خارج البناية وسألته مرافقتها، فاستجاب لها. كان الهواء دافئاً بعد يوم مشمس، انجذبا بدون خطة إلى السير باتجاه شاطىء البحيرة القريبة من أبنية سكن الطلاب.. «هل تعرفين أنني أسبح أحياناً إلى الضفة المقابلة؛ وأقطع بعض أكواز الذرة، وأعود بها للشواء على هذه الضفة!» قال وسألها إذا كانت تجيد السباحة.

«نعم، ولكن تبدو المسافة بعيدة ذهاباً وإياباً.». أجابته وهي تلتفت إليه وتقترب من وجهه رافعة حاجبيها «.. لماذا تأكل هذه الذرة، إنها مُخصصة لعلف المواشي؟».

«قد تكون كذلك، ولكنها لذيذة مسلوقة أو مشوية، هل جربتها؟».

«أعرف طعمها من العلبة، واستعملها أحياناً في خليط السلطة.».. توقفا عن الحديث إذ شاهدا سيارة إسعاف تتبعها سيارة شرطة تخترقان الساحة بين الأبنية، وتتجهان إلى شاطئ البحيرة حيث هبط الظلام، دفعهما الفُضول إلى إسراع الخطى في ذلك الاتجاه.

«قد تكون قنبلة، وها نحن منقادون بالغريزة» توقفتْ، فأخبرها أنه يُمازحها، فوجود الإسعاف يعني حالة مرضية، ومرافقة الشرطة تعني حادثاً ما. التف بعض الطلاب الذين وصلوا قبلهم إلى الشرطة، وشاهد حميد صديقه عبد الرحمن يتحدث بانفعال ويشير إلى الماء، تسارع خفقان قلبه، وانقبضت معدته، وتَقدم حيث صديقة ليستطلع الأمر وهو يدعو ربه اللطف، اقترب حتى وضع يده على كتف صاحبه، والتقت نظراتهما المفجوعة.

«أسبر غرق في البحيرة» قال عبد الرحمن، وبالكاد واصلت ساقا حميد الوقوف بعد أن ارتَجتْ ركبتاه، أَسندته ماري؛ وسألت عبد الرحمن إذا كان يقصد الطبيب أسبر؟! أَكدَ لها ذلك بإشارة من رأسه، وواصل التجاوب مع أسئلة رجال الشرطة.

«نحتاج إلى غواصِين» سُمع صوت شرطي آخر يتحدث عبر اللاسلكي مع مقر قيادته «لا أعتقد ذلك فهو مفقود من ساعة ولا يجيد السباحة». أَحضرَ بعض الطلاب سياراتهم إلى الشاطئ، وأشعلوا مصابيحها فانكشف الشاطئ ونصف البحيرة تقريباً، وتَأهب البعض للقفز إلى الماء لو شاهدوا شيئاً، ولكن لم يظهر أي أثر لأسبر، لقد أيقن حميد، مثل عبد الرحمن، على الفور أن اختفاء أسبر بضع دقائق يعني أنه قد غرق؛ فهو معوق، أحدب قصير القامة، وكان أحياناً يسبح هنا في الليل خجلاً من سباحة النهار. لم يكن ماهراً في السباحة ولكنه يَتدبر أمره بالقرب من الشاطئ، وقد رافقه حميد في الماء مراراً. كانا صديقين، وكان حميد متيقناً أن لأسبر أفضالاً لا تعُد عليه. في هذه الليلة المشؤومة رافقه صديقهما عبد الرحمن إلى البحيرة، وهو لا يجيد السباحة بل يغطس في الماء مثل حجر لو حاول السباحة.

كان أسبر يدرس الطب عندما وصل حميد إلى هايدلبرج، تعارفا، وتطوع أسبر لمرافقته إلى كل الجهات المسؤولة، يُسر لحميد نيل القبول الجامعي ثم الإقامة السنوية، وغرفة السكن هنا وهي المخصصة للجدد من الطلاب ولفترة قصيرة فقط، ولكن أسبر أقنع الإدارة بضرورة فتح المجال الزمني للأجانب، وأصبح معروفاً لكل السكان. كان عنيداً لا يتقبل من الألمان أي تأجيل في المعاملات ويُخبرهم أنهم يماطلون، وكانوا يخشون إغضابه واتهاماته لهم، استمرت علاقتهما، وتحولت إلى صداقة قوية رغم فارق السن والاهتمامات الأكاديمية. كان أسبر في الأشهر الأخيرة لإنهاء تخصصه الطبي، وصار يتحدث كثيراً عن العودة إلى لبنان، ويهب الوعود لأصدقائه أن يرسل إليهم أفضل أنواع العَرَق الذي لا يُقارن بالأوزو اليوناني، كما كان يقول.

انسحبت الشرطة والإسعاف، وتَمنَوا على الطلاب الإبلاغ عن أي تطور أثناء الليل، وأخبروهم أن فرقة الغوص سَتحضر في الصباح فلا جدوى في مثل هذه الحالات من العمل في الليل. أطفأت السيارات تدريجاً أنوارها، وانسحبت الواحدة تلو الأخرى، بينما انتشر الخبر بين الطلاب العرب؛ فتوافدوا إلى الشاطئ، وأشعلوا ناراً وتجمهروا حولها. مرت الدقائق كالساعات على حميد وأصدقاء أسبر المقربين، ورفضت ماري العودة إلى غرفتها، وبقيت إلى جانب حميد، كانت ساعات كئيبة، وراودت حميد المشاعر التي سيتلقى فيها أهل أسبر الخبر، وكيف سيستقبلون ابنهم في تابوت، وكانوا ينتظرونه طبيباً متخصصاً بعد أشهر قليلة. اتفق حميد وعبد الرحمن على مسمع من الآخرين ألا يخبرا أهل أسبر بالفاجعة إلا بعد انتشال الجثة من الماء. «سنقنعهم بعدم حضور أي منهم، وأننا سنقوم بكل المطلوب حتى يصلهم جثمانه إلى مطار بيروت بأسرع وقت». وافق الجميع على فكرة حميد، وتحادثوا عما يجب عمله، ووزعوا المهام فيما بينهم.

مرت الأيام بحزن وكآبة على الجميع، وتوافد الكثير من زملاء أسبر في التخصص إلى صالة الاجتماعات في السكن؛ التي تحولت إلى بيت عزاء، وتصرف الطلاب العرب بروح تعاونية مثالية، عراقيين، وفلسطينيين، ومصريين، ولبنانيين، وسوريين، وسودانيين، نجحوا في إحياء التعاون، وتَدبر التقاليد العربية في مثل هذه الحالات، وتجنبوا الأحاديث السياسية التي تضعهم في خنادق متضادة، ووفقوا أيضاً في إقناع الشرطة بعدم تشريح الجثة، وإرسالها في خلال ثلاثة أيام إلى بيروت.

أثناء فترة العزاء؛ وصلت حميد رسالة عبر الواتساب من صديق خارج ألمانيا، وبها صورة مارد خارج من اللمبة، ويقول كتابة إن مجموعة أرقام ستظهر الآن، وعليك اختيار رقم منها، والنظر إلى عيني المارد، ومن

ثم ستزول الأرقام، وتعود إلى الشاشة بدون الرقم الذي اخترته.. يعني المارد سيعرف الرقم ويحتفظ به. قال صاحب حميد الذي أرسل اللغز أنه يحاول اكتشاف السر منذ أيام دون جدوى. عندما أعاد حميد التجربة للمرة الثانية اكتشف السر بسهولة، فتعجب من غباوة صديقه، أَطلع جاره هيرمان على اللغز فقام بالمطلوب، وأعطى حميد الحل فوراً بدون تكرار التجربة.. استغل حميد وجود الطلاب الدائم في أواخر أيام العزاء، وأطلع من يعرفهم على الرسالة. جودت الذي يشاركهم في السكن حل اللغز من المرة الثانية، صالح، عضو لجنة البحث عن مساكن للاجئين، فَشل وأعاد الهاتف، وتصرفَ وكأن ذهنه مشغول بأشياء أخرى، بعض الطلاب أظهروا التعجب وقال أحدهم إن الهاتف حديث وفيه كاميرا ترصد حركة العين وثباتها على الرقم فيعرف المارد ماهيته.

شك حميد أن الأمر يتعلق بالعقل المتدين، والعقل العلماني، فالعرب الذين توصلوا إلى الحل يساريون سياسياً، ومثلهم الألمان حسب معرفة حميد لبعضهم. قرر أن يطرح الأمر واستنتاجه الأَولي على البروفيسور غداً قبيل المحاضرة، وأخذ موافقته على إجراء هذا الاختبار للطلاب.

«ما الهدف الذي تسعى إليه من هذه التجربة؟».

«أعتقد أن العقل الذي يُؤمن بالغيبيات هو في الأساس ملم بالأساطير، وسَيسهُل على الجني خداعه في التجربة، لأنه يؤمن بالمعجزات وبالجن والملائكة، وهذا الجني المارد روايته مشهورة وراسخة في الأذهان أن بوسعه عمل ما يريد». أجاب حميد البروفيسور، وكان قد زاره في مكتبه قبل ربع ساعة من موعد المحاضرة.

«هل فكرت كيف سَتُنفذُ التجربة؟ ليس من اللائق سؤال زملائك من يؤمن بالله ومن هو ملحد، وبدون ذلك لن تتمكن من فرز النتائج».

«يمكنني سؤالهم من زار كنيسة أو مسجداً أو معبداً أكثر من مرة في حياته، وبعد الحصول على إجابات برفع الأيدي، أسالهم من يؤمن بالغيب؛ الذين يشتركون في الإجابتين سأعتبرهم مؤمنين والبقية غير ذلك». قال حميد بما كان قد فكر فيه بالأمس، وأخبر يورجن أنه سيرسل اللغز إلى هواتف زملائه، ويطلب منهم التوصل لحل اللغز خلال خمس دقائق فقط «ومن ثم نسأل من عرف الإجابة، وبعد كم محاولة، ومن عجز عن الحل».

«لا بأس سأطلب منهم التجاوب مع تجربتك هذه، وإذا ثبت صحة نظريتك فسيكون علي تفسير الأسباب بدون جرح شعور أي أحد». تجاوب البروفيسور، وطلب من حميد الذهاب إلى صالة المحاضرة، وتبادل أرقام الهواتف، والطلب ممن لا يملكون واتساب أن يجلسوا بجانب الآخرين. «عليَّ الاستعداد لما سأقوله لو نجحت يا حميد، إذهب الآن وسأتبعك بعد دقائق».

كانت نتيجة التجربة أن حوالى نصف الذين يُؤمنون بالغيب، وزاروا معابداً فشلوا في حل اللغز ضمن الوقت المحدد؛ بينما بقيتهم نجحوا بعد عدة محاولات، على الطرف الآخر نجح ثلثا الملحدين في التوصل للحل في بحر محاولة أو إثنتين فقط، وفشل الثلث الباقي.

«هذه التجربة التي فكر فيها زميلكم تقريبية فقط، فنحن لم نحسم أمر المعتقدات، ولم نُقسم المشاركين إلى نصفين، لكن النتيجة جيدة ومنطقية ضمن هذه الظروف». باشر البروفيسور تعليقاته «تعرفون الآن أن الجني خدعكم، وكان يزيل كل الأرقام وليس فقط الرقم الذي اختاره كل منكم، وما سَهلَ خداعه لكم أنه كان يُقلب الأرقام، فيصبح رقم ١٢ مثلاً ٢١، وهذا ما يَصعُبُ على الذهن إدراكه فوراً، أما الذين تمنكوا من حل اللغز بسرعة فهم لا يعرفون قصة الجني وعلاء الدين، ولا يؤمنون بالمعجزات،

والسحر، والغيبيات، وبالتالي استنتج ذهنهم بمنطقية استحالة قدرات الجني، ولاحظوا فوراً أن كل الأرقام تتغير». لخص يورجن الأمر، ونظر إلى ساعة معصمه ليرى كم انقضى من وقت المحاضرة، واستأنف الحديث: «أراكم منشرحين، وهرمون السعادة طاغياً عليكم». أجاب البعض بنعم، وغيرهم بإيحاءات أو ابتسامات عريضة، وظهر بعض الامتعاض على سامي وإستيرا؛ إذ كانا في عداد الذين فشلوا في حل اللغز.

ذَكرَ البروفيسور طلابه بالمهمة التي أَوكلها إليهم في الأُسبوع الماضي، وطلب منهم تفسير مجرياتها. «أظن أنكم أنجزتم التفسير، واستمتعتم بالبحث عن الحل، وأعتقد أنكم أصبحتم تلمون أكثر بما يدور في عقولكم، وبتفاعل أجسامكم». قال يورجن لطلابه الذين بدت عليهم اللهفة لإظهار قدراتهم على تفسير ما حدث للفتاة والرجل وللمُصلِي.

«... سأشرح لكم الآن تفسيراً مُوجزاً لأن تجربة حميد أهدرت بعض الوقت، وعليكم مقارنته بما توصلتم إليه، وتحديد درجة التقارب أو التباعد، واعتقادي أنكم أنجزتم المهمة بنجاح؛ لكن الوقت لن يكفي للاستماع إلى الجميع». مَط البعض شفاههم بشيء من الامتعاض، فقال يورجن وهو يضحك: «لا تتركوا السيروتونين يؤثر فيكم». لنفترض أن الفتاة في أواخر فترة دورتها الشهرية؛ وبالتالي هرمون الجنس، الأوستروجين، مرتفع في جسمها، ومع تناولها للكحول حدث تباطؤ في نشاط عقلها، واسترخاء في مراعاة محاذير الخطر، غريزياً كل أُنثى تبحث عن مصدر لقاح جيد للحمل، ورأت الفتاة في الشاب صفات جينات جيدة. أما الرجل فكان على الأرجح مجهداً من يوم عمل، وهرمون السعادة، الدوبامين، منخفضاً من تذكره لمشاكل في البيت والعمل، وربما لديه ملل وروتين في الجنس مع زوجته، وهي أمور يمكن التحكم فيها عادة، لكن الكحول أضعفت

قدراته على تقييم الخطر المتمثل بخلق مشاكل مع الزوجة إذا عَرفت، وربما تؤدي الأمُور إلى الطلاق بما يجره من مآسٍ على الأطفال. هكذا عندما لمسته الفتاة انساق للغريزة التي تطالبه على الدوام بتوزيع جيناته قدر الإمكان، فَتحسنَ الدوبامين لديه بعد أن لمسته الفتاة، وارتفع عنده الأوكسيتوسن فَتحفز جنسياً وتجاهل المخاطر.. الفتاة تبحث طبيعياً عن شريك جيد تُنجب منه، ويساعدها على التربية، ورغم معرفتها أن الرجل متزوج من وجود الخاتم في إصبعه، ولا توجد فرصة جيده للاقتران به، إلا أن الغريزة والهرمونات وبتأثير من الكحول عَطلتا قرارها السليم، وانجرتا وراء «هرمون المتعة».

«اما بالنسبة إلى المُصلي الباكي فقد تَأثرَ من خلطة مورفين، ودوبامين، وسيروتونين، التي أُفرزت نتيجة للحركة، وربما تكرار الصلاة منذ صغره. الحركات أَنتجتْ المورفين لتخفيف الألم، وبسبب تعوده الصلاة تَولد لديه الدوبامين فأسعده، والقمة طبعاً هي هرمون الحب والثقة عندما يشعر أنه في حضرة ربه، هكذا تفيض مشاعره ويبكي فرحاً وسعادة وحباً». قال يورجن وأكمل: «لا يوجد أي دين ناجح على الإطلاق بدون طقوس متكررة؛ وبالتالي ترتبط الطقوس والعقيدة والانتماء بالخلطة الهرمونية. لو اخترع ماركس طقوساً يمارسها الشيوعيون لما طَوَى الزمن نظريته بهذه السهولة، كل مؤمن بدين وإله لديه اقتناع صارم أن دينه وربه هما الأصح، وهما اللذان يُنشئانه، ولذلك هو مستعد لمعاداة أنصار الأديان الأُخرى، إذ إن معتنقي كل دين يتعاطفون بعضهم مع بعض حتى لو فَرقت بينهم الأماكن، والثقافات، والأجناس، ويعادون معتنقي الديانات الأُخرى حتى من جيرانهم، ولغتهم، وثقافتهم. لو ابتعد مؤمن عن دينه وانتمى إلى دين آخر فإنه بعد فترة من ممارسة الطقوس الجديدة سيحصل على جرعته الهرمونية

المريحة، لكن رفض تبديل الانتماءات لدى المؤمنين يعود إلى خوفه على ضياع منظومته الفكرية، والاجتماعية، والعاطفية، التي اكتسبها طوال عمره، وأصبح مدمناً إياها. إذا طَلبتَ من مؤمن أن يُغير دينه أو يتركه، فأنت تهدد سعادته المتراكمة، ولا مجال هنا للإثباتات العلمية وعلم المنطق، لكن إذا تكونت جماعة سرية، أو عصابة لديها طقوس متكررة في أوقات محددة، فيمكن بعد زمن أن تخلق هذه الطقوس والتعاطف بين الأعضاء بديلاً أو مرادفاً لسعادة المؤمن، ويَعتبر العضو أن حرمانه من الانتماء يهدد سعادته، وسيدافع عنها بشراسة. إخلقْ الطقس؛ واربطه بمجموعة أفكار مفيدة للأعضاء، سيتولد كأس الخليط الهرموني للالتزام بهذه الأفكار التي تتحول إلى كأس إدمان».

عندما أشرفت المحاضرة على نهاية وقتها؛ استغلت أنيتا لحظة سكون، وسألت يورجن عن ميل العلمانيين والشيوعيين للاعتقاد بالله في حالات الضعف، أو على حافة الموت، وقالت إن هذا حدث مع أحد أقاربها الشيوعيين.

«هناك نظرية تُعرف باسم نظام الاعتماد؛ أي اعتماد الثدييات على الأم للرضاعة والحماية، وتتعرف الثدييات إلى أولادها وأبنائها بسهولة، وهذا يعزز نظرية الاعتماد. في حالة البشر أصبح الأمر غريزياً أن يعتمد الطفل على والديه، وأن يعتني الوالدان بالطفل، لأنه بطاقة مرورهما الجينية إلى المستقبل، ولا بد من حمايته. ويمتاز الإنسان بأنه طَورَ هذا النظام، وأضافَ إليه الاعتماد أيضاً على أصدقاء، لكن في النهاية عندما يواجه الإنسان شدائد لا يمكن النجاة منها بدعم صديق بشري فإنه غريزياً يبحثُ عن صديق أقوى، ويُوَكل أمره إلى السماء. يعني في البداية يتمسك الطفل بوالديه، ثم بدميته الخاصة، ثم بأصدقاء، ولعدم معرفتنا بما وراء الموت

يلجأ البعض في النهاية إلى عدم إنكار وجود قوة عظمى خفية؛ ويَودُ مصادقتها واسترضاءها. هذه غريزة؛ كما أن الإقرار من علماني أو شيوعي بوجود قوة عليا لا يوجب عليه ضرورة الاعتقاد بدين ما، فهذه الأديان متقاتلة متناقضة، ولم تُقدم دليلاً أنها مصوغة من تلك القوة العليا. كل الثدييات تطورت مثل بقية الكائنات من الخلية الواحدة؛ التي انشطرت، وتطورت تدريجاً إلى ما نراه اليوم من اختلاف بين الكائنات، ومن تقارب أيضاً بين الثدييات في الغرائز والتركيب». أنهى البروفيسور إجابته، وطالب الطلاب بالاتفاق الآن فيما بينهم وقبل مغادرتهم بناية الكلية على استكمال تشكيل جماعات مشتركة لإعداد البحوث التي سيتقرر عليها منح علامات في نهاية الفصل.

غَريزةٌ وحِرْمان

«الأفضل أن تحاولي عدم الاحتداد في النقاش مع الآخرين». قال اتسوشي بهدوء مستعملاً إشارات يدوية لتهدئة إستيرا، وأضاف حتى لا تغضب منه: «أنتِ تُجيدين الألمانية، وتتحدثين بسرعة عندما تغضبي، وأنا لا أفهم ما تقولين»! أَيده كل من ماركوس وبيرثا بإيماءات من الرأس، وقَدمتْ بيرثا سندويتشاً لإستيرا. كان أربعتهم قد اتفقوا على قضاء أطول وقت ممكن من يوم الأحد معاً في ربوع الطبيعة؛ ليتناقشوا فيما جَمعهُ كل منهم من معلومات للبحث المشترك، وليتفقوا على من يصوغ البحث، وكيفية مراجعته قبل إقـراره، وتقديمه للبروفيسور. التقوا عند الجسر الحجري القديم، وسط المدينة، ونقلتهم بيرثا بسيارتها إلى قرية زيقل هاوسن القريبة، أو الأحرى إلى غابة واسعة هناك مكتظة بالأشجار، ومرتبطة بمسارات مشاة تحمل علامات مميزة على الأشجار، وتَربِط بين مساحات عشبية خضراء أُزيلت منها الأشجار؛ ويوجد فيها مقاعد خشبية ومواقد نار للشواء وسلال للنفايات.

«هذا المكان الهادئ واللون الأخضر يجددان نشاطي، وأشعر بشحن طاقتي». قالت بيرثا لإستيرا وهي تُناولها السندويتش، على أمل تغيير موضوع الحديث الذي أثارته زميلتها الكردية عن الرئيس التركي؛ وسكوت الغرب عن أفعاله الجنونية. لم يكن أربعتهم قد باشروا التعامل مع موضوعهم الأكاديمي حتى انطلقت زميلتهم باتهام أردوغان أنه المسؤول عن العملية الإرهابية في لندن أمام مبنى البرلمان.

قالت لهم إن الرئيس التركي بعد أن شتم ألمانيا وقادتها، هَدد الغرب بأن أي مواطن أُوروبي لن يسير بأمان في أي شارع في العالم إذا استمر موقف قادة أوروبا على حاله تجاه السياسة التركية. وفي اليوم التالي بالضبط في ٢٢ مارس قام مُتحول إلى الإسلام، مولود في بريطانيا، بدهس العشرات على جسر ويست منستر؛ ومحاولة اقتحام البرلمان بسكين، وتسبب بقتل خمسة وجرح أعداد كبيرة من الأبرياء.

«آسف على احتدادي في الحديث؛ لكن ألا تعتبرون ذلك تحريضاً على القتل، والاستجابة للتحريض هو ما جرى في لندن؟!» لم تسمع إستيرا منهم جواباً، وكان أملهم الابتعاد أو تأجيل الحوارات الجانبية حتى الانتهاء من هدف وجودهم هنا. «لم يربط أي سياسي أُوروبي إلى الآن بين التهديد والحادث، لأنهم يَلبسون عباءة السلام لإخفاء عجزهم أمام الفاشي أردوغان». أنهت حديثها وأخرجت بعض الأوراق من حقيبة تحملها، وعادت لِتُنهي السندويتش.

«موضوعنا هو التوسع في زواج الأقارب والأرحام، والبحث في تأثيرها الجيني، بمعنى رؤية إذا كانت تلك الممارسات ساعدت على تحسين النسل واستمرت، أو إذا كان ممارسوها من الأُمم والجماعات التي تقدمت، أو التي تلاشت على مر العصور». قال ماركوس لزملائه وكان اتسوشي قدم بحثه المُوجز قبل أسابيع عن هذا الموضوع؛ ولكن في العصور التي مضت، وفي إطار ممارسات الأباطرة والحكام، وأخبرهم البروفيسور آنذاك أن هذا التقليد سائد إلى الآن في الكثير من الأماكن، فَتشجع الأربعة على طرقه في بحث موسع، ووزعوا جوانب العمل بينهم قبل هذا اللقاء؛ ليتفحص كل منهم جانباً معيناً.

«وفق تقرير لمعهد ماكس بلانك الألماني نُشر عام ٢٠٠٧م، فإن نِكاح

المحارم بموافقة الطرفين مشروع في إسرائيل، والصين، وفرنسا، وساحل العاج، وهولندا، وروسيا، وإسبانيا، وتركيا. وصدر هذا التقرير آنذاك بعد الكشف عن علاقة بين أخ وأخته أَنتجت أربعة من الأبناء، وأَلقت السلطات الألمانية القبض على الأخ، وحَبسته مدة عامين ونصف العام بتهمة زنى المحارم». قال ماركوس وشرح لزملائه الذين فوجئوا بما سمعوا؛ أن التقرير اعتبر أن نِكاح الأقارب من الدرجة الثالثة مرفوض ومكروه؛ فشمل تلك الدول في بوتقة واحدة. في إسرائيل مثلاً يُسمح بزواج الرجل بابنة أخيه أو ابنة أخته، وهذا مُحرم لدى الديانات المسيحية والإسلامية، بينما في تركيا يُسمح بزواج أبناء العم والخال، وهذا بدوره مُحرم في الديانة المسيحية، وفي دول الغرب غير المتدينة، ولكن بعضها تَمنحُ معتنقي الديانات الأُخرى حق ممارسة طقوسهم.

«لقد جمعتْ معلومات عن أقوام يمارسون نِكاح المحارم من الدرجة الأولى الآن في زماننا هذا، والملاحظة الأُولى هنا هي تَخلف هذه الأقوام وانضوائها». تَدخلت بيرثا، وقَلبَتْ صفحات في دفترها وأضافت: «بالنسبة إلى إسرائيل واليهود؛ فقد تَسبب زواج الأرحام والأقارب لديهم بمشكلة صحية وهم واعون لها، ويحاولون التعامل معها، لكن القانون الديني يرفض إلغاء هذه العادة، وبالنسبة إلى غيرهم ممن يتزوجون أقاربهم فهم عموماً أُمم تقع في نهايات سلم التقدم العلمي والاجتماعي بين بقية الأُمم، وكلما تقارب الأزواج، وانتشرت الظاهرة ينخفض مستوى النمو والتطور، وإن كانت عوامل أُخرى تساعد على استمرار التخلف». تروت بيرثا، ونظرت إلى زملائها وأعربت عن مخاوفها من الخروج عن الشق العلمي في بحثهم، واقترحت إضافة جزء عن المِثلية الجنسية نظراً إلى انتشار دراسات جديدة تَربط هذه الرغبة باختلال في الحمض النووي لدي الجنين.

«لكن هذا الجزء سيكون علمياً بحتاً..!».

«ليس بالضرورة.». قاطعت بيرثا اتسوشي وشرحت: «ليس كل من يمارسون هذا النوع من الجنس مِثليين بفطرتهم، أو نتيجة لخلل في حمضهم النووي، فهناك أسباب أُخرى تؤدي إلى هذا الجنس، وهي أسباب اجتماعية في الغالب، وهكذا نَزُج بجزء علمي ونتائج اجتماعية لإعطاء بحثنا زَخماً إضافياً، لقد انتشرت هذه الممارسة مثلاً بين البَحارة منذ القدم، ونشروها في المناطق التي وطئوها». وافقها الثلاثة، وتناول ماركوس علبة مشروب غازي، وعادت بيرثا تُخبرهم بما عثرت عليه من معلومات حول نِكاح المحارم والأقارب في الوقت الحاضر.

هناك قوم يمثلون جزءاً من قبائل الهنود الحُمر في البرازيل والبيرو؛ يُقدسون جماع الابن للأُم؛ عندما يَبلغ، ومن ثم يشارك والده مدة عام في نكاح أُمه، وبالطبع قد تَحمل الأُم من الابن؛ وربما هذا أحد أسباب انقراضهم التدريجي، ناهيك عن وضعهم المعيشي والاجتماعي المُتخلف. ولدى قبائل هندية أُخرى في تشيلي تُعتبر الإناث مسؤولات عن التربية، ويعشن في الأكواخ بينما يعيش الذكور في الغابات، وعندما يكبر الطفل الذكر يُرسل إلى الآخرين بعد أن يمارس الجنس للمرة الأُولى. وهناك مواعيد وطقوس دورية للتناكح بقصد التَوالد.

«هذه حالة غريبة تحتاج إلى تفسيرات حتى لا نَنسف ما نريد إثباته لدور الجينات؛ وخصوصاً دور الهرمونات في تحديد تصرفاتنا البشرية». قاطع ماركوس استرسال زميلته وأضاف: «إذا تعرف الذكر قبل طرده إلى مفعول هرمون السعادة، فسيكون عليه فعل شيء ما لتكراره، وكذلك الإناث لا يعقل أنهن يَكتفين بالجماع مرة أو اثنتين في السنة من أجل الحمل فقط».

«ربما تطور مجتمعهم تدريجاً إلى مثليين جنسياً». علق أتسوشي ولم يكتشف الآخرون إذا كان جاداً أو مُمازحاً.

«ظاهرة تحكم النساء في المجتمع، واستعمال الذكور لمهمة الجماع فقط موجودة حتى الآن في دول إفريقية عدة؛ بل إن الرجل هناك لا يُمارس الكثير من العمل». عادت بيرثا للحديث، وأوجزتْ لهم أن هذه المجتمعات لا تزال بدائية، وضربت أمثلة بأنواع من الحيوانات لا تتناكح إلا للإنجاب، وأنه لا تتقبل الأُنثى أن يَنكحها الذكر إذا كانت حاملاً. وهذا يعزز نظرية التطور، وأنها لا تتوقف؛ فالخلية تطورت حتى وصلت إلى الثدييات، ومن ثم الإنسان الذي تطور بألوان وأشكال مختلفة تتناسب مع بيئته، ولا تزال هناك مجتمعات منعزلة لم تجار الأُخرى، ويقترب أُسلوب معيشتها من أسلافنا قبل عشرة آلاف سنة». حسمت وواصلت ما انقطع من حديثها عما جمعته من معلومات:

«أما مجتمعات الأقزام في أوغندا وأفريقيا الوسطى؛ فالجنس مُشاع بينهم، وهم لا يُقدسون العائلة؛ فالأُم تُرضع ابنها حتى الفطام، وتُلقي به في وسط المجتمع بعد ذلك لِيَكبر دون أن يعرف والديه؛ إذ تَحبل الأُنثى من أي رجل في القبيلة، لذلك لابد وأن يقع أحد منهم على محارمه، لأنه لا يدرك من هي أُمه أو أخته، وهم عموماً في طور الاندثار».

«هناك قرية جنوب الهند يتزوج فيها الشخص بحسب أمر العَراف من أي مخلوق طوال أُسبوع في الربيع، ويَدعي العَراف أن النجوم تأمره بتزويج من تقع عليه القُرعة من أي مخلوق تقع عليه الطابة؛ التي تُقذف وتَحط وتفسر من العراف، ويجتمع سكان القرية في مكان واحد مع حيواناتهم، ويتم الاختيار؛ فيُزوج العراف الفتاة من حيوان قد يكون ديكاً، ويَعْقِد للرجل على عنزة، أو يسمح بزواج موقت لفترة الأُسبوع بين الأقارب. من الواضح هنا أيضاً أن السكان في حالة بدائية، ومتخلفة التكوين الاجتماعي، ولا يعتنقون أي ديانة سماوية، ويَضعفُ في منطقتهم تطبيق القوانين».

«كما في الماضي؛ وتزاوج الملوك من أقاربهم لحفظ المناصب وادعاء نقاء الدم، يوجد في منطقة بكمبوديا قرية تحافظ على الملكية الجماعية للأرض الزراعية، ويتزوجون بعضهم من بعض سواء أقارب أو محارم؛ لذلك لا يوجد في العائلة عوانس فكل الرجال في العائلة يتزوجون النساء في العائلة نفسها لذلك يوجد تعدد الزوجات، وتعدد الأزواج أيضاً، ويُمكن أن تتزوج الأُخت أخاها، أو العم والخال ابنة أخيه أو أخته، وكذلك العمة والخالة».

«تلك كانت معلومات عما يُمارس الآن علناً ولم ينقرض بعد، وكما نرى فهذه قبائل منعزلة وبدائية، أو مناطق قروية تعيش تحت حُكم عراف، وبعيداً عن سلطة مركزية، وبالتأكيد مستوى التعليم عندهم أقرب إلى الصفر، ولا يمكن رصد الأمراض بينهم، بل لا يمكن معرفة الآباء والأُمهات لدى بعضهم؛ وبالتالي لا يوجد تعريف للأسرة والأقارب كما تعودنا، وهي جماعات في طريقها للانقراض تدريجاً، أما تناكح الإنسان والحيوان فهذا خارج إطار بحثنا».

«نعم».. أَيد اتسوشي زميلته «الأمثلة التي ذكرتها في السابق كانت لأُمم زالت وتطورت عنها كيانات جديدة، وقد جَمعتُ للبحث الجديد معلومات عن مجتمعات كانت تمارس نِكاح المحارم، ثم ابتعدت عنه لأسباب عديدة، وتشق طريقها الآن بين الجماعات البشرية؛ مثلاً في جزر هاواي قبل أن يصلها المستعمر الغربي كان الملك يتزوج أحد محارمه للمحافظة على نقاء العرق الملكي، وهو ما ساد لدى أقوام أُخرى زالت، فكان ملك هاواي يتزوج بأُخته إذا كان والداه ما يزالان على قيد الحياة، فإذا مات أحدهما تزوج الابن أمه إذا مات أبوه، أو البنت أباها إذا ماتت أُمها. هذه العادة حرمتها الديانة المسيحية مع بداية استعمار الجزر، وكان

السكان يمارسون زواج المحارم فيتزوج الرجل أُخته أو عمته أو خالته أو ابنته، وهم الآن جزء من الولايات المتحدة ويلتزمون بقوانينها، والآفاق مفتوحة أمامهم».

.. «أيضاً الهند تُعطي مثلاً على التغيير؛ فقد كان نكاح المحارم منتشراً في الهند القديمة، فكان (بوث) أحد الملوك عشيقاً لأُخته، وكان (أجسى) أشهر ملوك الهند القديمة، ابن أبيه وأُخته فقد تزوج الأب بابنته فأنجبت له، وهناك قبائل الشوجان في التيبت يُسمح للرجل بالزواج من العمة، والخالة، ويُمنع الزواج بالأُم والأُخت فقط، أما في جنوب الهند فنكاح المحارم كان منتشراً بشدة، ومُعترف به وهو في تراجع تدريجي احتراماً للقانون».

رمى ماركوس علبة المشروب الغازي الفارغة باتجاه سلة النفايات؛ ولكنه أخطأ الهدف، اعتذر ونهض، وحمل العلبة مجدداً ورماها، صفقت له إستيرا لنجاح التهديف، وصَنفت بعض الأوراق. «جيد؛ لدينا مواد كافية للماضي وعن الحاضر غير المتدين، والآخر السري بالنسبة إلى المحارم، ونعرف المجتمعات والأديان التي تؤيد، والتي تعارض، والأُخرى التي لا تُحبذ زواج الأقارب، لكن نكاح المحارم الممنوع دينياً وقانونياً في هذه المجتمعات والبلدان؛ لا يزال يُمارس وينتشر خفية. لا أدري إذا كان هذا من اختصاصنا أم لا؟» توقفت إستيرا إذ اقتربت منهم صبية جميلة بملابس فضفاضة، وسألتهم إذا كان أحدهم يملك ناراً.

كانت الصبية وعائلتها قد وصلت منذ بُرهة، ونشطت في جمع بعض الحَطَب اليابس لتشعل به الفحم استعداداً للشواء.. «حَضَرتم للشواء ونسيتم النار؟!» سألت إستيرا الصبية التي أخبرتها أنهم فشلوا في إشعال النار، وقد انتهت عيدان علبة الكبريت التي جلبوها معهم. نهض ماركوس، المدخن الوحيد في الجماعة، وتوجه مع الصبية حيث تجلس عائلتها، ومسح بيده على شعرها الذهبي بعد خطوات فاقتربت منه.

«نُعد بحثاً عن القبائل البدائية.». قال ماركوس لرب العائلة بعد إلقاء التحية وبعض التعارف السريع، جلس على ركبتيه، وخفف كثافة الأعواد، واختار اليابس منها، وأشعل ورقة تحتها، وقد وضع جسده بين الريح الخفيفة والمَوقد. أراد أن يخبرهم بقدرة البشر البدائيين على إشعال النار، ولكنه كف عن ذلك، وتركهم وقد اشتعلت نارهم.

«مهما كان قرارنا فقد سَجَلتُ بعض الأرقام عن تناكح الأرحام في المجتمعات غير البدائية».. استأنفت إستيراً حديثها بعودة ماركوس «من يمارسون ذلك يقولون لتبريره إنه يتم برضا الطرفين، بينما يؤكد رئيس معهد مناهضة العنف في جامعة سانتيجو، أنه لا يوجد شيء اسمه موافقة الطرفين في حال وجود شخص ذي سيطرة على الآخر، (لا يمكن الحصول على موافقة أكيدة إذا وجدت سلطة لأحد فوق الآخر في العلاقة، أولئك الذين يتورطون في علاقات مماثلة مع أحد الأبوين تختلط لديهم مشاعر الحب، والعاطفة، والسلطة، والانتباه، والإساءة)».

«دكتور عربي درس مائتي حالة في بلاده؛ وجد نسب التناكح لدى العينة كالتالي: بين الأخ وأُخته ٢٥٪، وبين الأب والابنة ١٢٪، و٩٪ بين زوج الأُم وابنة الزوجة، و٦٪ بين الابن وزوجة الأب، و٦٪ بين زوج الأُخت وأُخت الزوجة، و٥٪ بين الابن وخالته أو عمته، و٥٪ بين الأم والابن، و٤٪ لكل من ابن الأخ والعمة والخال، وابنة الأخت والأب وزوجة الابن، و٣٪ بين العم وابنة الأخ. الاستنتاج الجلي من ذلك أنه كلما ابتعدت القرابة؛ انخفضت نسبة تناكح المحارم، أي إن الخطر يتعاظم داخل البيوت العائلية، نصف الإناث في هذه الدراسة تقريباً كن من العازبات، والربع من المتزوجات، و١٨٪ منهن مطلقات والبقية أرامل». وضعت إستيرا أوراقها جانباً، واخبرت زملاءها معلومة أُخرى مفادها أن ٨٠٪ من حالات الجرائم

الجنسية المنظورة أمام محاكم جنوب أفريقيا، الدولة الأغنى والأكثر تقدماً في القارة، هي اغتصابات للمحارم.

«الطبع غلب التطبع» علق ماركوس فنظر إليه الآخرون.. «أفريقيا في قعر التطور بالنسبة إلى بقية القارات، والطباع القبلية والبدائية منتشرة في ربوعها، وعلى الرغم من القوانين، ومحاولات جنوب أفريقيا النهوض إلا أن الغريزة البشرية التي سادت طويلاً تطل برأسها عبر عدة أشكال منها؛ نكاح المحارم، وأسلوب العمل بالصيد، والدور التقليدي للأُنثى بالإنجاب والتربية، وغير ذلك».

«كل ما طَالعته يفيد بانتشار الظاهرة خارج أفريقيا أيضاً» قالت إستيرا.. «الدراسات المنشورة تمت في مجتمعات فقيرة ومزدحمة، لكن دراسات خجولة بدأت تظهر لدى مجتمعات غنية لكنها محافظة، وتُشرع الفصل بين الجنسين، وبالتالي يعاني رجالها وإناثها الحرمان طوال فترة ما قبل الزواج، والآن يَتكشف لديهم تناكح المحارم بسرعة، أو الأحرى تدب الشجاعة في القلة للتقدم إلى المحاكم، أو الإقرار بوجود هذه الممارسة منذ زمن، وفي المجتمعات المتقدمة مثل النرويج يرتفع سنوياً عدد البلاغات التي تتلقاها الجهات المختصة من أطفال قُصر يُمارس معهم زنى المحارم، و١٤٪ من البنات المغتَصَبات من الأقارب هن دون سن ١٤ عاماً، والظاهرة في ازدياد مطرد».

.. «لقد طالعت استفتاء على موقع سعودي اشترك فيه ٤٩٢٤ فرداً ثلثهم إناث؛ قال ٨٪ منهن إنهن مارسن زنى المحارم، وأَقر ٧,٥٪ من الذكور أنهم فعلوا ذلك، هذا معناه أن أكثر من مليونين من أصل ٣١ مليوناً لديهم جرأة نسبية، ويَقرون عبر استفتاء إلكتروني بدون أسماء بممارسة زنى المحارم!».

«لدينا إذاً غريزة، وفقر، وازدحام، وحرمان جنسي؛ كأسباب مباشرة للتناكح المُحَرم، والاستمتاع عبر هرمون السعادة، هذا في صميم تخصصنا لهذا البحث». استنتجت بيرثا ثم سجلت ملاحظات وهي تتمتم «الغريزة مرتبطة بالهرمونات، وهذا الجنس كونه سرياً، ويتم بحذر فلا يُنتج أطفالاً إلا نادراً، وبالتالي لا علاقة له بالجينات».

«لماذا لا علاقة بالجينات؟» سأل اتسوشي بجدية «كما رأينا فإن الأسبقين مارسوه بشكل طبيعي، فإذا مارسه الأباطرة والملوك والقادة؛ فبالطبع مارسه الشعب الفقير ومُزدحِم السكن، وكل البشر ينحدرون من أصول مارست ذلك، فربما أصبح الأمر جينياً، ولهذا بالذات تفشل الديانات والقوانين التي تحرمه، تفشل في القضاء الفعلي عليه».

«قلت لا علاقة بالجينات؛ لأن هذه الممارسة لا تنجب الأطفال، ولا تتحول إلى وراثة، وذلك ممنوع اجتماعياً ودينياً وقانوناً أقله منذ ألف سنة، ثم كيف سنُثبت أن للجينات دورها؟ الأسهل والمنطقي لنا في هذه النقطة أن نكتب عن دور الهرمونات في تنشيط الغريزة إذا توافرت الظروف المناسبة للقفز عن الممنوع». أجابت بيرثا بحزمٍ، وقالت لاتسوشي «لا نريد التوسع أكثر من قدرتنا».

«أعتقد باحتمال وجود علاقة للجينات». أصر أتسوشي على رأيه وحاول إقناع زملائه الثلاثة أن هذا التناكح بين الأقارب والأرحام منتشر في العالم أكثر مما يظنون: «ولكن لأنه يتم بحذر؛ ونادراً ما يؤدي إلى حَبَل وولادة، وهو بالطبع سري للغاية بين شخصين فقط.». توقف أتسوشي دون أن يُكمل، وتبسمت بيرثا لأنه استدرك الخطأ، فتوقف عن الحديث. فَسرت بيرثا للآخرين أن الجينات ليست مسؤولة هنا، لأن هذا النكاح لا يُنتج الأطفال؛ وبالتالي لا تَوارث لجينات تؤدي إلى ذلك.

قاطعت الصبية مناقشاتهم مرة أخرى، فقد ظهرت إلى جانبهم تحمل بيدٍ صحناً ورقياً عليه أربع أصابع سُجق مشوية، وإلى جانبها بعض من الخردل الحبيبي الفرنسي، وباليد الأُخرى كيس بلاستيك به قطع خبز بروتشن، وقالت: «نشكركم على النار، وأبي يخبركم أن بوسعكم احتساء البيرة معه إذا رغبتم» شكروها وأشاروا بالشكر من بعيد لعائلتها.

أكلوا واسترخوا مستلقين على ظهورهم استقبالاً لشمس الظهيرة، وسَرح كل منهم يتذكر تجربته الخاصة، وفجأةً قفزت إستيرا تصرخ، وترفع فستانها، وتضرب مؤخرتها «يلعن أبوك نمل أردوغاني.». لقد تسلل النمل الأحمر إلى هناك وقرصها.

هايْدِلْبِرْج

في طريق عودتهم إلى هايدلبرج.. أعادوا طرح بعض النقاط، ووزعوا مهام لجمع المزيد من المعلومات؛ استعداداً للقائهم القادم بعد أربعة أيام. اقترح أتسوشي الإشارة إلى بعض الجوانب الاجتماعية في بحثهم. قال: «إن ثلث المعتدى عليهم جنسياً هم تحت سن التاسعة، وإن الدراسات رصدت انتشار الظاهرة في الأماكن المزدحمة والفقيرة». وعلقت إستيرا باحتمال أن تكون هذه النتائج مرتبطةً بوجود الأماكن المزدحمة والفقراء تحت مجهر الباحثين؛ وهذا لا يعني عدم انتشار الظاهرة في البيئات والطبقات الغنية؛ لكن الثابت أن عوامل اجتماعيةً نفسيةً وبيولوجية تشترك في كسر حاجز التحريم الجنسي، وبالطبع؛ قد يساعد شرب الكحول أو تعاطي المخدرات على تولد الظاهرة.

«سأتولى الاهتمام بإضافة جزءٍ عن العلاقة بين المثلية والجينات». قال ماركوس قبل أن يترجلوا من سيارة بيرثا قرب الجسر القديم. كانت المدينة ساكنةً بهدوء يوم الأحد. لا ضجيج يُذكر للسيارات، بعض راكبي الدراجات يتنقلون بصعوبة على الجسر بين مجموعة من السياح الآسيويين؛ يصورون كل ما تقع عليه هواتفهم: مراكب نقلٍ تمخر نهر النيكر من تحت الجسر، متشمسون على ضفة النهر، قلعة هايدلبرج الشهيرة تنعكس عليها أشعة شمس العصر وسط الجبل. عبر تحت قوسٍ وقبابٍ بداية الجسر، وقطع شارع نيكر شتاتن إلى جادة شتاين قاسه في طريقه إلى شقته الصغيرة؛ على

بعد سبع دقائق من الجسر سيراً على الأقدام. لقد مر في هذه الجادة الضيقة وسط المدينة القديمة مئات المرات، لكن شعوره بالجوع الآن دفعه لمراقبة المطاعم المتتالية، على يساره – في بداية الجادة – مطعمٌ تايلندي، يجاوره شوسي بار سيم سيم للطعام الياباني، وفي البناية المجاورة؛ فيفو بار وفي البناية المقابلة؛ محل آيس كريم إيطالي، يجاوره مطعم لا تابا الإسباني؛ الذي يقدم لزبائنه عدة وجبات متنوعةٍ ولكنها صغيرة بسعر وجبةٍ واحدة كبيرة. بعد عشرين متراً إلى اليسار؛ شاهد مطعم لابوهيمي وبعد أمتار إلى اليمين؛ مطعم ماركادو الإيطالي المتخصص بأنواع البيتزا، يقابله تراتوريا توسكانا الإيطالي أيضاً؛ والذي يقدم المعكرونات ذات أنواعٍ وطرائق طهو شتى، وقد وضع بعض الطاولات في الجادة المخصصة للمشاة فقط.

خرج ماركوس من الجادة وقد اتخذ قراره ماذا سيطبخ اليوم. اجتاز ماركت بلاتس (ساحة السوق) حيث انتشر بائعو الخضار والأجبان واللحوم المصنعة على عرباتٍ نظيفة. اشترى بعض حبات الطماطم ورأس خس وبطاطا، ثم اتجه يميناً ليستدير حول الكنيسة المقدسة إلى سوق السمك، فاشترى بعض المحار لإعداد شوربة بالنبيذ الأبيض. اجتاز ساحة السوق إلى الشارع الرئيس هاوبت شتراسة وانعطف إلى جادة كريمر حيث يقطن في نهايتها تحت السطح مباشرة. كانت شقةً صغيرةً جداً، عبارةً عن غرفة ملحق بها مطبخ وحمام؛ لكنها وسط المدينة وقرب الجامعة ومطعم الطلاب، وتسهل منها المواصلات بواسطة الترام؛ الذي يمر بطول الشارع الرئيس، وينقلك إلى أطراف المدينة القديمة. قطن ماركوس مع والديه وأخته في قرية فالددورف القريبة، وكان على الدوام يزور هايدلبرج وهو ممن يلاحظون التغيير السريع في محال المدينة؛ مع ثبات المباني والسمات لوسطها التاريخي. كل هذه المطاعم التي مر بها في جادة واحدة فقط حديثة

العهد، تتماشى مع أذواق السياح، وتنافس المطاعم الألمانية الأصيلة. أي سائحٍ سيأكل ملفوفاً معتقاً بالخل إلى جانب ركبة خنزيرٍ مطبوخة؟! أو: منهم من سينتظر حتى ينضج طبق (سماء وأرض) الألماني التقليدي؟ الأرض هي بطاطا مسلوقة مهروسة، والسماء فوقها قطع كبدةٍ مقليةٍ مع شرائح بصل. تذكر مأكولاتٍ تقليديةً كانت تعدها جدته الألمانية، وتكاد تنقرض الآن. (ليبر كلوسة) كعبول كبدة مفرومة مخلوطة مع بصلٍ وطحينٍ وخبزٍ ناشفٍ، تُضغط باليد على شكل كرة صغيرة؛ وتُسقطُ في شوربة الخضار. تقلص الطعام الألماني التجاري إلى الأنواع السريعة، فأصبح هناك ٣٠٠ نوع صوصج أما المطبخ الأجنبي؛ فقد انتشر في كل القرى والحارات. مطاعم البيتزا غزت البلاد منذ الخمسينيات من القرن الماضي؛ حين كان الطليان يأتون هنا عمالاً أجانب، ومثلهم الإسبان والإغريق؛ الذين أحضروا مطابخهم، ونشروا مطاعمهم حيث يعملون ويقطنون. تبعهم الأتراك في الستينيات؛ بعد أن توحدت أوروبا، واحتاجت إلى عمالٍ أجانب جُدد. أما الآن؛ ومع انتشار السياحة وسفر الألمان سنوياً في الإجازات؛ وحضور السياح الأجانب إلى ألمانيا؛ انتشرت الأطعمة الآسيوية؛ وفي مقدمتها المطاعم الصينية؛ وهي الأوسع انتشاراً عبر أوروبا؛ خصوصاً وأن أكثريتها تبيع الطعام التقليدي السفاري بسعرٍ معقولٍ جداً ينافس السمك والبطاطا في بريطانيا، والصوصج في ألمانيا، والبيتزات والمعكرونات في إيطاليا.

هناك ٤٨٠ مطعماً مسجلاً في المدينة، ٨٩ منها فقط تقدم أطعمةً ألمانيةً، والبقية تمثل أربع قاراتٍ بإجمالي ٤٢ نوعاً؛ تبدأ من المكسيك وشمال أميركا؛ مروراً بالمطاعم الأوروبية والأفريقية والعربية؛ وصولاً إلى آسيا. الطعام الوحيد غير الممثل في هايدلبرج هو الأسترالي. هذا العدد الكبير من المطاعم يخدم ١٥٠ ألف ساكن، ١٧٪ منهم أجانب. ٣٩٪ من

السكان تحت سن الثلاثين؛ وذلك لكون المدينة جامعيةً وأكاديميةً؛ إذ تُعتبرُ الجامعةُ أكبر رب عمل في المدينة، ولديها ٣٩ ألف طالبٍ مسجلٍ في فروعها. لكن المطاعم انتشرت – بالدرجة الأولى – لتخدم الـ ١٢ مليون سائح؛ الذين يزورون هايدلبرج سنوياً، سياحةً ثقافيةً؛ إذ لا شواطئ بحر صيفاً ولا تزلج شتاءً، ولكن جمالاً طبيعياً لمدينةٍ أثريةٍ لم تُدمر في الحرب العالمية الثانية مثل معظم مدن وقرى ألمانيا، وبالطبع؛ ثمة تخصص علمي أكاديمي وبحثي.

وضع ماركوس المحار في وعاء مليء بالماء؛ حتى تنظف بذاتها من بقايا الرمل؛ ريثما يحين موعد الطبخ. بحث عن المعلومات المكتوبة التي جمعها عن المثلية والجينات، شعر أنها معلوماتٌ كثيرة، فقرر إيجازها لتناسب ما ينقصهم في البحث. تناول قلماً وورقاً وباشر يقلب في المعلومات، ويخط ما يراه مناسباً: دراسة على ٤٠٠ زوج من المثليين أجرتها جامعة شيكاغو طوال بضع سنوات؛ كشفت عن وجود جزءين من الحمض النووي مرتبطين بالمثلية الجنسية. هذا يعني أن صفة المثلية بيولوجية وليست اختيارية. هذه الدراسة – وما كشفته – تُعتبر استكمالاً لدراسةٍ سبقت من عام ١٩٩٣ تؤكد أن المثلية يتسبب بها جينٌ وراثي. آنذاك؛ احتدمت النقاشات في الأوساط الطبية بين مؤيدٍ ومعارضٍ لصحة الدراسة. بعض العلماء يرون أن الأجواء المحيطة بالجنين في رحم أمه تؤثر فيه، وقد تحوله إلى مثلي إذا كان جنيناً ذكراً؛ لأن ردود الفعل في الرحم – وهي أجسام مضادة – قد تهاجم مخ الجنين الذكر وتؤثر في توجهه الجنسي. وبحسب الاكتشاف الجديد – الذي يؤكد مسؤولية الجينات – فإن الخطوة التالية ستكون فحص الجنين، ومعرفة إذا كان مصاباً جينياً، وبالتالي؛ توفر فرصةً للوالدين للإجهاض؛ إذا كانوا لا يريدون طفلاً مثلياً.

طالع أيضاً معلوماتٍ تفيد بأن الذكر المثلي يحبذ أن يُعامل كأنثى من رجل آخر لا يكون في العادة مثلياً بسبب الجينات، وهؤلاء لوطيون. كما أن من يحبذ نكح الغلمان والصغار الذين لأجسادهم طراوة وشكل أجسام الإناث؛ هم لوطيون وليسوا مثليين. لم يحبذ ماركوس الإشارة إلى هذه الأمور في البحث؛ لأنها ستأخذهم إلى نواحٍ مختلفة.

نهض ماركوس لينظر إلى المحار في الماء؛ فوجده قد فتح أصدافه. حرك الوعاء حتى يُسقط الرملَ من داخله؛ فأسرع المحار في الانغلاق مجدداً. تعلم ماركوس هذه الطريقة للتنظيف والطهو من والدته البلجيكية. ينفتح المحار وهو في البحار ليصطاد الأحياء الصغيرة، وعند الجَزْرِ وانحسار الماء تُغلقُ المحارة ذاتها؛ حتى لا تتأثر بالجفاف طوال الساعات الست. وهكذا؛ يمثل ماركوس على المحار – بوتيرة سريعة – المد والجزر؛ ليُخرج ما في داخلها من رمل. ترك الوعاءَ وقشر البطاطا وقطعها طولياً؛ تمهيداً للقلي، ثم قطع بصلةً وجزرةً قِطَعاً صغيرة ووضعها في المقلاة مع الزبدة. سكب المحار في مصفاة وغسله تحت الصنبور، ثم وضعه في المقلاة وصب كوباً من النبيذ الأبيض على الخليط؛ بينما المحار ينفتح تلقائياً من تأثير الحرارة. أغلق المقلاة بغطائها المحكم وتركها تُطبخُ في بخارها؛ ريثما يُعد طبق البطاطا المقلية الأكثر شعبيةً في بلاد والدته؛ إذ لا تخلو قرية أو استراحة أو شارع في مدينةٍ من بائع بطاطا مقليةٍ مزينة بأحد الإضافات، مثل القشطة أو الخردل أو المايونيز.

أدار تلفازه بانتظار نضج الطهو، صادفته الأخبار، وهي – في العادة – لا تركز على المنغصات السياسية يوم الأحد؛ وإنما تتجه إلى الأخبار الرياضية. تعجب مما يسمع من أحداثٍ في العالم، وهو يجهز صحونه لتناول الطعام. قرر إسكات التلفاز، ثم تنبه للبطاطا والمحار. نتنياهو اليهودي، وترامب

المسيحي، وأردوغان المسلم، والكوري الشمالي الملحد كم جونغ أون.. كلهم بحاجة إلى فحص عقولهم. يجب أن يكون هناك مجلس طبي دولي لهذه الغاية». قال بصوت مسموع؛ وقد باشر طعامه برشفةٍ من كأس نبيذ.

تَفْجِيرُ الحُب

توقف حميد بدراجته أمام سيارة الشرطة. «من أين أنت قادم الآن في هذه الساعة؟» سأله الشرطي بلهجة استغراب، فالساعة هي الثالثة والنصف فجراً. أبلغه حميد أنه قادم من عمله في الصحيفة إلى مسكنه، واستفسره عن سبب وجود سيارات الشرطة في المكان. «في أي بناية توجد غرفتك؟» سأله؛ ثم طلب منه الانصراف مباشرةً إلى بنايته، ولم يقدم له أي تفسير لانتشار الشرطة في المنطقة، لكن حميد لاحظ أنهم يطوقون بناية رقم (٣). ركن الدراجة على باب البناية، وقيدها بجنزيرٍ وقفلٍ كالعادة، ووصل إلى طابقه؛ فوجد ماري وهيرمان يحتسيان الشاي ويضربان أسداساً في أخماس حول خلفية وجود الشرطة.

«نحن في انتظارك؛ لتخبرنا ماذا يجري هنا». قالت ماري لحميد.. ونظر هيرمان إليه بانتظار الجواب. مط شفتيه، ورفع كتفيه مُستهجناً موقفهما. «ألم تسمع في الصحيفة أي شيءٍ عن هذا الهجوم؟» فهم من سؤالها سبب توقعاتهم.

«أخبار الصحيفة من أول البارحة. ألم تبحثا في النت؟» أخبرهم، وسألهم، وأجابوه بحركات نفيٍ وتمتماتٍ: «لا يوجد شيء إلى الآن». «لاحظت في الحال أنهم يحاصرون بناية (٣)، من نعرف هناك لنهاتفه الآن؟» تذكر محمد السوداني الذي يقيم هناك، ومعرفته بكل سكان البناية تقريباً، لكن حميد تروى في إبلاغ ماري وهيرمان بذلك، وتردد في الاتصال

بالبناية في هذا الوقت وهو لا يعرف سر وجود الشرطة. لم يحتسِ الشاي، شكر ماري التي قدمته له، وأبلغهما أنه سيأخذ دُشاً ويخلد إلى النوم: «سنعرف كل شيءٍ في الصباح». قال وتحرك إلى غرفته؛ بعد أن تمنى لهما ليلةً سعيدة. أخذ ملابس النوم إلى الدُش، واشتغل ذهنه تحت الماء بما عليه أن يفعله قبل النوم. في كل هجوم للشرطة أو بعد سماع أخبار عمليات إرهابية من عرب ومسلمين؛ يدفعه حدْسُهُ وخوفُهُ إلى مراجعة كل أوراقه وملاحظاته المسجلة، وتنظيف هاتفه الجوال من كل شيئ؛ بما فيها أرقام هواتف لأناسٍ تعرف إليهم؛ ولكنه لا يعرفهم بالفعل. أي شيءٍ يمكن إساءة فهمه من أجهزة الدولة يجب التخلص منه.

أفاق على طرقٍ خفيفٍ متواصل على الباب، بالكاد فتح إحدى عينيه، وأسمع الطارق أن ينتظر، ونظر إلى الساعة؛ فاستنتج أنه لم ينم سوى أربع ساعات. جرجر قدميه إلى الباب؛ فرأى عبد الرحمن مبتسماً، وبكامل أناقته رافعاً إلى مستوى أنف حميد كيساً تفوح منه روائح طعام سريع. «الساعة العشرة يا رجل.». قال لصديقه وهو يفتح الباب ويستدير عائداً إلى زاوية السرير.

«هذا صحيح، إنها العاشرة بالفعل، ألم تشبع نوماً إلى الآن؟ سأنتظرك في المطبخ، فلا تتأخر؛ حتى لا يبرد الفطور». كان عبد الرحمن يعرف أن حميد لا ينام فجر الإثنين قبل الرابعة صباحاً، ولكنه لم يتحمل الابتعاد أكثر؛ بعد أن سمع بتفاصيل ما حدث فجراً، واعتقال الشرطة لبضعة طلاب عرب، ولم يرغب في الاتصال بحميد؛ فقرر الحضور شخصياً. تذكر حميد أحداث الفجر، وعرف سبب حضور صديقه، غسل وجهه، ولبس سروال الرياضة وتي شرت غير الذي نام به. دخل المطبخ على صفير إبريق الماء وهو يغلي، صنع كوبين من النسكافيه، وملأ الإبريق بالماء مجدداً، وأعاده فوق الغاز؛ في انتظار أن يأتي من وَضَعَه هناك في الأصل.

«ماذا أحضرت من الأطعمة؟» فتح الأكياس الواحد تلو الآخر: «يبدو أنك كسرت كل قواعدك اليوم، فطور من مكدونالد»؟ هل انتهت المقاطعة؟» جال بناظريه بين البيض والصوصج والمافن والبطاطا هاش براونز: «صوصج خنزيري أصلي طبعاً». أضاف وهو يتناول واحدةً ويضع نصفها على المافن ويرفعها إلى فمه.

«صحوت على أخبار الراديو أن الشرطة هاجمت مرابعكم، فاتصلتُ بمحمد وفهمت منه الموجز». قال عبد الرحمن وهو يرتشف النسكافية. «قبل أن أغير المركبة إليك؛ شدني محل الماك وتذكرت أن الوقت مناسب لشراء فطورهم؛ الذي تحبه؛ فجلبته لك». لم يسمع تعليقاً من صديقه المنهمك في الطعام. «بعد أن تنتهي؛ سنذهب إلى محمد السوداني ونسمع منه التفاصيل». رفع حميد عينيه مستفسراً عن الموجز، لكن إبريق الماء عاد إلى الغليان والصفير، فتوجه حميد إلى الغاز وأطفأه، وعاد إلى مقعده مواجهاً صديقه. «واحد تسبب بحَبَل صديقته، وحملها بالأمس حقيبةً ملغمةً لتنفجر في المدينة، ربما ليرتاح منها ومن الجنين». تحول الطعام في فم حميد إلى قناة التنفس؛ فكاد يختنق.

«واحد عربي؟» سأل؛ محاولاً أن يسترد صوته.

«ها شو يعني؛ سويسري؟» أجاب عبد الرحمن وهو يرد تحية الصباح بيده لصاحب الماء المغلي؛ الذي دخل في الحال وتأسف لأنه تأخر في الحمام. «لم أفهم من محمد أكثر من ذلك، ولكننا سنعرف ما يعرف بعد قليل».

دخل هيرمان إلى المطبخ محيياً وفي نظراته تساؤلات عن تفاصيل. «هذا صديقي عبد الرحمن جلب فطوراً لشخصين؛ ولم يشاركني؛ لأنه يقاطع الأميركان. يريد اختبار قوة إرادتي وتمنعي عن الطعام السريع».

«يبدو أنك لم توفق في الصمود». تجاوب هيرمان وتقبل دعوة حميد للمشاركة في طعام ماكدونالد وسأل: «هل عرفتم التفاصيل؟»..

«ليس أكثر مما ذكرته الإذاعة». قال عبد الرحمن وأعاد ذكر ما سمعه مثل الآخرين من الراديو، أن الشرطة هاجمت المكان واعتقلت بضعة طلابٍ أجانب، والتحقيق جار معهم. «هل دخلوا إلى بنايتكم؟» سمع عبد الرحمن النفي من كليهما، وساد الصمت لوهلةٍ؛ حتى استأذن حميد بالذهاب لتغيير ملابسه.

توجه الثلاثة إلى ملاعب التنس يصاحبهم عصفور محمد الذي يدير رؤوس الجميع وهم يشاهدونه إما ثابتاً وإما مُقلعاً وإما هابطاً على كتف محمد السوداني. عصفورٌ جميلٌ صغير أشبه بالحسون، بني الصدر، أصفر أطراف الأجنحة، لا يعيش جنسه في طبيعة هذه البلاد الباردة. «ألا يفعلها أحياناً على كتفك؟» سأل عبد الرحمن ولم يترك لمحمد فرصة للرد وأضاف: «ما الذي جرى في بنايتكم؟»

«زول سوري ساكن جديد، أعتقد أنه يدرس اللغة من فترة.». مد محمد يده لينزل العصفور على كفه.. «عنده حرمة محجبة من البوسنة تزوره في الغرفة عشان يصلوا سوا.». تبسم محمد فظهرت أسنانٌ بيضاءٌ ناصعةٌ زينت وجهه البني.. «المهم أنها حبلت من أخيها المسلم، وبدأت تطالبه بالزواج بها، وهو لا يفكر في الأمر طبعاً».. رفع محمد كفه قرب كتفه ليقفز إليها العصفور؛ ثم نفضه بحنان إلى الأعلى ليحلق. في هذه اللحظة؛ قرص حميد خصر عبد الرحمن الذي يكبرهم سناً.

«نتحدث عن حادث الاعتقال في بنايتكم بالأمس..!» قال عبد الرحمن حياديةٍ، وكانوا قد وصلوا إلى ملاعب التنس، وصوت ضربات الكرة في المضرب مصحوباً مع آهات الضاربات. كُن أربع طالبات بالشورت

الأبيض يتقافزن ويتصارخن. «دعونا نستدير؛ حتى لا تصيب أية كرةٍ طائرة عصفورك». جلس محمد على مقاعد المتفرجين فجلسا معه.

«طبعاً نتحدث عن الزول السوري، أخذوه مع إثنين من أصحابه يقطنون في نفس البناية. كانت الشرطة تعرف عمن تبحث. لديهم معلوماتٌ كاملة». قال محمد باقتضابٍ؛ وهو يبادل حميد وعبد الرحمن نظراتٍ مباشرةً في الوجه، ثم نقل نظره إلى اللاعبات. «رفض أن يتزوجها، وهددت بإخبار أهلها؛ الذين يقيمون هنا منذ سنوات حرب البوسنة. طلب منها مهلةً ريثما يتدبر أمره؛ فوافقت». استدار محمد إلى مستمعيه وقال بصوت هامس: «تدبر الأمر، فأعد لها شنطةً ملغمةً وتنفجر بتوقيت، وطلب منها إيصالها إلى صديق له سيلتقيها في السوق قرب باب الكنيسة». عدل محمد ظهره وعاد إلى صوته الطبيعي: «كانت علاقتهما قد عادت طبيعية، ووعدها باقتراب التقدم لها، ولم يكن عندها أي شكٍ تجاهه». مد حميد يده ليقرص عبد الرحمن ولكن؛ هذا أمسك باليد وأعادها لصاحبها؛ الذي فهم بدوره أن عليه أن يصبر ويستمع ولا يقاطع. «في الميعاد بالأمس؛ وصلت الحرمة للسوق المزدحم كالعادة يوم الأحد. وقفت بحجابها ولِبسها الذي يوحي بدينها، وفي يدها حقيبة سمسونايت مقفلةً بأرقام سرية.. كان شكلها طبعاً غريباً، وتأخر الصديق المنتظر أن يستلم الحقيبة، فأصبحت تدير رأسها بحثاً عنه، وتتحرك كاللبوة الأسيرة في مساحةٍ ضيقة». لم يعرف حميد إذا كان عليه أن يضحك أو يعترض، ولكنه ساير عبد الرحمن الذي وضع يده على فمه ليخفي ابتسامةً تكاد تتفجر ضحكاً.

«أتريان كيف تهتز مؤخرة تلك اللاعبة من جراء نطاتها المتسارعة؟» قال حميد لرفيقيه، وليفتح مجالاً للقهقهة لو فشل في كتمان عواطفه، ثم نظر لمحمد باعتذار على المقاطعة، وأومأ بأنه عاد للإصغاء.

«تشككت شرطية في تصرفها، وطلبت الدعم؛ بعد أن راقبت إذا كان للمحجبة رفقاء. سألوها عن الأمر؛ فأخبرتهم بالقصة، وأن صديق خطيبها لم يصل بعد لأخذ حقيبته. طلبوا منها فتح الحقيبة فأخبرتهم أنها لا تعرف الأرقـام». أصبح محمد يتحدث بسرعة؛ فقد لاحظ شك مستمعيه في روايته. «حملوها إلى مركز الشرطة، وفتحوا الحقيبة، فإذا بها مواد متفجرةٍ مربوطةٍ بساعة توقيت توقفت عن الدوران لحسن الحظ. هنا؛ اعترفت لهم الفتاة باسم صديقها، وأخبرتهم بكل ما لديها من معلوماتٍ عن أصدقائه. هي طبعاً قيد الاعتقال والتحقيق؛ لأنهم يظنون أنها انتحارية».

«إنهم ليسوا خريجي سجون مثل كل الذين ينفذون عمليات إرهابية في فرنسا وبلجيكا.. لكن المعلومة الرسمية العلنية أنهم اعتقلوا بضعة طلاب أجانب قبل أقل من ١٢ ساعة، كيف عرفت أنت بكل هذه التفاصيل؟» تجرأ عبد الرحمن وطرح سؤاله هذا على محمد وحذره من ذكر هذه التفاصيل أمام أي شخص آخر؛ لأن هذا يورطه في الجريمة. كان الاثنان متعارفين منذ سنوات طويلة، فعبد الرحمن يكاد يُنهي درجة الدكتوراه في العلوم السياسية، ومحمد يدرس عروض عمل قُدمت إليه كطبيب؛ ولكنه متردد لأنها كلها في قرى صغيرة. أما حميد فقد وصل بعدهما بسنوات إلى هايدلبرج ويدرس العلوم السياسية والاجتماعية.

«مهما يكن من زيادةٍ أو نقصانٍ في التفاصيل؛ فاللعنة كل اللعنة على هذا الحيوان الدنيء الغبي. حتى أتعس دابةٍ على الأرض لا تُقدمُ على قتل جيناتها وحامل جيناتها». قال حميد وهو يلوح بذراعيه. افتقد محمد عصفوره وتلفت في كل الاتجاهات؛ وهو يصفر له. «دعونا نبتعد عن صوت المضارب والتأوهات؛ فهي التي ترعب عصفورك». وقفوا مع حميد وساروا بتباطؤٍ - حسب طلب حميد - حتى لا يضيع العصفور، فأخبره محمد بأنه يعود إلى نافذة الغرفة وقتما يشاء.

«هل قررتَ بصدد عروض العمل، أم تفكر في العودة إلى الخرطوم؟»..

«خرطوم مين يا زول، الناس هاربة وأنا راجع! البلد تعبان والفساد سرحان، والمجاعة انتشرت في جنوب السودان». أجاب محمد صديقه على الفور.

«طيب قدم طلبات عمل لسفارات دول الخليج، فهم عربٌ وعندكم جالية كبيرة هناك». كان عبد الرحمن يعرف تماماً أن محمد لا ينوي العودة إلى الدول العربية، وأنه أيضاً لا يريد العمل في القرى الألمانية، وأمنيته هي البقاء في غرفته في بيت الطلاب مع عصفوره وراتبٍ مجزٍ كطبيب في مستشفى الجامعة.

«دول الخليج تعطي العربي راتباً لا يعادل ربع ما يعطونه للأجنبي من التخصص نفسه». كان حميد يتجه معهما إلى منطقة مواقف السيارات وهو سارح الذهن في ما سيفعل لتجنب مثل هذه البلاوي، فلو كان يعرف – مصادفة – أحد المعتقلين الثلاثة؛ لواجه الآن «سين وجيم» ونكداً. لم يسمع ما يتحدث به محمد وعبد الرحمن حول فرص العمل هنا أو العودة إلى البلاد. وضع يده على محفظته ليتحقق أنه يحمل أوراقه الثبوتية والنقود لشراء حوائجه الأسبوعية. أفاق على يد عبد الرحمن تستقر على كتفه.

«سأذهب إلى المدينة للتسوق، هل تصاحبني أم تريد الانتظار في غرفتي؟».

«سأرافقك إلى وسط المدينة ثم أعود إلى بيتي، فقد خرجت هذا الصباح قبل إنجاز أي شيءٍ من برنامجي اليومي». أجاب عبد الرحمن صديقه وودعا محمد الذي عاد أدراجه إلى غرفته بعد أن أوصاه عبد الرحمن مجدداً بكتم هذه التفاصيل.

«خياله واسع جداً، صاحبنا هذا». أخبر حميد صديقه وقد تحرك بهما الباص إلى المدينة.

«قد يكون كذلك ولكنه ذكي ولماح. لا تنس أنه كان في الموقع في كل الظروف. أثناء زيارتها صاحبها مراراً وتكراراً، وفي فترات الخلاف والوفاق، يستمع ويخزن. وهو اجتماعي، فربما سمع بالأمس أسئلةً وأجوبةً، وربما استفسر زوار الليل». كان عبد الرحمن يتحدث بحيث لا يفهم أي راكبٍ آخر في الباص أي شيءٍ مما يقول لحميد. «قد يخطئ في تفاصيل الرواية لكن العناوين على الارجح صحيحة».

«الله يستر من الآتي الأعظم».

«لا أعتقد أن الرواية ستُنشر مفصلةً، فترويجها ليس في مصلحة أحد». رد عبد الرحمن مطمئناً، وأضاف: «غداً أو بعد غد سنسمع».

المُنْقَرِضُون العرب

يختلف علماء الأنتروبولوجيا حول أصل الإنسان الحالي، لكنهم يتفقون على أحد احتمالين. الأول: أن الأصل متطور عن المخلوق شبه البشري؛ حتى وصل إلى ما نحن عليه. والاحتمال الثاني: أن المخلوق شبه البشري وفي رحلة التطور تحول إلى عدة أنواع أخرى شبه بشرية؛ حتى وصل إلى ما نحن عليه، وأن أجناسنا الحالية متطورة عن تلك التفرعات. كان العلماء القدامى، قبل طفرة التطور في علوم الجينات وتحديد أعمار الآثار، يؤمنون بوجود سلالات إنسانية مختلفة، ويسعون لتمجيد سلالةٍ عن أخرى. الثابت الآن هو وجود أنواعٍ بشريةٍ مختلفةٍ عاشت حقباً من وجودها في العصور نفسها، وحتى مائة ألف عامٍ مضت؛ وجد نوعان من البشر أقله في مناطق عديدةٍ فوق الأرض، ولكن النوع الذي صمد إلى الآن وتفرد منذ ثلاثين ألف سنة هو «السابيبس هومو». قبل ذلك؛ وجدت إلى جانب هذا النوع أجناسٌ أخرى مثل الهومو سابيس في أفريقيا والشرق الأوسط، وهومو آركتوس في آسيا، وهومو نيندرتال في أوروبا؛ وهو الذي تبع إنسان هايدلبرج المنقرض. قبل هذه الأجناس؛ وجدت أخرى يعود تاريخها إلى أربعة ملايين عام عاشت في أفريقيا. تقول نظرية الخروج من أفريقيا إن أقواماً من شبه الإنسان عاشوا على ضفاف البحيرات والأنهار، وتحركوا منذ مليوني عام تدريجاً حتى وصلوا إلى مناطق مناسبة متعددة في بقية العالم. الثابت؛ أن واقع ذلك شبه الإنسان التشريحي يختلف تماماً

عن الإنسان الحديث. ويفترض العلماء أن بعض القبائل المرتحلة كانت تتزاوج داخل إطارها الضيق؛ ما أدى إلى انقراضها بالاختيار الطبيعي؛ حيث البقاء للأصلح والأقوى والأذكى، بينما قبائل أخرى تزاوجت فيما بينها وتكيفت مع بيئتها؛ فظهرت الاختلافات في اللون والشكل، ودرجات الذكاء، وهذا ما تحكم في مصير أشباه البشر، وفوز النوع الحالي بالبقاء، علماً بعدم وجود أي اختلافٍ في تركيبة الإنسان الآن. النيندرتال الأوروبي تقاطع لفترةٍ طويلةٍ مع وجود الإنسان الحديث، لكن واحداً في النهاية قد انقرض وصمد الآخر. هذا الحال استمر منذ أربعة ملايين عام. النوع الأول لشبه الإنسان – كما تثبته أحدث الاختبارات وينتمي إلى أسلاف البشر – هو هومنيدس الذي كان أول من سار على قدمين، تبعه أسترالوبيتكس قصير الجسم وقليل الوزن، له مخٌ صغيرٌ وفكٌ كبير وحلقٌ أشبه بحلق القرد، ولكنه يسير على قدمين، وصنع أدوات للصيد والدفاع ضد الحيوانات المفترسة. وقد وُجدت بقايا هذا النوع قرب تشاد وفي فلسطين وكينيا، وحدد عمر بقاياه بـ٢,٦ مليون سنة، ويُعتبر هذا بداية العصر الحجري الأول؛ حيث باشر أسلاف البشر صنع الأدوات. وقد استمر العصر الحجري مع تطور بسيط نسبياً حتى ما قبل ٢٠٠ ألف عام، وتطورت الأنواع شبه البشرية بالطبع وتحسن إنتاجها واستخدامها للأدوات والعقل، فجاء الإنسان الماهر هوموهابيلس ثم الإنسان المنتصب بوضوح هومو أريكتس وتلاه إنسان هايدلبرج الذي وُجد في عدة مناطق أوروبية، وهو سلف «النيندرتال». ويسود الظن لدى بعض العلماء أن الأجناس شبه البشرية انقرضت؛ بعد أن تباعدت في جيناتها عن غيرها نتيجة للانعزال، ولم تعد صالحةً للتزاوج والإنجاب من الأجناس شبه البشرية الأخرى.

هذه مقدمةٌ موجزةٌ لتطور الإنسان، ويتفق الجميع أن العوامل المؤثرة

التي أوصلتنا إلى وضعنا البشري الحالي هي تحسين النسل عبر الاختلاط، واستعمال العقل لتطوير الأدوات وتنويع الإنتاج، والقفزة الهائلة في اللغة والتفاهم داخل المجتمعات الكبيرة وفيما بينها، كما هي الحال الآن.

في الخمسة آلاف عام المنصرمة، ومنذ تعرف الإنسان إلى الديانات؛ نهضت واندثرت العديد من الأمم لخليطٍ من الأسباب؛ مثل: الحروب الدينية والانعزال التزاوجي وإساءة استغلال العقل البشري، والإصابة بأمراضٍ فتاكة. وكان تقدم أمةٍ على أخرى عبر تطوير أدوات القتال والإنتاج، يؤدي إلى غزواتٍ وقتلٍ وتدميرٍ للحضارة الأضعف. لكن حضاراتٍ سابقة تركت آثارها أيضاً منذ عشرة آلاف عام في كل القارات اندثرت هي الأخرى. الاندثار والانقراض يعني ضياع لغتهم وتدمير صناعاتهم وبنائهم، أي إن من نجا من الخَلَف وحملوا صفاتهم الوراثية عاشوا فتراتٍ طويلةً بعد الانقراض في ظروف متخلفةٍ عما كان عليه أسلافهم. حدث هذا في كل القارات، لكن الذين تركوا آثاراً جليةً وُجدوا في أميركا الجنوبية والشرق الأوسط، حيث حضارة المايا والفراعنة والأشوريين والبابليين والكنعانيين والفينيقيين؛ وهم الذين طوروا أنواع الآلهة والأساطير التي انبثق منها لاحقاً الديانات المعاصرة، وهي: اليهودية والمسيحية والإسلام. تلك الحضارات وما تولد بعد اندثارها مثل القوط والغال والجرمان، وبالتالي؛ الحضارة الرومانية المنتصرة، كانوا خارج إطار تنظيم التناكح بتحريم القريب، واعتمدوا سياسة نقاوة العرق والتفريق بين الأجناس حسب اللون والجغرافيا. هكذا انقسمت المجتمعات طبقاتٍ وعمت الفوضى كنتيجةٍ حتميةٍ، وسقط القديم تحت ضربات الحضارات الناشئة مثل الإسلام؛ الذي نهض في منطقة حوض البحر المتوسط على حساب الحضارة البيزنطية وشقيقتها الرومانية.

الآن؛ وفي عصرنا الحاضر؛ نرى أن الإسلام لم يواكب التطور الاجتماعي والعلمي، فانكمش، وبدل استيعاب المجريات وإنقاذ ما يمكن إنقاذه؛ نرى أن الصحوة تتمثل بالعودة إلى الماضي، وبالتالي؛ ستواجه الفشل والدمار. الدول الأفريقية المسلمة مثل أثيوبيا والصومال ونيجيريا وجنوب السودان، وأيضاً اليمن تعاني الآن مجاعة تهدد ٢٠ مليون نسمة بالموت، وأكثر منهم بالتخلف الصحي، وبالتالي؛ الضعف الجيني لقبائل لا تزال تعيش – مثل قبائل الأسلاف – على الرعي والصيد؛ والنادر من الزراعة، وتعيش الحصار التزاوجي وندرة الاختلاط، وبالتالي؛ تواجه الانقراض. بينما أبناء القبائل الذين نُقلوا قسراً أو ذهبوا طوعاً من مناطق أفريقية متنوعة في هجراتٍ بعيدةٍ وتزاوجوا هناك من أفارقةٍ آخرين أو من أجناسٍ غير سوداء، فإن تطورهم الجسمي والجيني لا نقاش فيه. ربما تكون المقارنة بين أفارقة الدول الأفريقية الفقيرة وأفارقة أميركا – الذين حضر أجدادهم من تلك الدول – أكبر دليل على نظرية التطور وسرعة نتائجها إذا توافرت الظروف الملائمة؛ وفي مقدمتها الاختلاط التزاوجي، والأخذ بعوامل الحضارات المتطورة، لغتها، علومها، وقوانينها. إلى جانب الجوع؛ تحصد الحروب أرواحاً بالملايين في كل مكان؛ فتبدأ الفوضى، يتلوها الجوع والفقر، ثم الانقراض، بينما البلدان التي يسودها القانون يستحيل أن تواجه ذلك المصير.

من علامات الانقراض: لدينا السبب الأساس وهو قلة الاختلاط وانتشار زواج الأقارب. إشراك الأساطير الدينية في اتخاذ القرارات اليومية والمعاشية. الانسلاخ عبر الابتعاد عن اللغات الأصلية واللجوء إلى الدارجة أو استعارة لغات أممٍ متطورة. قلة الإنتاج الذاتي والاعتماد على الآخرين سواء عبر الشراء أو تسول الهبات. تراجع مظاهر السعادة؛ مثل تنوع الفن

والثقافة، أي التقوقع الفكري والاجتماعي. هذا الخليط ينتج منه – بدايةً – سياسة انتقاءٍ طبيعيٍ وتفاعلٍ جيني سلبي، فإذا هرب من يمكنه الهروب إلى آفاقٍ وحضاراتٍ أخرى؛ عمت النكسة الجينية والاجتماعية المتبقين في الموقع الجغرافي.

إن الدول الأفريقية – بشكلٍ عام – هي الأولى في قائمة خطر الاندثار بسرعاتٍ مختلفة، وما يبطئ مسيرة الاندثار هو المساعدات الغذائية؛ التي تطيل العذاب، بينما لا يهتم من يملكون القدرة على وقف الحرب بفعل ذلك. الحضارة العربية الإسلامية تأتي في الموقع الثاني بعد أفريقيا، وبالطبع؛ هناك دولٌ تسير إلى الهاوية أسرع من غيرها، لكن؛ بالمجمل؛ فإن أرقاماً إحصائيةً جديدةً تُظهر التراجع المتسارع لمصير العرب والمسلمين.

من أصل ٣٧٠ مليون عربي في ٢٢ بلداً؛ هناك ثلاث دول تعاني المجاعة، وخمس دول تدور فيها حروبٌ قبليةٌ أو طائفيةٌ بأسلحةٍ حديثة، وما عدا خمس دول خليجية تعيش على إنتاج النفط ولا تزال تملك الأموال إلى الآن؛ تعاني بقية الدول تراجعاً وأزماتٍ اقتصادية، وتحتل مواقع متقدمةً في قائمة الفساد العالمي. أكثر من ١٣ مليون طفلٍ في سن الدراسة محرومون من التعليم، وهناك ٥٧ مليون أمي لا يقرأون ولا يكتبون. ١٠٪ من العرب يعيشون تحت خط الفقر، وهؤلاء – بالطبع – موجودون في الدول الأكثر فقراً، علماً بتزايد معدلات الفقر بنسبة ٨٪ سنوياً الآن. حُسبت كلفة الهدر من الفساد بتريليون دولار، وخمسة من الدول العربية تحتل قمة الدول الأكثر فساداً على مستوى العالم. وكنتيجةٍ قابلةٍ للتصعيد؛ فإن العرب الذين يمثلون ٥٪ من سكان العالم؛ يواجهون ٤٥٪ من عمليات الإرهاب عالمياً. هكذا بالطبع أصبح ٧٥٪ من اللاجئين في العالم عرباً، والربع الباقي يأتي معظمه من دولٍ إسلاميةٍ مثل باكستان وأفغانستان ودولٍ

أفريقية مسلمة. بالطبع؛ فتعداد القتلى من العرب في الحروب يعادل ٦٨٪ من الإجمالي العالمي، وبلغ عدد القتلى العرب من الحروب (منذ ٢٠١١ حتى بداية ٢٠١٧) مليونا ونصف المليون قتيل مدني، وتشرد في الفترة نفسها ١٤ مليوناً، وتم تدمير بنيةٍ تحتيةٍ بقيمة ٤٦٠ مليار دولار، وخسارة في الناتج المحلي تعادل ٣٠٠ مليار. أما على صعيد الثقافة والعلوم؛ فلم تُنتج كل الدول العربية ما يعادل إنتاج رومانيا من الكتب سنوياً (٢٠ ألف كتاب) ولم يسجلوا أكثر من ٢٩٠٠ براءة اختراعٍ، أي إن ٥٠ مليون كوري سجلوا اختراعاتٍ تفوق العرب كلهم سبع مرات.

إذا استمر الحال على هذا المنوال؛ فسيكون مصير العرب مثل الهنود الحمر في الأميركيتين؛ حيث أبيد الكثير منهم واندمج بعضهم في المجتمعات الغازية، أو يعيشون على هامشها، كما هو في حالة أميركا اللاتينية.

كانت الدروس الأولى للإنسان العاقل – حتى يستمر وينمو – أن يترك حالة التقوقع الكهفي ويلتقي آخرين، وأن يُحرم التزاوج العائلي والسلطوي حتى يُحسن النسل. ومن أجل أن يوقف عمليات القتل والثأر؛ شرع القوانين التي تنظم القصاص؛ لأن الثأر المتبادل سيقضي على الطرفين داخل الجماعة. العقل البشري الجمعي لم يتوصل بعد ضرورة حسم وإنهاء الخلافات سلماً بين الجماعات؛ والتي لم تعد قبائلَ؛ بل أصبحت أمماً ودولاً وديانات متنوعةً ومتنافسةً ومتفارقة القوة، وتسعى لتأمين مصادرها ونهب مصادر الآخرين؛ سعياً للحفاظ على الذات.

كان حميد يطالع (بحث الانقراض) هذا الذي كتبه زملاؤه في مجموعةٍ أخرى، وهو منبهرٌ بكثرة الخواطر التي تجول في ذهنه؛ لتثبت له دخول العرب مرحلة الانقراض. في الجزء المخصص لمفعول الهجرة؛ استشف

دورها الإيجابي للدول المستقبلة، والنتيجة السلبية للدول المصدرة. طرح البحثُ المثال التالي: بعد أن أعلن الإنكليز ضم جزيرة إيرلندا إلى المملكة البريطانية العظمى؛ ثار الإيرلنديون ورفضوا الضم، فما كان من الإنكليز إلا تنفيذ مخطط تدمير محصول البطاطا في إيرلندا عدة سنواتٍ متوالية. حدثت مجاعةٌ قتلت مليون إيرلندي، وهاجر من الجزيرة الخضراء مليون آخر، وانخفض تعداد سكان إيرلنده بأكثر من النصف؛ بسبب التجويع والقمع الحربي. كانوا ٣٠ مليوناً وانكمشوا حتى ثمانية ملايين. في الفترة نفسها؛ تضاعف تعداد سكان بريطانيا من ١٨٤٠ حتى ١٩٠١؛ لأن الكثيرين هاجروا إلى الجزيرة البريطانية، والأكثر ركبوا السفن إلى أميركا.

الآن؛ وبعد أكثر من قرنٍ من الزمان؛ أصبح نصف تعداد العاصمة البريطانية أجانب مهاجرين إليها، وغالبيتهم من دولٍ كانت مستعمراتٍ بريطانيةٍ عانت الاضطهاد. في كل حي من لندن الكبرى يوجد ٣٠ إلى ٥٠ بالمائة من السكان من أصول غير بريطانية. في حي ويستمنستر مثلاً؛ هناك ٤٥ بالمائة من سكانه عراقيون جاؤوا بعد الهجوم الأميركي البريطاني على العراق. بدون اللاجئين؛ كانت لندن وبريطانيا ستتقلص سكانياً؛ لأن توالدهم في تراجع منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ومن يحافظ على الزيادة السنوية البسيطة الآن هم المهاجرون وأبناؤهم الذين يولدون في بريطانيا.

أمستردام الهولندية يقطنها أناسٌ من ١٨٠ جنسية هم الأكثرية في العاصمة الهولندية، وغالبيتهم – طبعاً – يأتون من الدول التي استعمرتها هولندا سابقاً، ويسيطرون على ثقافة الطعام وينخرطون في كل الأعمال. في السنوات الأخيرة؛ يأتي المهاجرون وطلاب اللجوء السياسي من دولٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ متأثرين بالحرب. لندن وأمستردام ليستا حالةً فريدةً في العواصم والبلدان الغربية.

الهجرة لا تسببها الحروب فقط؛ ولكن تغير المناخ المتسارع يدفع المتضررين إلى الهجرة؛ كما الحال في دول شريط وسط أفريقيا الممتد من سيراليون في غرب القارة حتى جنوب السودان وأثيوبيا والصومال شرقاً. كل دول هذا الشريط أصبحت تعاني المزيد من الحروب القبلية والدينية؛ مع تعاظم ظاهرة القحط والجفاف. التغير البيئي قلل الموارد وخلق الصراع عليها؛ فتسارعت الهجرة إلى الشمال لمن يستطيع. كانوا سابقاً يهاجرون إلى ليبيا والمغرب والجزائر ولكن مع العراك السياسي والحربي هناك؛ تواصلت الهجرة عبر البحر المتوسط إلى أوروبا. تشير دراساتٌ أمميةٌ إلى أن ٦٠ مليون نسمة من دول وسط أفريقيا سيصلون إلى أوروبا مع العام ٢٠٤٥. هذا العدد يعادل سكان بريطانيا أو أربعة أضعاف سكان هولندا. قد تستطيع دول أوروبا التعامل مع هذا العدد من اللاجئين؛ لكن الدول المصدرة لهم ستكون قد وصلت إلى الحضيض من النزف البشري القائم على الانتقاء الطبيعي.

خطر لحميد وهو يطالع بحث زملائه كلام الله ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾. ظن حميد أن اهتمام الإحصائيات بالعرب جاء نتيجةً لصداقة يساري عربي مع إحدى المشاركات، واعجبته كيفية إدماج المعلومات من قبل أنيتا وزملائها الثلاثة في البحث. هل العرب معرضون للانقراض؟ هل من الضروري أن يكون الانقراض بزوال تلك الأمة؛ أم أن تعثرها في القعر الفكري والاجتماعي والاقتصادي والتبعية بمثابة انقراضٍ هو الآخر؟ سأل نفسه؛ وقال: هذا سيتبعه ذاك، والوصول عبر التهميش إلى الانقراض لن يحتاج إلى آلاف السنوات، بضعة عقود ستكفي. جال في خاطره أن اللغة العربية قد ذابت في بعض الدول العربية وحلت مكانها لغاتٌ أخرى. استبدلت في شمال أفريقيا بالفرنسية،

وحلت الإنجليزية في جامعات الدول العربية، بل الآن معظم المدارس الابتدائية الخاصة تعلم الأطفال وفقاً لمناهج أميركية أو بريطانية أو فرنسية، والنتيجة أن خريجي الجامعات لا يتقنون الإملاء والقواعد العربية. التشتت والحروب الداخلية القبلية والطائفية مستعرةٌ، وكانت الأمة تستهلك ولا تنتج، وأصبحت في وضعٍ أسوأ الآن. تضافر الجهل والعادات الاجتماعية المتوارثة يعيقان تغريب النكاح ويساعدان على دوام ظاهرة زواج الأقارب الأكثر رخصاً وسهولة؛ ما يؤدي إلى أجيالٍ معطوبةٍ جينياً. العرب لم يصلوا في مجاراة الأمم إلى الأعلى؛ لنقول إنهم يتراجعون الآن، فبعض الدول ما زالت تعيش بفكرٍ ونظامٍ قبليٍ متخفٍ بأسماءٍ رنانة، وهناك غيرها يعيش سكانُها بعقلية الغزو والنهب، وهناك من يتصرفون بغريزة إنسان الصيد والجمع، وربما تطوروا إلى مجتمع الرعي. الحرب والجاهلية والقبلية وما ينتج منها من انعدام الفرص؛ كل ذلك ساهم في هجرة العقول، ثم أدى إلى هجرة الشباب، ومن يستطيع إليها سبيلاً، فالهجرة أُمنية كل شابٍ عربيٍ طموحٍ للهروب من المجتمعات القبلية. تبسم حميد حين تذكر واقعة سقوط المروحية الأميركية في مقديشو التي شاهد برنامجاً وثائقياً عنها أخيراً. أراد الأميركان خطف قادة وأفراد من الطرف المعادي لهم، وعرفوا أن اجتماعاً سيتم في وقتٍ ومكانٍ محددين في العاصمة الصومالية. أرسلوا سياراتٍ عصريةً محملةً بالقوات، وحاصروا البناية، وباشروا تحميل الأسرى، وتجمع المقاتلون الصوماليون لصد الهجوم، وحاصروا البناية، وقتلوا بعض الجند. فجأة؛ أصاب أحدُهُم طائرةً مروحيةً وأسقطها، فإذا بجموع المقاتلين يتركون قادتهم يُنقلون إلى العربات، وتركوا حصار البناية، وركضوا جميعاً لرؤية الطائر الذي تم صيده.

«الإنسان كائنٌ غرائزي يخفي بعض غرائزه أثناء نشاط العقل الواعي،

وتعود إلى سابق عهدها الحيواني حين يتولى العقل الباطن القيادة». ثبّتت هذه الجملة في رأس حميد حين طالعها منذ زمن، وعادت الآن إلى ذهنه. تذكر أيضاً ما طالعه بأن النفس البشرية طبقات، أقدمها وأثبتها هي الغرائز؛ التي نشترك فيها مع الحيوان، واكتسبناها عبر التطور، مثل الشهوة للجنس وللطعام والحذر. والطبقة الحديثة هي العقل الواعي؛ الذي نفكر من خلاله أثناء اليوم، بينما العقل الباطن يتحكم بالإنسان أثناء النوم أو التخدر، أو حين يشعر العقل الباطن بفرصةٍ مواتيةٍ لتنفيذ غريزةٍ مَنَعَتها القوانين والأعراف الاجتماعية المكتسبة؛ فيسعى لتنفيذها. أما العقل الواعي؛ فيتشكل من مجموعة مكتسباتٍ حديثةٍ؛ وهو عقلٌ راقٍ يتدبر الشأن اليومي، لكن بداية النعاس أو التخدر أو النوم توقظ العقل الباطن؛ الذي يباشر في بث اللذائذ من الخواطر أو ينفذ رغباتنا المكبوتة، فإذا أفاق العقل الواعي؛ باشر نبذ الأحلام والأوهام. هناك - بالطبع - أناسٌ يعيشون في اليقظة صراعاً دائماً بين طبقتي العقل، والإنسان القادر على إنهاء هذا الصراع؛ هو الأعقل والأنجح في حياته؛ لأنه لا يُهدر نهاره مثل ليله في الأحلام. أما من يفشل في الفصل؛ ويتعلق أكثر بأساليب وغرائز الأجداد المتوحشين؛ فإنه يصل بسرعةٍ إلى مرحلة الجنون؛ حين يطغى العقل الباطن على التنفيذ أثناء اليقظة، ويتحرر جسم الإنسان من سيطرة العقل الواعي عليه.

خطر لحميد وجود علاقةٍ مباشرةٍ بين الانقراض وقدرة الأفراد والمجتمعات على السيطرة والتحكم في العقل الباطن. يغضبنا - نحن العرب وأمثالنا - موظفٌ حكوميٌ بشدةٍ لانعدام منطقيته وسوء تصرفه، فنغضب، ونريد - لا إرادياً - أن نوبخه أو نضربه. لو ضربناه؛ سنهدأ وتنتهي المشكلة، لكن ضربه قد يؤدي إلى تعقيدات جمة، حينئذ نحول غيظنا إلى خواطر بأننا وبخناه وضربناه، وهذه الخواطر تشكل حالةً من الكبت

يختزنها العقل الباطن، ويواصل العقل الواعي تعامله الطبيعي. عندما نغفو – وقبيل النوم أو في أوقات السرحان النهاري – نتصور أننا أشبعناه ضرباً، وأنه حضر للاعتذار. إذا كان الكبت بسيطاً؛ تمر الواقعة بسلام وتتلاشى في العقل الباطن، أما إذا تضخم الكبت؛ فقد يوصلنا إلى الانشغال التام بالأمر، والحديث همساً، ثم بصوتٍ مرتفعٍ عما يسبب الكبت، وربما يصل الإنسان إلى الجنون؛ إذا فشل في التفريق بين العقل الباطن والآخر الواعي. السؤال هو: هل أفكار وخواطر الإنسان في الدول المتطورة تشبه نظيرتها عموماً لدى الدول المهددة بالانقراض؟

يُعرف ثلاثة علماء نفسيين بارزين الكبت الذهني، الذي يولد الخواطر والأحلام، بأشكالٍ متنوعةٍ ولكنها تلتقي في القول أن الكبت قد يؤدي إلى الأمراض النفسية، ولكن؛ لدى بعض الناس يمكن أن يدفعهم الكبت إلى الرقي، كأن يتحول المكبوت جنسياً إلى الرهبنة والتصوف، وقد يصبح بعض المكبوتين عباقرةً عبر هروبهم إلى آفاقٍ أخرى، ويركزون على الإبداع فيها. يقول فرويد ما معناه: إن الغريزة الجنسية تنشد لذاتها ولا تبالي بالعُرف والعادة، فإذا انكبتت؛ فيمكن أن تتسامى بصاحبها أو تنتكس به إلى الانحراف والأمراض النفسية. أما إدلر فيقول: إن الكبت يؤدي للنزوع إلى القوة إذا بقي محتبساً، وهذا هو طريق الأمراض النفسية المألوفة. ويجمع يونج بين الرأيين باحتمال أن يؤدي الكبت إلى النبوغ أو المرض. «إذاً ما ينطبق على الفرد يمكن تطبيقه على مجتمعات». قال حميد بصوتٍ مسموعٍ وهو يطالع.

العقل الباطن يختزن ماضي الإنسان السحيق، وعندما يتسبب بالأحلام؛ فقد يرى الإنسان حيواناتٍ شرسةً منقرضةً أو أشياء حديثةً من سلالتها؛ مثل التماسيح والأفيال. العقل الباطن هو المسؤول أيضاً عن

الخواطر التي تتوارد إلى الذهن عندما يشرع العقل الواعي في التغافي، أي؛ خواطر قبل النوم، وبعد الاستفاقة من النوم؛ تقع ضمن تخصص العقل الباطن؛ الذي يولد الخواطر لتتوافق وترتبط مع الكبت والرغبات والغرائز الأقرب إلى اللامنطق، والتي يرفضها الإنسان عندما يفيق ويعود إلى سيطرة العقل الواعي، وذلك حسب فرويد ورفرز. الخواطر إذاً عبارة عن أحلامٍ مخففة. في الحلم؛ يمكن لرغبتك أن تريك خصمك يؤكل من ديناصور مثلاً ولكن؛ في خاطرك الذي ينبع من العقل الباطن أيضاً ترى خصمك يواجه الضرب منك أو التذلل لك؛ كونك غير نائم، وبالتالي؛ العقل الباطن لا يسيطر تماماً. لذلك؛ تُعتبرُ الخواطر أحلام يقظةٍ، قد تكون غير حقيقيةٍ؛ ولكنها ضمن المعقول، وتعكس الرغبات والعواطف لأشياء وأفعال محددة. يمكن أيضاً في لحظةٍ ما أثناء الحديث أن تفلت كلمةٌ أو نظرةٌ تُعبر عما في العقل الباطن؛ الذي لا يهتم – في العادة – بتهذيب ذاته، بل يعبر عن آرائه بسذاجةٍ طفوليةٍ أو بطريقةٍ حيوانية، ولكن؛ تبقى الأمور سريةً داخليةً تنعكس في الأحلام، وبعضها – الأخف – يظهر في الخواطر. العقل الواعي يُطلقُ الكلام بحسابٍ؛ مراعياً الموقف والنيات المراد تحقيقها من الحديث، ويبتعد عن الخطأ والتناقض.

«هل يمكن تحديد نشاط العقل الباطن من أحلام وخواطر لدى أفراد المجتمعات المتطورة، ومقارنتها بما لدى أفراد المجتمعات المهددة بالانقراض؟» سأل حميد نفسه وأجاب: لا بد أن تكون نتيجة المقارنة مؤديةً إلى وجود فروقات. فأحلام وخواطر الإنسان لها علاقةٌ بماضي البشرية، ولكنها تتأثر بالمحيط المعاشي، وبالتالي؛ تتناسى الماضي السحيق، وتقترب أكثر من الحاضر لدى أفراد الأمم المتطورة. «الأمر يحتاج إلى اختباراتٍ ميدانيةٍ، ولا يمكن العثور عليها في نظريات فرويد ونظرائه، فكلهم عاشوا في أزمنةٍ أقل رقياً مما يعيشه أحفادهم الآن في الغرب المتطور».

خَوَاطِر.. وأحلام

في المساء؛ أوجز حميد لجارته – وهما يحتسيان الشاي في المطبخ – ما طالعه من بحث الانقراض، وأخبرها فكرته حول العقل الباطن؛ ودوره في الأحلام والخواطر، وما يُقالُ عن مخزون العقل الباطن من موروثاتٍ أصيلةٍ قديمةٍ جداً، وتعود إلى الإنسان – شبه المتوحش – وتطوره اللاحق. أخبرها بما يظنه بذوبان أكثر للرؤى الأكثر قدماً عند الإنسان في الدول المتطورة، عما هو عند الإنسان في الدول الفقيرة؛ والتي تنتظر دورها أقله للانقراض الحضاري. لم يصعب على ماري فهم ما يقوله؛ كونها تدرس العلوم الاجتماعية. «نعرف أن العقل بشقيه يسعى إلى إنجاح صاحبه ودفعه إلى السمو والرقي. نعرف أيضاً؛ أن ترويض الخواطر على الرؤى الإيجابية تؤثر في العقل الباطن إيجابياً، وبالتالي؛ تسهل مهمة العقل الواعي في القيام بالمهام المؤدية إلى الرقي والنجاح.»..

«أنت تريد إذاً المقارنة بين خواطر البشر في منطقتين متناقضتي التطور.. أليس كذلك؟» أجابها بإيماءةٍ، وخطر له أن يصحح فكرتها ويقول: يكفي المقارنة بين أناسٍ في منطقةٍ واحدةٍ، ولكن منابعهم متناقضة، ولكنه استمع إليها تُكمل: «.. سيكون ذلك صعباً؛ لأن بعض الخواطر التي تتحدث عنها سريةٌ لدى كلٍ منا، ولأنك ستحتاج إلى شرحٍ مطولٍ للمشاركين في الاختبار؛ حتى يستوعبوا تفسيرك للخواطر والعقل الباطن».

«الخواطر السرية عندنا معروفةٌ تماماً، وهي بقية الغرائز من جنسٍ

ورغبةٍ في الانتقام. لكن؛ سنرى، فربما سرية السري في الدول المتطورة ليست بتلك السرية. عموماً؛ يمكننا الاستعانة بطلاب اجتماعٍ وفلسفةٍ قدر الإمكان، وإقناعهم بأهمية ما يمكنهم الإدلاء به.». تأمل المعلومات والتصريحات المطلوبة أصلاً، وتذكر أنه لم يقصد إجراء تجربةٍ علميةٍ كاملة، فالبحث المقدم حول الانقراض لا يخصه شخصياً، وهو يشارك في بحثٍ آخر. وأكمل حديثه لماري: «بضع إجابات صريحةٍ من أناسٍ نعرفهم يمكن أن تفي بالغرض، فإما نسف الفكرة بأن العقل الباطن يخزن مواد مشتركةً لدى كل البشر، وإما استكشاف فروقاتٍ جذريةٍ بين الأفراد من بيئاتٍ متناقضةٍ تطورياً». سكت حميد لوهلة ثم أخذ يفكر بصوت مسموع أن من يريد اكتشاف ذاته ومكنون نفسه وميولها فما عليه سوى التركيز وفحص خواطره وأحلامه وتسجيلها على الورق؛ ليستنتج مستواه الإنساني الفعلي وأخلاقه الأصيلة ونياته الخفية، وآنذاك؛ يمكنه بداية التغيير الذاتي للأرقى، أو – بالطبع – جعل خفاياه سراً على ذاته كما هي سر على الآخرين، ويصمد حينئذ في المستوى البدائي الأقرب للحيواني والانفصام في الشخصية، إذ يتظاهر في المسار اليومي أنه طبيعي، ولكن في أحلام اليقظة وخواطر قبل النوم؛ هو شيء آخر تماماً. الإنسان يعرف أنه بقليل من المجهود يمكنه ترويض خواطره؛ عبر اللجوء إلى السامي والراقي من الأفكار، وهذه بدورها ستؤثر في مكنون العقل الباطن تدريجاً، فيتحول الإنسان إلى إيجابي. الإنسان الإيجابي تخطر له الأفكار الجيدة في لحظات قبل النوم أو في أحلام اليقظة؛ فتلهمه أن يطبقها، وقد تتحول كتاباً أو موسيقى أو فناً أو اختراعاً علمياً أو مشروعاً تجارياً أو حل إشكاليةٍ في العمل، فترفعه خواطره إلى الأعلى بشكلٍ فعلي. رقي الفرد يتفاعل مع الآخرين في المجتمع؛ فتنمو الحضارة، وتسرع عجلة التطور، والعكس

صحيح بالنسبة إلى الأمم التي يكون غالبية أفرادها من أصحاب الخواطر السيئة، أنانية، انتقامية، جنسية غرائزية.. ففي هذه الحالة؛ تنفصل الأقلية الإيجابية عن محيطها، وتنعزل أو تهاجر إلى بلدان متطورة، فتتسارع فرص التخلف، ومن ثم؛ الانقراض لدى بقية الأمة.

«ما رأيكِ أن تسجلي لي منذ الليلة ما يدور في ذهنك من خواطر قبيل النوم لمدة ثلاثة أيام – مثلاً – واسألي من يثقون بك لفعل الشيء نفسه». قال حميد لماري وأبلغها أنه سيطلب ذلك أيضاً من أصدقاء ألمان وعرب. وافقته وهي تؤكد أن الفكرة لن يكتب لها النجاح.

«الأفضل أن تطلب من الناس تسجيل أحلامهم أو ما يتذكرون منها، فإذا وجدت عوامل مشتركة بين تلك الأحلام لأناس من بيئات ومناطق جغرافية متعددة؛ يمكنك أن تتفحص هذه الأحلام المشتركة، وتدرس إذا كانت تشير إلى مخزونٍ مشتركٍ في العقل البشري منذ آلاف السنين». لم يقاطعها؛ نظراً إلى منطقية حديثها، بل أعجب به وتمنى لو كانت فكرت فيه في الحال؛ لأن هذه الفكرة خطرت من قبل لعلماء ونفذوها.

«لقد طبقت هذه الدراسات يا ماري ووجد العلماء رغبات مشتركة بين البشر في سن الصبا مثل الطيران في الحلم، أو انعدام القدرة على النطق عند الخوف، والخوف من حيوانات غريبة لها ملامح مشتركة مع التماسيح، وهناك حلم السقوط من علو. هذه وغيرها من الأحلام اشترك فيها البشر، وتُفسر ضمن مخزوناتٍ مشتركةٍ للعقل الباطن المتوارث». ذكر لها بعض عناوين المراجع، وعاد يوضح أن هدفه من المعلومات المطلوبة عن الخواطر هو إجراء مقارنة بين خواطر الناس في منطقتي تطور مختلفتين؛ ليرى تأثير الخواطر في عملية التطور.

«من يوم الجمعة حتى الإثنين عطلة الفصح، هل لديك أي خطط؟»

سألته ماري بعد أن اتفقا على جمع معلومات من معارفهما. تذكر العطلة وإغلاق الجامعة والعمل الليلي في الصحيفة. فهمت من لغة جسده أنه لم يخطط لشيء معين. «لو رغبت؛ يمكنك السفر معي إلى بيتنا وقضاء العطلة مع عائلتي.. صحيح أنت لست مسيحياً؛ لكن عائلتنا ليست متزمتة وستكون تجربةً جديدة لك». لاحظت علامات الدهشة على محياه، فرفعت حاجبيها بانتظار تعليق.

«شكراً لك، هذا كثير، استمتعي أنت بالعطلة مع العائلة، أما أنا؛ فأمامي الكثير من العمل غير المنجز.. شكراً» ظنت ماري أن إجابته هذه غير حاسمة، فعادت تهون عليه الأمر. أما هو؛ فقد مر بخاطره كيف سيكون أسيراً لهم ولعاداتهم أربعة أيام، مرت خاطرة بذهنه عما سيظنه أهلها لو ذهب معها فعلاً، فسألها لا إرادياً: «ما سيظن والداك لو ذهبت معك؟» استغربت سؤاله بحركة من رقبتها، فأوضح وقد شعر بعدم ارتياح: «قصدي؛ لسنا صديقين حميمين؛ وإنما زميلا دراسة وجارا سكن.»..

«لن تظن أمي ولن يظن أبي غير ما قلت. سأخبرهما أن زميل دراسة وجاري سيأتي معي، وسيفرحان لذلك. من الممكن أن أدعو صديقاً أو صديقةً ولن يظن الأهل أي شئ بخلاف ما هو عليه.. هل لدينا شيء نخفيه عنهما أو عن غيرهما؟». شعر حميد بالغباوة يخيم على عقله وهو يستمع إليها، ويؤنب نفسه على الأفكار المسبقة في عقله وظنونه؛ كيف سيفكر الناس بشكل خاطئ في شيء سليم. أخذ يصدر الأعذار لها وأن قصده تبيان تقييده لحريتهم طوال فترة العيد، وكرر الشكر لها، ثم اهتدى لفكرة تحميلها التحية لعائلتها وطلبه كعكة من والدتها إن أمكن.

عندما دخل حميد إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، انفتح ذهنه فجأة وضرب جبهته بكفه! لماذا لم تخطر لي هذه الفكرة إلى الآن؟ الأمور جلية

لمن لديه البصيرة، كل الملايين الأفارقة الذين يتركون قراهم ويعبرون الصحارى القاحلة ويخترقون بلاداً غريبة عليهم حتى يصلوا إلى شواطئ عدوهم، البحر، وهم لا يعرفون العوم أو الإبحار، فيركبون عدوهم هذا إلى بلاد لا صديق لهم فيها ولا ترحب بهم أصلاً. هم يعرفون حق المعرفة غرق الكثير ممن سبقوهم، وصعوبة الحياة التي يغامرون في الوصول إليها.. كل هؤلاء مندفعون بخواطرهم وبأحلام اليقظة، وعلى الأرجح؛ لا يفكرون في غير ما يُمكنهم من القيام بهذه المغامرة الحلم. هؤلاء ليسوا بحاجةٍ إلى سؤالهم عن خواطرهم. المعتقلون في السجون أيضاً يركزون خواطرهم على طرق الخروج من الأسر، والمحاصرون في مدنهم وجغرافيتهم في ظروف صعبة لا ينفكون عن خواطر الخروج من محيطهم البائس إلى ما هو أقل بؤساً في المهجر.

الملايين من الهاربين العرب من ويلات الحروب للنجاة بأنفسهم؛ كانت عقولهم وخواطرهم تخطط للنجاة، ولم يكن لديهم فرص للتفكير في المال أو الجنس، بل فكروا وخططوا وتركزت خواطرهم على النجاة بحياتهم لضمان استمرار جيناتهم، فتركوا بلادهم وأعمالهم وما يعرفون؛ إلى المجهول الذي يؤمنهم على حياتهم.

استفاد حميد من أيام الإجازة في جمع وتقييم إجابات عن أسئلةٍ شفويةٍ وجهها إلى معارفه، وأخرى طرحها عليهم عبر وسائل التواصل الاجتماعي. استنتج أن المتزوجين منذ زمن طويل يعانون – على الأرجح – الملل والروتين، ولديهم عمل ودخل مستقر، هؤلاء تتنوع خواطرهم. أحياناً؛ يفكرون حتى يغلبهم النوم في الجنس مع شابات وصغيرات مثل الحوريات، ولدى بعضهم خواطر في الانتقام من خصوم في العمل، وإقناع الذات بأنهم على صواب. وأحياناً تكون خواطرهم حول الجنس وحل

مشاكل العمل الفعلية والمتوقعة. الرجال الأرامل الأكبر سناً؛ ولا يزالون نشطاء جنسياً؛ تكثر عندهم خواطر الجنس، خصوصاً إذا كانوا في وضعٍ اقتصادي مريح. على الأرجح؛ إن الغريزة لزرع الجينات تبقى ناشطة لديهم، وربما لهذا السبب تدور خواطرهم حول إناثٍ جميلات ومؤهلات للحمل.

عمال أجانب مغتربون تكثر خواطرهم حول زيادة المصاريف وقلة المدخر من الراتب شهرياً، وأحياناً تسرح خواطرهم حول المشاكل المتخيلة في بلدانهم الأصلية. مسؤول مزرعة يؤكد أن خواطره القصيرة قبل النوم السريع تدور حول العمل الذي أنجز والآخر المطلوب في الغد إنجازه، ومحاولة تذكر إذا كان أطفأ المضخات وأغلق الأبواب، وعندما يكون أقل تعباً وتطول فترة الخواطر؛ يرى نفسه منشغلاً في خلق مزرعة خاصة به، أو أنه أصبح شريكاً في المزرعة التي يعمل فيها.

ربة بيت تقول إن خواطرها وأحلامها أيام الشباب تركزت على الامتحانات المدرسية والصعود والسقوط، وأكدت أن خواطر انتقامية تراودها، ولكنها لا تصل إلى درجة القتل. ربة بيت أخرى دارت خواطرها حول الانتقام من جار لها يرمي النفايات في المساحات الخضراء العامة، وما عدا ذلك؛ تفكر قبل النوم في تصحيح الأخطاء اليومية في البيت والمطبخ وضبط الحديقة.

فتاة صغيرة تدور خواطرها حول الدين وعدم المنطقية لما تسمعه، وتعلن خواطرها على شكل أسئلة في مدرسة يوم الأحد؛ إلى درجة أن المدرس الذي لا يحتمل الأسئلة يصفها بنقص الإيمان، بل بالإلحاد.. لذلك؛ أصبحت تراقب زوار الكنيسة وهي بينهم ثم تتذكر أفعالهم طوال الأسبوع، ويرشدها خيالها إلى عدم الاقتناع لأن ما يُقال غير منطقي ولا يقدم إجابات، وزوار الكنيسة حسب معرفتها لهم ليسوا مؤمنين أبداً،

وجلهم منافقون.. هكذا أصبحت وحيدة؛ لاختلافها عن الآخرين المطيعين، وأصبحت خواطرها تدور حول كسب الأصدقاء، واهتدت لشراء صداقتهم بهدايا من المصروف المدرسي اليومي.

فتاة على أبواب الثلاثين من العمر مرت بتجربة حبٍ سيئةٍ ترشد خيالاتها إلى الطرف الإيجابي بإمرار صورٍ لأحداث مبهجة تتمنى حدوثها بدل الانسياق خلف ذكريات الحب الفاشل ونزعات الانتقام من الحبيب الخائن. صبية أصغر سناً وفي المرحلة الجامعية؛ تدور خواطرها ماذا ستفعل في الصباح، وأي سندويتش تتناول مع القهوة، وتقول إن خواطرها هذه سببها النوم جائعة عن قصد. أحياناً تفكر في خطة عملها الجامعي، وماذا ستكون عليه بعد عام أو أكثر.. «بعدها أتوكل على الله وأحسن الظن في المستقبل. أحياناً أفكر كم هي الحياة سريعة، والناس مختلفين بعضهم عن بعض، وصعوبة فهم أشياء ومواقف حياتية كثيرة. أحياناً أكون منهكة من التعب ونعسانة جداً؛ فيأتي خاطر أن آخذ دشاً ويصارعه خاطر مضاد بالنوم».

فتاة جامعية أخرى تعيش مع عائلتها وتدور خواطرها حول الانتهاء من الدراسة والاستقلال عن العائلة.. «أتفرج كثيراً كلما سنحت الفرصة على مواقع إنترنت فيها أثاث وديكورات، فأرسم في خيالي البيت الذي أريده. أحيانا أفكر في موضوع أو مشكلة أو قرار يجب اتخاذه، وبكيفية التصرف وما هو الأنسب.. أحياناً أكتب تلك الأفكار في الصباح على ورقة أو أصوغها على شكل قصص».

جامعية تتخصص بتجارب علمية لمكافحة أمراض القلب: «أفكر كثيراً في مواقف اتخذتها عملتها مع أناس وأستغرب تصرفاتي وصرامة ردي عليهم أو تجنبي إياهم.. أندم كثيراً وأقنع نفسي بفتح صفحات جديدة

أو التساهل في المعاملة مع الآخرين، ولكن في الصباح؛ أنسى ما توصلت إليه في الليل. أحياناً تأتيني أفكار وخواطر لها علاقة بمجالي، أفكار أصلية منها ما أستطيع أن أصنعه، ومنها تحتاج إمكانيات أكثر، ولكن؛ في الأغلب؛ معظم مشاريعي تأتي من خواطر ما قبل النوم. أخاف من الوحدة والعتمة، وعليه دائماً الأفكار كيف ستكون حياتي في المستقبل ومع من.

إذا صدقت نظرية أن البشر يحملون في العقل الباطن تراث البشرية الأولي؛ فالأطفال هم الأجدر بالبحث. لكن يصعب معرفة خواطرهم قبل أن يتعلموا النطق، وحينئذ؛ تكون تجاربهم في الحياة قد غطت على المخزون. عموماً؛ يولد الطفل بدون قدرة على الكلام، تماماً كما كان عليه الإنسان الأول؛ الذي تطورت حنجرته على مدى آلاف السنين. ويحبو الطفل مثل أسلافه قبل أن تنتصب قاماتهم. قبل وبعد تعلم النطق؛ يستعمل الطفل غرائزه للتعبير عن طلباته، وكثيراً ما نلاحظ تأثر الأطفال الصغار بما يحلمون. حتى مرحلة البلوغ؛ يتفاعل الأطفال مع القصص الخيالية وكأنها واقع يمكن محاكاته، ويتقمصون أية شخصية، ويحادثون الحيوانات والطيور، ويمكنهم عزل أنفسهم عن المحيط، والغوص في عالمهم الخاص معتمدين على مخزون العقل الباطن وكأنهم في حلم يقظة.

الأَنْصار

لاحظ أنها تكرر النظر إليه، وجه ناظريه إليها وتبسم ثم رقص حاجبيه لها حين ضبط نظرتها. لم يكن جودت وألزه قد التقيا معاً أو تهاتفا منذ تلك الليلة، وها هما الآن يتناظران عن بُعد في الاجتماع الشهري المفتوح للجنة مناصرة الشرق الأوسط؛ الذي يعُقد هذه المرة في قاعة الاجتماعات الصغيرة في البناية الرئيسة للجامعة. كانت تساؤلات المتحدث الأول تشع بالحيرة وتشير إلى فقدان خيط الترابط والمنطق، فمثل الفوضى الجارية الآن في كل الشرق الأوسط؛ غير قابلةٍ للفهم بالنسبة إلى المخ الألماني.

«..لم يعد بوسعنا منذ فترة استعمال مصطلحات سياسية سادت عقوداً ونحن نحلل الأوضاع في العالم. مفاهيم الاستعمار والإمبريالية والتحرر والثورة، وغيرها، كلها لم تعد تعطي المفاهيم التقليدية التي عهدناها، لكن ما نراه الآن في الشرق الأوسط ربما علينا تسميته عبثاً. لقد تروضنا على اجترار التناقضات في الصراع العربي الإسرائيلي، لكن ما يجري في فلسطين لم يعد في الإمكان ابتلاعه، اختلاف بين فصائل المقاومة، وبينها وبين السلطة وحصار لقطاع غزة يشارك فيه فلسطينيون وعرب. كل هذا أصبح صعب التصور وعصياً على المنطق، أما ما يجري هذه الأيام بين دول الخليج العربية النفطية؛ فهو قمة الجنون، وأتمنى أن أسمع ما يشبه التفسيرات من الرفاق الذين سيتحدثون، وبالطبع من المشاركين والموجودين في هذه الندوة». أنهى الياس حديثه الافتتاحي وجلس بين بيتر ورأفت على المنصة

وأمامهم على المقاعد حوالى خمسين من الحضور معظمهم طلاب ألمان والبقية من جنسيات مختلفة. قدم بيتر المتحدث الضيف بالاسم: يوخن وبالصفة: أكاديمي يُدرس مادة الاجتماع، ودعاه لإلقاء كلمته، وأشار إلى أنه سيتلقى أية أسئلة أو إضافات بعد حديثه.

«نرى أنفسنا في حيرة لتفسير ما يجري، وذلك بسبب فوارق التطور الاجتماعي بين الجماعات البشرية، وتشتد حيرة من يعتبرون العالم قد أصبح صغيراً ومتصلاً منذ عقود، فنظن أن أساليب التفكير والاستنتاجات واحدة أو أقله متقاربة». قال يوخن بعد أن تقدم أمام الحضور بثقة كون التدريس مهنته، ولم يسهب في الكلام حتى يوفر الوقت للمتحدثين الآخرين وللمتحاورين لاحقاً. «قبل الحربين العالميتين الكارثيتين، الأولى والثانية؛ عانت شعوب أوروبا حروباً تدميرية شتّى، وسبقتها حروب دينية بربرية بين الطوائف المسيحية، وقبل ذلك؛ كنا نحرق الناس بتهمة السحر، كما تحرق داعش الآن أبناء جلدتها ودينها وتمثل بجثثهم. نعم؛ الدول العربية والإسلامية عانت حروباً طائفية ومقاومة للاستعمار؛ ولكن ذلك لا يقارن بهمجية التجربة الأوروبية وطولها. تلك التجربة الطويلة، وتحديداً بعد أهوال الحرب العالمية الثانية، عمقت مفهوم التعايش وضرورة السلام واختيار الطريق الديمقراطي على أشكاله المتعددة، وعِلله المتنوعة. المهم؛ أن مفاهيم الديمقراطية عزلت وحيدت التسلط الديني، وحددت الإيمان داخل جدران الكنيسة؛ بعيداً عن السياسة، هكذا تنوعنا وساعدتنا الثورة الصناعية على بناء الدول التي تحترم المواطن وتخدمه». رفع يوخن بإصبعه نظارته الثقيلة فوق أنفه، ونظر إلى ساعة معصمه، وأكمل: «تفوق إسرائيل المتنوع بدعم غربي وأميركي، وانتصاراتها في الحروب العدوانية المتتالية؛ شلت قدرات استكمال التحرر الوطني والقومي العربي، وبدل القفز إلى

الأمام؛ صُنعت قوى الشد العكسي، ومنها تيارات أصولية إسلامية تساعد، في نهاية المطاف؛ إسرائيل عبر المطالبة والعمل للعودة إلى الماضي الذي لم يكن سعيداً في أي يوم، وأخذت تمارس مفهوماً إسلامياً تظنه أصولياً، ولكنه في الحقيقة من إنتاج حركات حديثة متخلفة منتشرة في دول الخليج النفطي وفي باكستان، ويكفي أن ننظر هناك إلى وضع المرأة وواقع الحريات الشخصية وأساليب الحكم العائلي. المفاهيم الحاكمة في دول النفط تسلطت على الدول العربية ذات الأنظمة المختلفة، ودعمت الفوضى ثم الإرهاب والحرب الطائفية في جمهوريات مثل ليبيا ومصر وسوريا والعراق واليمن، منعاً لقيام أو نجاح تجربة أي تيار وطني أو قومي عربي قد ينال إعجاب شعوب دول النفط فتتحرك للتغيير. لهذا بالذات شهدنا توافق مصالح وتعاوناً خليجياً مع الولايات المتحدة وإسرائيل ولم تصل الفوضى إلى أي نظام ملكي أو أميري. المعروف أيضاً أن حركة الإخوان المسلمين نشطت منذ الخمسينيات لمحاربة النظام الناصري، كذلك فإسرائيل هي التي خلقت التيارات الإسلامية الفلسطينية في الأساس، وأميركا هي التي خلقت ومولت تنظيم القاعدة عبر السعودية، وعندما انكشف الأمر؛ خلقوا وسلحوا داعش ليصلوا في النهاية وعبر الويلات والتخريب إلى إقامة دول طائفية دينية في المنطقة تغازل إسرائيل في الشكل وتطلب عونها بعضها ضد بعض كما نرى الآن في حالة الصراع الخليجي الإيراني. أما الخلاف الخليجي مع دولة قطر؛ فهو إنتاج أميركي بجدارة؛ لضبط وشفط الأموال النفطية. إنهم لا يتخاصمون في السباق نحو تحرير المرأة، أو منح العمال الأجانب أية حقوق إنسانية، أو تجنيس إخوتهم العرب الذين بنوا بلادهم ويعيشون هناك منذ عقود. لا شيء من هذا، أميركا أوقعت بينهم، وأميركا تصلح بينهم وتفرض نفسها حكماً وحاكماً. المصير المحتوم لهم هو

الفقر من جراء الحروب، ومن ثم؛ الخراب والتبعية. لقد قفزت مشتريات السلاح بعد الربيع العربي إلى أرقام خيالية، فالأنظمة تريد حماية ذاتها من شعوبها، وهي أيضاً تشتري الحماية من الدول المصدرة، وهي بالدرجة الأولى أميركا وروسيا وفرنسا وبريطانيا، علماً أن الدول المستوردة تشتري من كل هذه المصادر لاسترضائها». توقف يوخن وهو يتلقى التصفيق من الحضور، ثم أبلغهم أنه مستعد لتلقي أسئلة أو إضافات.

«الإدارات الأميركية لم تقاطع إيران قط بل طهران هي التي خلقت الأزمة زمن إدارة كارتر ثم عادت العلاقات شبه طبيعية، وفي العقود الأخيرة؛ ساهمت دولة الإمارات مباشرة في خرق الحصار وتزويد إيران بما ينقصها، ويبلغ حجم التبادل التجاري ٣٢ مليار دولار بين البلدين، والإمارات مع السعودية والبحرين ومصر تطالب قطر بقطع العلاقات مع إيران.». قال شاب إيراني أخذ الإذن بالحديث، وأكمل: «..الرئيس ترامب تعهد بإلغاء الاتفاقية النووية التي عقدتها إدارة أوباما مع طهران ولكنه لم يفعل ذلك وإنما يحرض دول الخليج على معاداة إيران ليدفعها للتضامن مع إسرائيل. واختلقوا قصة دعم قطر للإرهاب وطالبوها بقطع العلاقات مع إيران التي لهم معها أفضل العلاقات، وطالبوها بوقف دعمها للإخوان المسلمين، وكان لهم مع الإخوان علاقات وتعاون حتى عامين سابقين. حجم التجارة بين إيران ودولة الإمارات يفوق التبادل القطري الإيراني. الغريب في الأمر أن نظام الملالي في إيران خرج إلى الآن مستفيداً من كل حراك سعودي. دعمت السعودية ودول الخليج صدام حسين ضد إيران ثم ساندت أميركا ضد العراق، والنتيجة؛ سيطرة إيران إلى الآن على العراق. حاربت نظام سوريا، ودعمت الإرهاب المقنع بالدين هناك، والنتيجة؛ وقوع سوريا في قبضة إيران.. ثم هاجموا اليمن وها هم أنصار إيران غير

قابلين للانهزام، والكوارث تحيط باليمن من كل النواحي، والآن تحاصر قطر جواً وبحراً، وتجبرها على اللجوء إلى جارتها إيران.. هل أنا غبي؛ لأنني لا أفهم ما يجرى، وماذا تريد السياسة السعودية؟».

لاحظ بيتر أن إسرائيلياً يعرفه رفع يده مع آخرين طلباً للحديث، ولكنه أعطى الكلمة لطالب خليجي يحضر دوماً الاجتماعات الشهرية للجنة مناصرة فلسطين. «أقول للزميل الذي سبقني في الحديث: لستَ غبياً، ولكن هذا الوصف ينطبق على سياساتهم. لقد أنتجوا هذا الفيلم حتى يضللوا الجمهور ويغطوا على تعيين الأمير الشاب محمد ابن الملك سلمان ولياً للعهد، أي تغيير نظام الحكم السائد من الأخ لأخيه إلى نظام ملكي منفرد من الأب لابنه، وهذا تغيير جذري ويؤثر في قبيلة الأمراء الذين يقبضون مخصصات قدرها مليارا دولار، وسينتهي دورهم بانتهاء الحاجة لاسترضائهم. حتى لا يتنبه المواطن الخليجي والعربي لهذا التغيير وما قد يجره من خلافات داخلية، تم إنتاج فيلم حصار قطر التي رفضت التجاوب، فأصبحوا في مأزق كمن صعد إلى الشجرة ولا يعرف كيف ينزل عنها. كل الإعلام العربي مشغول صبح مساء في الحديث عن هذه الأزمة، وتتقاتل المحطات الفضائية والصحف بعضها مع بعض، كل منها تنعت الأخرى بالنعوت نفسها، ولا تُبث كلمة واحدة عن قرارات التغيير السياسي في الرياض؛ التي ركزت الحكم في سلالة الملك سلمان وستؤثر في مستقبل ومكانة مئات آلاف الأمراء من سلالة محمد بن سعود المؤسس للدولة السعودية الأولى قبل قرنين ونصف القرن من الزمن». عاد الإسرائيلي لرفع يده طلباً للحديث، لكن بيتر الذي يدير الجلسة نظر إلى يوخن عسى أن يكون لديه أي تعليق على ما استمعوا إليه إلى الآن.

«دوماً في مثل هذه الظروف تنشأ نظريات المؤامرة وتنتشر الإشاعات

التي لا تخلو من حقائق». قال يوخن ولم يكن قد عاد إلى مقعده؛ بانتظار أي سؤال، وأضاف: «لقد سمعت أيضاً من أصدقاء عرب أن زيارة ترامب للخليج كان مقدراً لها جمع مائة مليار دولار بدل الحماية التي تقدمها أميركا لهم، وأنه قد حصل على تعاقدات بأربعمائة مليار من السعودية وبضعة مليارات أخرى فقط من دول الجوار، فطالبهم ترامب بالمزيد، وهنا ضحوا بقطر التي تملك ٣٤٠ مليار دولار من الاحتياطي، واختلقوا لها هذه الإشكالية لدفعها لاسترضاء أميركا وكسب دعمها بالنقود». أثناء حديث يوخن تهامس بيتر الذي يدير الحوار، مع مساعديه الياس ورأفت إذا كان عليه السماح للإسرائيلي بالحديث، واتفقوا على السماح له، إذ قال رأفت إن الإسرائيلي سيعيد الحديث إلى قضية فلسطين وقال الياس لبيتر أن يطالبه بالاختصار إذا أطال حديثه.

«تستغربون ما يجري في الشرق الأوسط، وأنا في الواقع استغرب بعض الأشياء، مثلاً لماذا لم تصدقوا ما كانت إسرائيل تقوله منذ عقود عن عنف العرب وانخراطهم في الإرهاب الذي يتهمون به بعضهم بعضاً.». تململ بعض الحضور، لكن بيتر لم يقاطع المتحدث الذي لم يُطل الحديث بعد: «..وأستغرب أن الأستاذ يوخن انضم إلى رؤية العرب باتهام إسرائيل بكل حدث سيئ، إسرائيل التي تتعرض للإرهاب وكل حروبها دفاعية». ارتفعت أصوات الاستنكار في القاعة، وأعطى بيتر الكلمة ليوخن مشيراً إلى الإسرائيلي بالتوقف.

«تتهم العرب بالإرهاب بدون تمييز، ثم تتهمني بدعمهم، لن أعلق على ذلك. لكن لا يمكنني ترك قولك إن حروب إسرائيل دفاعية، وهي التي أحضرت العصابات وتسببت بتشريد الفلسطينيين عام ١٩٤٧، وترفض كل قرارات الأمم المتحدة، وعليك مراجعة آراء المؤرخين اليهود الجدد

حول حرب ١٩٦٧، وكيف خططت إسرائيل لها، والإرهاب الإسرائيلي على غزة يتحدث عن نفسه.»..

«الردع لغزة كان رداً على إرهاب الصواريخ التي تطلق من هناك على تل ابيب.». قال الإسرائيلي مقاطعاً بصوت مرتفع.

«منذ عشر سنوات وأنتم تحاصرون قطاع غزة.». قالت ألزه بصوت جهوري حيادي وأكملت وقد صمت الحاضرون: «عندما تجثو بكل ثقلك على صدر من ليس بوزنك وتخنقه وتمنع عنه كل المواد وتشفط المياه من حول القطاع بآبار عميقة إلى درجة تسرب مياه البحر تحت كل قطاع غزة، وإقرار الأمم المتحدة في أحدث تقاريرها أن القطاع لن يكون مؤهلاً للحياة البشرية بعد ثلاث سنوات من جراء الاحتلال والحصار.. بعد هذا الدمار ورفض حكومة إسرائيل كل أفكار وخطط واتفاقيات السلام، يأتي واحد مثلك ليقول إن الإرهاب الإسرائيلي هو حروب دفاعية. مثل هذا الباطل بوسعك قوله في أماكن وأزمنة أخرى، ولكن ليس هنا والآن». ارتفع التصفيق، وسُمعت هتافات مضادة عندما حاول الإسرائيلي الحديث، فذهب إليه من طلب منه الجلوس والإنصات أو المغادرة.

هدأ جودت مع الآخرين، ولكنه لم يعد يتابع بعقله ما يدور ويقال في القاعة. هل يناسب ألزه منصب وزير دفاع أو خارجية في حكومة فلسطين إذا تشكلت في الزمن القريب القادم؟ أجاب نفسه عن تساؤله بأنها تستحق رئاسة الوزراء، فهي محنكة ملمة بالمطلوب وشجاعة، وهي الآن أجدر من رئيس فلسطين وكل الوزراء ورئيسهم، وربما أحق منهم بالمنصب حسب ما تعطيه للقضية من وقت وجهد وتضحية. إذا منحوها وأمثالها جنسية فلسطينية تشريفية، «يخلف عليهم»، ولكنهم أنانيون لا يفكر الواحد منهم في أمه، مثلهم كبقية الفلسطينيين يعتبرون أن العالم مدين لهم، وهم كبقية

العرب كل منهم يرى في نفسه أبا العُريف الذي لو حكم العالم سيحوله إلى جنة بينما هو يكوم القمامة أمام منزله وتتطاير أكياس البلاستيك في حارته فيشتم رئيس البلدية وزباليها. أستذكر أنه لا يفكر فيها الآن كأنثى وإنما كسياسية مهنية، لم يسترجع ذهنه ما دار بينهما في الفراش، وراودته الاستنتاجات أن الغرام لن يتطور بينهما.

قَهْرُ الغرائِز

لاحظ حميد اختلافاً لم يدرك تفاصيله في وجه ماري وهو يتأملها خلسة أثناء تناولهما الشاي في المطبخ الجماعي. هذه ثاني مرة يراها بعد عودتها من الإجازة، تنبه لتورد خديها وجمال تقاطيع وجهها وشعرها الأسود منسدل يغطي رقبتها البيضاء التي تبدو ملساء لا يظهر عليها آثار للعروق. نظر إلى عينيها؛ فأمسكت به متلبساً وأطلقت تساؤلاً بحركة من حاجبيها وخفض رأسها. اعترف بدون مقدمات وأخبرها أنها احلوّت في الإجازة، فازداد تورد وجنتيها وقالت متهربة من الموقف أنه فقد جديته. كانت أحاديثهما – عندما انتقلا إلى غرفته – تتقافز بين السياسي والاجتماعي والعائلي ولكنه اتخذ قراره بالمحافظة على صداقتهما بدون أن يسعى إليها جنسياً لفترة قادمة. أراد أن يقنع نفسه بامتلاك قوة الإرادة والقدرة على التفريق بين الغرائز العمياء وسمو العلاقة الإنسانية والصداقة.

«مصائب جمة تحدث في فلسطين وأيضاً في دول عربية أخرى، لكن الإعلام العربي يثبت كل ساعة أنه مُسير، فلا يتحدث سوى عن قضية الخلاف بين الأمراء الخليجيين واتهام بعضهم بعضاً بالإرهاب». أراد حميد توجيه الحديث مع ماري إلى نواحٍ جادة لا تقترب من الرومنسية.

«نعم؛ مجاعة وكوليرا واحتلال، لكن إعلامنا الألماني وأكثر من سياسي يروجان منذ شهور أن هذه الأزمة مصدرها دعم دول النفط للإرهاب، وهما الآن يؤكدان ذلك!» قالت ماري وهي تنظر من النافذة إلى ظلام البحيرة، بينما جلس حميد بمحاذاتها على كرسي مكتبه.

«إنها معضلة أزلية، فكل طرف يرى في خصمه إرهابياً، ولذلك؛ تعجز المؤسسات الدولية؛ التي تضم في عضويتها دولاً متناقضة الرؤى، تعجز عن الاتفاق على تعريف للإرهاب». التفتت ماري إليه وجلست بنصف مؤخرتها على حافة المكتب وأعارته الانتباه، فأكمل: «الاتحاد السوفياتي ومؤيدوه اعتبروا المقاومة الإسلامية في أفغانستان إرهابية؛ بينما رأت فيها واشنطن والدول الغربية والخليجية آنذاك حركة تحرير مشروعة، وانقلبوا على هذا التصنيف بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١. الآن ترى السياسة الأميركية في حركة داعش إرهاباً يجب اجتثاثه كونها لم تعد تخدم مصالحها، بينما منظمات مقاتلة إسلامية أخرى تُصنف من قبل واشنطن تحررية ومن سوريا وروسيا وإيران إرهابية، وينقسم المواطنون العرب بين هذا وذاك. تمويل الحركات الإسلامية التي خربت الدول العربية مثل ليبيا وسوريا ومصر وقبلها العراق، والحرب الدائرة الآن في اليمن يأتي من دول الخليج بشكل رسمي، وشعبي عبر جمع التبرعات.». قاطعته ماري بسؤال عن سبب تمويلهم للخراب والتخريب العبثي. «..أرادوا تدمير الدول غير الملكية، وكان في عملهم تنافس خفي من سيهيمن على سياسة وإرادة الدول المعنية في عهودها الجديدة. بالطبع لم يتخيلوا حجم الدمار نتيجة لأفعالهم، فكابروا وواصلوا دعم التخريب حتى أفلتت الأمور ولم تعد تلك الدول المدمرة قابلة للإعمار، وهنا اختلفوا وأصبحوا يحملون بعضهم بعضاً مسؤولية تدمير هذه البلدان التي اشتركوا في تمويل إرهابييها. أصبحت الجريمة واضحة فاختلف المجرمون لتضييع الدم.».. نظرت إليه وقد رفعت حاجبيها مستفسرة! فأخبرها أن العرب منذ الجاهلية إلى الآن يُشركون عدداً كبيراً من القتلة في الجريمة ليضيع دم القتيل ولا يعرف أهله ممن يأخذون ثأرهم، وهذا ما حاولت قبائل مكة فعله مع النبي محمد.

«العالم يطفح بالمشاكل، لكن ما لديكم أكثر مأسوية، فليساعدنا الله» قالت ماري برفق وقد تحركت من مكانها وجلست على حافة السرير بينما أدار حميد كرسيه ليواجهها وهو يؤيدها بإشارات جسدية وقد لاحظ أنها تريد إقفال هذا الحديث.

«صدقت.». أيدها وقرر أن يطيل النقاش العام حتى تعود إلى غرفتها. «مشاكلنا أعظم لأن فارق التطور شاسع. تعرفين أن درجة التطور بين البلدان هي التي تتحكم في مستوى الرقي الحضاري. هناك فوارق بين الأفراد في العائلة الواحدة وبين العائلات وبين المجتمعات وبين البلدان. التعصب الديني يؤدي إلى التخلف؛ سواء للفرد أو المجتمع. انظري إلى أي بلد وقارني بين درجات التطور الحضاري والعلمي والاقتصادي، مع الرؤية الدينية، ستجدين المعادلة جلية. حيث تصعد مظاهر التدين ستقل المستويات الأخرى. على الصعيد الفردي أيضاً، المتدين عموماً أغبى من الملحد ولهذا تفسيرات منطقية. الأول مقيد بأفكار وطائفة ومفتٍ ولا يمكنه أن يحيد عن خطهم، والملحد حر في تفكيره ومنطقي، وبالتالي؛ أفقه أوسع». صمت ولم تعلق هي، راودته فكرة أن يخوض في دور الجينات في التطور، ولكنه نظر إلى هاتفه الجوال واكتشف أن ساعة تفصله عن موعد النوم.

«لقد طليت جدارين في غرفتي اليوم بدهان جديد، ولا تريد رائحته مغادرة الغرفة». قالت بعد أن تنبهت لعامل الوقت، وأكملت: «يمكنني الجلوس في المطبخ إذا كان لديك انشغالات.». قاطعها بإشارة من يده وأخبرها لا إرادياً أن بوسعها المبيت عنده في الغرفة. صمت وقد فاجأ نفسه بهذا الإعلان، ونظر في عينيها مباشرة وشعر بارتياح حين سمعها تقول: أوكي وتشكره. ساد الصمت لوهلة بينما راجع كل منهما هاتفه

الجوال، أو تظاهر بذلك؛ مع محاولة التحكم في الخلجات. «سأغلي لنا كأساً من الشاي». قال وقد نهض عن كرسيه باتجاه الباب، لحقت به معلنة أنها ستحضر بعض الأشياء من غرفتها. تحرك حميد في المطبخ آلياً أثناء تجهيز الشاي، وركز ذهنه على ما سيفعله الليلة.. لن أضاجعها تحت أي ظرف، لن أصدها بفظاظة إذا أبدت رغبة ولكني سأميع الأمر لمنعه، سأردع ذاتي وسأتصرف معها بأدب. أراد أن يؤكد لذاته هذه الأمور حتى يقتنع فلا تظهر عليه بوادر الشهوة، أو تخونه النظرات.

عاد إلى الغرفة مع الشاي فوجدها قد سبقته وارتدت بيجامة ولاحظ أنها أحضرت معها وسادتها وبطانية صغيرة جداً. «لا أنام بدون وسادتي هذه تحت رأسي وبطانيتي في حضني». ضحك وأخبرها ظنه بأنها تعتزم أن تتغطى بهذه البطانية التي لا تتجاوز الثلاثين سنتيمتراً. «أخبرتني أمي أنني منذ الطفولة أرفض النوم بدونها، وكانت هناك مشاكل لو غُسلت البطانية ولم تنشف مع موعد النوم، ولو سُحبت مني ليلاً أفيق منزعجة». كانت تبدو كطفلة وهي تتحدث وتضم البطانية إلى صدرها.

«يعني هذه القماشة عمرها في حدود العشرين سنة؟».

«كل بضعة أعوام نخيط طبقة جديدة وننزع واحدة من الأقدم منها». رمت البطانية في حجرها بعد أن جلست متربعة وسط السرير وتناولت من حميد كأس الشاي. «جلبت معي زجاجتيْ بيرة إذا رغبت في الشرب لاحقاً».

«لا أنصحك بدعوتي الليلة لشرب البيرة.». أجابها مبتسماً، فنظرت إليه دون سؤال حتى أكمل: «..لن تُسكرني البيرة، ولكنها بالتأكيد تجبرني على الشخير، وحينئذ لن يغمض لك جفن». ضحكا معاً وظهر عليها الارتياح. «أنت ضيفتي الليلة ولا يعقل أن أزعج نومك». خطر له أن يروي

لها من التراث ما يطمئنها ويفهمها قصده لو كانت لديها نيات مخالفة. «هل تعرفين ماذا يعني حين يقول عربي أصيل لأنثى أنت ضيفتي الليلة؟» حركت رأسها يمنة ويسرة ومطت شفتيها قليلاً، وكان يعرف أنها لن تعرف الإجابة عن سؤاله. ارتشف من الشاي وقال: «يقول الرجل للأنثى أنتِ ضيفتي الليلة فتفهم أنها في حمايته من نفسه ومن الآخرين وأن بوسعها النوم بكل اطمئنان. ويقول العريس لعروسته إذا لاحظ خوفها في ليلة الدخلة، سأضيفك الليلة، فتطمئن وتعرف أنه لن يفض بكارتها ولن يجبرها على المضاجعة حتى تطمئن إليه.». ارتفع حاجباها، فشرح: «الأمر مختلف عما في الغرب، فالعرسان العرب في الغالب لا يعرفون بعضهم بعضاً بعمق قبل الزواج ولا يمارسون الجنس، فتبقى الأنثى خائفة من الليلة الأولى حتى لو كان لديها الشوق قبل ذلك. والخوف يصور لها الجنس الأول نوعاً من الاغتصاب لأن العلاقات الجنسية القديمة الراسخة في العقل الباطن كانت كلها اغتصابات. هكذا يمكن أن يتحول خوفها إلى هستيريا في ظروف معينة، أو تتولد لديها كراهية للنكاح. الاستضافة تحد من هذه المخاطر، لكن ليس كل الرجال يضيفون عرائسهم، بل هناك من يضربونهن إذا تخوفن وتمنعن لأنهم يظنون أن المرأة أصبحت من حقهم ومن واجبها التجاوب.. الأمر يتعلق بتطور العريس الذهني». توقف وضحكا عالياً بسبب إشارته مجدداً إلى موضوع التطور للأفراد والمجتمعات. أخبرها أيضاً أن الضيف الغريب له حق الإقامة ثلاثة أيام وثلث اليوم قبل أن يسأله مُضيفه عن سبب الزيارة.

«هذه عادات جميلة تخفف من قسوة الظروف، وربما لها علاقة بالمناخ.. هل تُمارس وتحترم حتى الآن؟» قالت وهي تتحرك وتغير من جلستها حتى استقرت على جنبها متكئة على يدها وبطانيتها تحت صدرها.

«هذه العادات محترمة في الأرياف، وخفت في المدن حيث تجالس ضيفك ساعات وأنت تعيد عليه أسئلة تقليدية، وهو يجيبك بمثلها قبل أن يخبرك بسبب زيارته. لكن استضافة العروس يُعمل به من البعض». صمت قليلاً ثم حدثها عن الاستجارة واحترامها من الكثيرين، وحدثها عن قصة عايشها شخصياً. فقد اختلف شابان وتضاربا وحين تجمع الناس حولهما قتل أحدهما الآخر. دخل القاتل إلى أقرب بيت وطلب الاستجارة، فأجاره صاحب البيت وخرج ليرى سبب الضجيج في الخارج.. حينئذ عرف أن ولده هو القتيل. عاد إلى البيت وأجلس المستجير في غرفة وأقفل عليه الباب ثم طلب من أبناء أخيه أن يأخذوا المستجير إلى مكان آمن ويحرسوه ويسهروا عليه عدة أيام، ثم أبلغ الشرطة عنه بعد أن هدأت النفوس. «لو لم يكن هناك حق الاستجارة لقتلوا القاتل على الفور». تأثرت ماري واغرورقت عيناها بالدموع.

انتقل حميد إلى المغسلة حيث تفصل خزانة بينها وبين السرير، وغسل أسنانه واستبدل بنطاله الجينز وقميصه ببدلة رياضية لينام فيها على غير عادته، وتصرف كأنه سينام على الأرض ويترك لها السرير، لكنها أكدت له أن السرير يكفي لكليهما وأن نومها هادئ. حشرت نفسها ناحية الجدار فتمدد بجانبها وأعطاها ظهره ففعلت مثله. قالت إنها مرهقة من عمل اليوم في دهان الغرفة وستنام بسرعة. تمنت له ليلة جيدة وتمنّى لها الأمنية نفسها وأطفأ النور. كان حميد يراقب العقارب الفسفورية لساعة منبه على مكتبه، ولم يتحرك أي منهما طوال ثلث ساعة حتى سمع أصواتاً من ماري تؤكد أنها قد غفت، ثم تراجعت مؤخرتها قليلاً حتى لامسته فحافظ على صموده وحمد ربه أن الأمر سيمر بسلاسة، ولام ظنونه بأنها قد تتحرش به. بدا له أن كل استعداده النفسي وعزمه على الصبر وعدم إظهار أية خلجات

فاضحة، لم يكن لها أي مبرر. فكر أنها ربما اطمأنت من روايته لقصص الضيافة فنامت قريرة العين بعد أن عرفت أنه لا جدوى من أي شيء آخر. أفاق من خواطره وهي تستدير وتضمه من الخلف، ثم عادت تتنفس تنفس النائم. شعر بصدرها يلامس ظهره وتخوف أن تنزلق يدها فينكشف توتره. استدار ونام على بطنه فتحركت ماري قليلاً واستراحت يدها اليسرى على مؤخرته. مر الوقت ببطء وأيقن أنه لن يغفو حتى الصباح إذا استمر هذا الوضع. اتخذ قراره وانسل بهدوء من تحت يدها وسحب وسادته ونام على الأرض ملاصقاً للمكتب.

أفاق على رائحة القهوة لكنه لم يفتح عينيه، استذكر أحداث الليلة وشعر بالارتياح لإثبات قوة إرادته. استجاب لصوتها وهي تصبحه واستدل على مكان القهوة فتناولها من على المكتب. «شعرت في الليل بقلقك.». قالت له وهي تجلس قبالته على السرير، واستفسرت عما كان يشغل أفكاره.

«كنت سارحاً في واقع تبادل التهم بالإرهاب بين دولٍ ما زالت تغذي الفكر الإرهابي عبر المدارس ونظم التعليم وتدعي أن نظمها وعقائدها متسامحة متفهمة للآخرين وأن إسلامها وسطي. لا يفقهون إلى الآن أن نهجهم الديني هو أرضية الإرهاب الداعشي، وأن داعش تعشش في ذهن مجتمعاتهم وأسلوب حكمهم. يغطون تخلفهم بالمظاهر الزائفة وإغداق الأموال والقرارات التظاهرية». توقف حين سأل نفسه عن سر الحديث في هذا الصباح بمواضيع كهذه..! لم يخبرها بحقيقة عزمه على إثبات أنه رجل مميز وأهل للثقة في كل الظروف. استأذنها للذهاب إلى الحمام، فأخبرته بانشغالها هذا الصباح وودعته. خطر على باله وهو يقضي حاجته قصة حدثت له أثناء آخر زيارةٍ للمنطقة. ففي يوم جمعة تصادف لقاؤه أمام الجامع مع رجل يعرفه منذ الصبا، بادله الرجل التحية وطلب أن يحادثه

فدخلا معاً إلى المسجد بينما بقية المصلين يغادرونه. طلب منه الرجل الاحتفاظ بما سيقوله سراً بينهما، فأكد له ذلك، كالعادة. ادعى أن لديه آثاراً قديمة وذهباً عثر عليه قيمته كبيرة جداً، ولأن حميد يعيش في بلاد أوروبا فربما بوسعه شراء الكمية وبيعها في الخارج، وأكد له أنه لا يريد التعامل مع العرب فكلهم لصوص وغدارون. تأمل حميد آنذاك الموقف، في الجامع، بعد صلاة الظهر، مع رجل يتهم بقية ربعه ويريد إشراكه في عملية نصب وسطو على الأموال العامة، ويتحدث بكل بساطة، ولم يعجبه في النهاية موقف حميد الذي سأله إذا كان يعتقد بتقبل الله لصلاته. طلب حميد من الرجل عدم ذكر هذا الأمر مرة أخرى. لكن الرجل أسمع حميد وهو يبتعد عنه دعاء إلى الله: يارب تهدي كل الملحدين في الهند والصين، والنصارى الكفار، إلى الإسلام. قهقه حميد وهو يتخطى باب الجامع ويتأمل في النتيجة لو استمع الله إلى دعاء هذا الرجل وحول بقية البشر ليكونوا مثل المسلمين.

صِراعُ الواعي والباطن

«الانقراض هو النتيجة الطبيعية لمن لا يتطور من الأفراد والمجتمعات، وينطبق هذا على النبات والحيوانات أيضاً.». قال يورجن للطلاب بعد أن طلب منهم مراجعة بحث الانقراض الذي أعدته أنيتا مع ثلاثة من زملائها، وأخبرهم أن محاضرة اليوم تفتح المجال للأفكار المتعلقة بهذا الموضوع. «..ابحثوا عن العوامل المشتركة بين الدول الفقيرة المتخلفة من جهة، والعوامل المشتركة بين الدول الغنية المتطورة من جهة أخرى، ثم تفحصوا النتائج. الملاحظة الأولى التي ستصدمكم هي: الدول الغنية المتطورة تشترك في تخليها عن العادات والتقاليد القديمة وعزل الدين عن الحياة العامة. بينما الدول الفقيرة المتخلفة لا زالت تتمسك بتقاليد وعادات قديمة جداً وأفرادها على استعداد للموت في سبيل الدين الذي يتحكم في كل مجريات الحياة، وذلك بدون أي تطوير إيجابي للرؤية الدينية ولمنظومة التقاليد المتوارثة. أما الدول التي تتبع تفسيرات سلبية للدين، أي رجعية أكثر من الدين نفسه؛ فهي تعيش في أو تتسبب بحروب لم تنتهِ منذ بداية اعتناق ذلك الدين». صمت يورجن بضع ثوانٍ وجال بناظريه على الطلاب وهو يستجمع بقية الفكرة: «عوامل أخرى يمكن تلمسها أثناء المقارنة، الدول والمجتمعات الفقيرة المتخلفة ينتشر فيها زواج الأقارب، والدول الغنية المتطورة ينعدم فيها هذا التزاوج. هكذا نجد نسب الذكاء والجمال والصحة لدى الأغنياء أعلى بكثير مما لدى المجتمعات الفقيرة

حيث تقل نسب الذكاء والجمال والصحة نتيجة لتراكمات جينية متتالية منذ قرون. نعرف الآن بالتأكيد أن عدة أنواع من البشر قد انقرضت نتيجةً لعدم اختلاطها، وأن التزاوج بين الأجناس البشرية قبل مائة وثلاثين ألف سنة هو الذي أنقذ الجنس البشري الحالي، ومنذ ذلك الحين يسير التطور في المجتمعات والجماعات البشرية بسرعات متنوعة. فالذين يختلطون ويطورون أنفسهم ويتحررون من قوى الشد العكسي هم الذين يسبقون غيرهم». توقف البروفيسور واستمع إلى سؤال إذا كانت الجينات هي الأهم في تحديد نسب التطور، بمعنى أنها أهم من الغرائز والإيحاء، ثم استأنف: «الآراء والمعتقدات تُكتسب بالإيحاء والتعلم، لذلك؛ ينشأ الأبناء متعصبين لآراء وديانة آبائهم وبيئتهم وتقاليدهم. النظافة والكذب والآداب العامة وعادات الأكل وحب العلم والعمل أو الكسل كلها مكتسبة بالإيحاء وليس عبر الجينات. لذلك يحتاج التطور إلى بداية تسمح له بالاستمرار بدون معيقات. أما العقيدة فتخضع للعقل الباطن، والمعرفة تخضع للعقل الواعي. المحاولات لإثبات علمانية العقيدة مبتذلة بالضرورة، ولا تخضع لاختبارٍ منطقيٍ علمي، ولكن الباطن الذي يُخزن العقيدة منذ الأساطير الأولى؛ يحاول إقناع الواعي بصحتها. التطور يحتاج إلى مناخ حر يسمح بالتواصل، مثلاً تكوين الأخلاق أثناء تربية الطفل تكون بالقدوة والإيحاء؛ لأنه يراقب محيطه وعلينا شحن عقله الباطن بالعاطفة المطلوبة الآن في عصرنا وليس المكتسبة والجامدة منذ آلاف السنوات. الطفل المولود في بلد فقير متخلف، وتم نقله على الفور إلى عائلة في بلد متطور فإنه سوف يحتفظ بجيناته الموروثة، ويحتفظ أيضاً بالغرائز في العقل الباطن، ولكنه سيكتسب خواص ومعتقدات العائلة الجديدة والمجتمع المحيط. العقل الباطن الموروث عند الطفل عبارة عن غرائز الخوف من السقوط والصوت

المفاجئ والظلام والوحوش التي أصبحت عفاريت مع تطور الأساطير، وهذا ما يراه العقل الباطن في الأحلام لدى الأطفال واليافعين أثناء النوم ويدفعه لاحقاً لتقبل العقيدة الدينية الواقية له من الشرور. عموماً؛ فالإنسان الذكي في النهاية هو الذي تتغلب معرفته على عقيدته، وعقله الواعي على عقله الباطن، وهو قليل التعصب سريع التطور مسايرٌ للزمن. الإنسان لا يفقد الغرائز ولكن البعض يكبحونها ويتعايشون مع التطور والبعض الآخر لا يكبح أو نادر الكبح للغرائز، ويبدو هذا جلياً في ما تحت قشرة تظاهره بالتحضر؛ خصوصاً عندما يواجه امتحاناً.. المتدينون تقودهم الغرائز أكثر من غيرهم، لكن الدين ليس غريزياً وإنما غرائز الخوف والأمل تعزز أيديولوجيا الدين، ولا تعزز أهمية تنفيذ الأفعال المطلوبة إيجابياً.. الأمم المتمدنة تتراكم لديها العلوم والتكنولوجيا، والأخرى المتخلفة؛ لديها العقائد والأديان.. هناك تطور حقيقي لمجتمعات وتطور سطحي لأخرى». كان يورجن يطرح هذه القناعات بهدوء وبتركيز تاركاً المجال للطلاب للتأمل وتدوين ما يقول.

تجاوب الطلاب مع طلب البروفيسور أن يطرحوا أمثلة عن أشياء وأجناس وأمم انقرضت، وأصبح حميد يسرح رويداً رويداً عما يسمع من زملائه عن انقراض الحيوانات والمجتمعات البشرية. باشر ذهنه يسترجع مصير الأندلسيين المسلمين الذين لم يبقَ منهم سوى ذكرى رومنسية لا تطابق الواقع الذي عايشته أجيالهم قروناً. كلما تذكر المزيد من معلوماته عن الأندلس تساوره الشكوك أن التاريخ يعيد نفسه مع المسلمين والعرب الآن، وأن مصير الأندلسيين ينتظر بقية العرب والإسلام، فمن كان آنذاك يتوقع النهاية التي وصل إليها الأندلسيون؟

منذ قرن من الزمن؛ انتهت الدولة الإسلامية المتحدة بهزيمة السلطنة

التركية، ومن ثم؛ قسم المنتصرون ورثة العثمانيين دويلات ومناطق نفوذ استقرت على ٢٢ دولة لم تتحد ولم تتجانس رغم شعارات العروبة والإسلام والمصير المشترك التي تغنت بها الحكومات لإرضاء الشعوب. خضعت الحكومات والنخب لتأثير الغرب، وانساقت لتعليماته ولم تكن أية دولة على وفاق مع جارتها، بل في معظم الأوقات كانت كل دولة في حالة خصام أو حرب مع جيرانها، وتتعاون حكوماتها مع الأجنبي ضد شعوبها وجيرانها. حتى يضمن الغرب الخصام والتخلف العربي والإسلامي، ويحد من فرص عودة المسلمين إلى الغزو والتقدم باتجاه أوروبا، أقام ودعم إسرائيل في فلسطين التي أعلنت حدودها وهدفها من النيل إلى الفرات. هنا باشرت بعض الدول العربية التعاون السري ثم العلني مع إسرائيل لضمان مستقبلها من الغرب الذي لم يترك المنطقة في حالها، فحرك الطائفية والحروب والاعتداءات الخارجية ثم أوصل المنطقة إلى تقسيمٍ طائفيٍ موسع على طريق إقامة دويلات دينية متناحرة؛ بينما إسرائيل تعلنُ يهوديتها وتتوسع في الاحتلال للأراضي وبسط نفوذها وهيمنتها بدعم كامل من الولايات المتحدة.

هذا الواقع الحالي بحذافيره سبق ونُفذ في الأندلس التي ذاب شعبها واندثر الدين الإسلامي فيها. وصلت الخلافة الأموية في الأندلس إلى حدود فرنسا واستقر حالها طوال ثلاثة قرون؛ بالرغم من محاولات الخلافة العباسية في بغداد تدمير الأمويين في الأندلس والتآمر مع ملوك الفرنجة عسكرياً ضدهم. ابن الأمير الثامن للأمويين وهو الحكم بن عبد الرحمن تزوج جارية افرنجية وأنجب منها ابنه هشام. عندما توفي الخليفة الحكم تولى مجلس إدارة شؤون البلاد لصغر سن الخليفة الوريث، وتحالف ابن عامر مع أم هشام وقضى على خصومه ثم احتجز هشام وسمى نفسه

الحاجب المنصور وأسس لأبنائه الحكم. بعد موت المنصور بدأ الانهيار عبر الخلافات والحروب الداخلية وإحراق مدينة الزهراء وجزء كبير من قرطبة. كانت خلافات على السلطة، حتى تهور وأعلن الوزير أبو الحزم بن جهور من قرطبة سقوط الدولة الأموية في الأندلس، فأعلن كل والٍ في ربوع الأندلس قيام دويلته؛ فيما عرف تاريخياً بدول الطوائف؛ التي أصبحت بسرعة تدفع الجزية للدولة المسيحية في شمال الأندلس بعد أن كانت هذه الدولة تدفع الجزية لقرطبة. تطورت الأمور إلى احتلال وتمدد الدولة المسيحية جنوباً على حساب المسلمين، وإلى تقاتلٍ ذاتيٍ بين دول الطوائف التي بلغ تعدادها آنذاك ٢٢ دويلة طائفية (أيضاً) واستقواء بعضهم على بعضهم الآخر بدعم من المسيحيين، ثم اشتراكهم مع دولة العدو في احتلال دول طائفية مجاورة. استمرت المأساة تدريجاً وعلى مدى حوالى أربعة قرون حتى سقطت آخر المعاقل في غرناطة وطرد الأندلسيون من بلادهم وانقرضوا وقُضي على دينهم نهائياً هناك.

الدول العربية الى الآن تتفاخر بإقامة علاقات مع الولايات المتحدة الأميركية التي تقف خلف الدمار في كل المنطقة العربية، والعديد من هذه الدول الـ٢٢ أصبحت تجاهر بعلاقاتها مع إسرائيل التي تحتل فلسطين وتضطهد وتهجر وتقتل شعباً عربياً وتغزو الدول العربية المجاورة، بل هناك دول خليجية تطور علاقاتها الاستراتيجية مع إسرائيل لتوفر لها غطاءً نووياً ضد الجارة الإسلامية الإيرانية غير النووية. هناك دول عربية أقامت علاقات واتفاقيات سلام مع إسرائيل وأخرى تمارس أفعالاً لخدمة العدوة إسرائيل حتى قبل عقد اتفاقيات سلام معها بينما تحاصر جيرانها العرب وتدك بالطائرات دولاً عربية أخرى فقيرة. وكانت دول معروفة بالاسم قد مولت حركات التخريب لدول ومجتمعات عربية أخرى وأدت سياستها هذه إلى

قتل وتشريد الملايين ونسف البنى التحتية لدول عدة. أكثر من دولة عربية أصبحت معرضة الآن عملياً للتقسيم الداخلي الطائفي وإقامة دويلات طائفية.. انقراض العرب والمسلمين بشكلٍ أو آخر، يبدو مسألة وقت فقط، أقنع حميد نفسه وأفاق على صوت أنيتا وما يدور في المحاضرة.

«فهمت من حديثك.». قالت أنيتا للبروفيسور «..أن الغنى رديف للتطور، كما الفقر رديف للتخلف.. لكن يمكنني تسمية العديد من الدول الغنية جداً وأيضاً المتخلفة جداً في المجال الاجتماعي والبنية السياسية والقانونية، وأخص تحديداً الدول النفطية العربية والأفريقية واللاتينية، مثل ليبيا ودول الخليج ونيجيريا وفنزويلا.». كان يورجن يستمع إليها مؤيداً بحركات من رأسه، فأنصتت لتستوضح رأي البروفيسور.

«نعم؛ يجب علي القول: دول غنية متطورة، دول فقيرة متخلفة، ودول مالية متخلفة مثل التي ذكرتِ، بل هناك دول فقيرة متطورة في المجال الاجتماعي. تخلف أصحاب المال سببه سوء الإدارة، فهذه الأموال المستخرجة من الأرض بتكنولوجيا غربية تذهب إلى جيوب الأسر الحاكمة، وإلى الفساد، والحروب. حتى في حالات بناء تعليم وبنية تحتية فإن فلسفة البلد متخلفة مرتبطة بالدين، بل بالتفسير السلبي للدين، وتسير بهدي من التقاليد والأعراف البالية، ولهذا؛ لا يمكنها التقدم والتطور في الصميم، وأكثر ما يمكنها عمله هو قشرة خارجية لا تمس الفكر والقانون وحقوق الإنسان وأسس الديمقراطية». صمت يورجن قليلاً وسأل طلابه إذا كان لدى بعضهم مثال معاكس يؤيد نظريته هذه.. ثم أذن للطالب الياباني، اتسوشي، بالحديث.

«كانت النرويج دولة أوروبية فقيرة من حيث مصادر المال تعتمد على صيد السمك. لم يكن لديها مداخيل من السياحة نظراً إلى طقسها

البارد الممطر على مدار العام، وطبيعتها جبلية صعبة، وكانت من الدول التي تصدر سكانها إلى الولايات المتحدة. في مطلع السبعينيات اكتشف النفط في مياهها الإقليمية، أي بعد عقود طويلة من اكتشاف النفط في الشرق الأوسط. الآن تعتبر النرويج أفضل دولة في العالم من حيث تقديم الخدمات الطبية والاجتماعية والتعليمية لشعبها، وهي مهتمة برعاية الفنون، واللاجئين، والسلام العالمي». سكت اتسوشي، وأضاف يورجن أن سبب الاستفادة العامة من أموال النفط هو ديمقراطية الحكم، ابتعاد النرويج عن التعصب الديني والعرقي كما يرى الجميع في سياستها تجاه اللاجئين، على عكس دولٍ مثل نيجيريا وفنزويلا ودول الخليج... وغيرها.

«المفارقة.». قال حميد بعد أن طلب الإذن بالتعليق «..أن مهندساً عراقياً ،فاروق قاسم، تعلم في بريطانيا، هو الذي وضع الخطة المستقبلية للنهوض بصناعة النفط النرويجية، وقدم مقترحاتٍ لملكية الدولة للنفط، وأقيمت شركة ستات أويل عام ١٩٧٢، ووضع قانون ينظم العمل في النفط ومداخيله». صمت حميد وشعر بانتظار المستمعين لاستنتاجٍ أو إضافة، فاستطرد: «بعد أربعة عقود؛ اعتلت النرويج قمة التطور والتسامح والسلام والرخاء، بينما بعد ثمانية عقود من اكتشاف النفط الخليجي؛ تعيش المنطقة حروباً متنوعةً متتاليةً، وانقساماتٍ طائفيةً، وعنصريةً واستغلالاً للعمال الأجانب، واضطهاداً فاضحاً لحقوق الإناث الخليجيات، وسوء توزيع صارخاً للثروة، سواء داخل البلد الواحد، أو على مستوى الأمة العربية والمسلمين. سوء الإدارة هذا ناتج من غياب الديمقراطية التي يمكنها أن تؤدي إلى التغيير والتبديل نحو الأفضل في الأنظمة والمجتمعات، والاعتماد بدلاً من ذلك على أساليب حكم عائلية مرتكزة على تفسيرات دينية تضمن الاستمرار على هذا المنوال قروناً أخرى».

«إذاً؛ من لا يتطور يخمُل وينقرض، ونرى منذ عقود عملية زحفٍ بشريٍ من الدول الفقيرة إلى الغنية، والزاحفون من بين الفقراء – وهم الأقوى جسدياً في مجتمعهم – وممن لديهم تفوقٌ ثقافي ونوعي على البقية، وبالتالي؛ الباقون هناك هم أفقر الفقراء وأضعف الضعفاء، وستتولى المجاعة أمرهم.». قال يورجن وأكمل بعد أن نظر إلى ساعة معصمه: «..حتى الأغنياء ممن لا يتطورون سيواجهون مصير الانقراض، ولكن بصخب وحروب وقلاقل، وربما في فترةٍ أطول من انقراض الفقراء. انقراض الأمم لا يعني –بالضرورة– زوالها الفعلي، ولكن هبوطها المتواصل مقارنة بأمم أخرى ثابتة أو صاعدة في تطورها».

كثرت التعليقات من الطلاب وتجاوب يورجن معهم عبر تأييد بعضهم وتوضيح لآخرين، لكن حميد أخذ يبحث عن أسباب إضافية، غير انعدام الديمقراطية، للتخلف العربي. قال في نفسه: العرب ظاهرة صوتية منذ القدم، يظنون أن الكلام يخلق الحقائق، وأن الإقناع يُعيد الحقوق، ولم يركزوا في مجتمعاتهم على أهمية العمل والإنجاز والجد والكد، بل «كوعوا» إلى جانب إبلهم وحافظوا على كل تقاليد الماضي. اليوم؛ لديهم قنواتٌ فضائيةٌ كان في الإمكان استغلالها للتنوير، ولكن معظمها ديني بحت، والبعض منها تروج السحر والشعوذة؛ مما يذكر بأوروبا القرنين الخامس والسادس عشر حين انتشرت ثقافة السحرة والمشعوذين. قلةٌ من هذه المحطات ذات منهج إخباري ولكنها موجهة من قبل دولتها وممولتها، وبالتالي؛ تبث الثقافة نفسها لخدمة أهدافٍ محددةٍ على قمتها استمرار الوضع على حاله. النتيجة أن الرأي العام يقع تحت تسلط الدين والتقاليد والحكم، وذلك عبر الثقافة والممارسة والتشريع والقانون، حتى لو وجد، أو كثر الحديث عن الفساد وضرورة الدمقرطة.

أحجم حميد عن إبداء فكرةٍ جالت في خاطره مع نهاية المحاضرة: أراد سؤال الطلاب: ماذا سيفعلون لو فازوا بمليون يورو. خطر ذلك له حين شاهد دعايات على محطات ترفيه عربية تجمع القروش من المتصلين بها للفوز بالجوائز. تسأل الدعاية أناساً في الشارع: ماذا سيفعلون لو فازوا بمليون دولار. كل الإجابات كانت أنانية يريد أصحابها شراء سيارة أو يخت أو فيلا أو الكف عن العمل، لم يقل أي منهم إنه سيمنح جزءًا من الجائزة لمنظمةٍ خيريةٍ مثلاً. كان حميد على ثقة أن الطلاب هنا أو غيرهم في الدول المتحضرة سيعطون إجاباتٍ غير أنانيةٍ تنم عن ارتباطٍ مجتمعي.

مُعادَلَةُ الحِرمانِ والتَخَلُف

برغم انتهاء سامي وزملائه من كتابة بحثهم حول (واقع الجنس عند العرب) كمثال إذا ما كان الأمر لدى العرب وراثياً أو تربوياً منصاعاً للغرائز وخاضعاً لمؤثرات المحيط، واصلت المعلومات الإضافية طريقها إليه. أحدث ما وصله من قصص تدور حول انتشار موضة تجميل الرحم. قصتان استمع إليهما من طلاب عرب وصلوا إلى هايدلبرج حديثاً، واحدة من غزة والأخرى من جدة، وعندما بحث في الإنترنت وجد الأمر واسع الانتشار في الدول العربية، وهناك إعلانات ترشد إلى العيادات، وأفلامٌ قصيرةٌ تشرح الطريقة، واكتشف وجود العديد من أنواع التجميل هذه، بعضها لتضييق قناة المهبل، وأخرى لتصغير أو تكبير الأشفار، وهناك تصغير أو تكبير خارجي عبر شفط أو ضخ الدهون، أو تبييض العانة وغير ذلك مما لم يكن يخطر على باله.

مستشيخ ومنقبة دخلا عند طبيب تجميل في غزة. اتضح للطبيب فوراً أن الزيارة تخص المنقبة، فسأل الذكر إذا كانت مرافقته ابنته أو زوجته؛ فهو لا يرى منها ما يمكنه من التخمين. «هذه أم الأولاد يا دكتور». قال الذكر، وسمع ترحيباً مقتضباً من الطبيب الذي أخذ ينتظر سماع الشكوى الطبية وينقل ناظريه بين الرجل وزوجته ليحثهما على الكلام.

«خير إن شاء الله». قال الطبيب يستحثهما على الدخول في الموضوع.

«إن شاء الله خير..». قال الذكر ومسح على ذقنه وأنزل يده على لحيته.

«..نريدك أن تجمل أم الأولاد». كاد الطبيب يسأله عن حكمة تجميل ما تحت النقاب، لكنه واصل صمته. «.. يعني ترجعلها اياه زي بتاع البيبي». حك الطبيب ذقنه بإصبعه وحاول سبر غور ما يقصده الزوج.

«هل لديها عيبٌ خلقي يحتاج إلى إصلاح». سؤال عام من الطبيب للاستيضاح.

«لا.. لا.. الحمد لله؛ لا عيوب خلقية، لكنها ولدت ثلاثة أطفال ولم يعد شكل الرحم كما كان. أريدك أن تنفخه ليبدو مرة أخرى مثل البيبي».

«هل أنتِ متيقنة أنه بحاجة إلى التجميل؟» سأل الطبيب المنقبة كونها المعنية بالعملية ومخاطرها، وتسارعت خواطره حول الموقف، وضرورة الكشف قبل الموافقة، وهل ستكشف عن وجهها أم عن فرجها فقط.. أفاق على صوت الذكر يؤكد ضرورة العملية. «تفضلي على السرير للكشف. إذا كانت هناك ضرورة طبية أم لا». نظر الزوج إلى الطبيب وقد اشتم بعض التردد من حديثه مع زوجته. نادى الطبيب مساعدته وطلب منها أن تساعد الزوجة خلف الستارة على خلع ملابسها للكشف على الرحم. «ابق أنت جالساً هنا». قال الطبيب بحزم للزوج الذي تأهب لمرافقته خلف الستارة. «لا توجد عندك تشوهات، أحياناً تتسع قناة المهبل وتتصل بفتحة الشرج؛ وذلك خطر، لكن وضعك جيد.». انكمشت قليلاً وهو يتفحص قناتها بإصبعين «..وقناة المهبل طبيعية بالنسبة إلى وضعك».

«جوزي يقول إن المنطقة المحيطة هابطة وغير منفوخة زي زمان». قالت بعد أن رفعت نقابها ليرى فمها ويفهم ما تقوله. شاهد وجهاً جميلاً، فعاد ونظر بين ساقيها؛ ولم يرَ ما يعيب جسدها. «الأشفار وضعها طبيعي ومحيط الرحم طري نسبياً.». أخبرها وهو يتحسس ما تحت عانتها من الخارج: «.. يمكن حقن هذه المنطقة بالشحوم، لكن بصراحة؛ لا أرى

ضرورةً لذلك، والقرار لكِ». قال بصوت مرتفع وهو ينسحب تاركاً الزوجة مع مساعدته لترتدي ملابسها وتعيد نقابها.

قصة جدة مختلفة قليلاً؛ إذ ذهبت الزوجة وحدها إلى طبيبة تجميل وأخبرتها أنها تريد «تزبيط المقدمة». نظرت الطبيبة إلى أنفها؛ لكن الزوجة أخبرتها أن العملية المطلوبة لنفخ المقدمة، وليس الأنف. فهمت الطبيبة أن الزائرة تُطلق على الرحم اسم «المقدمة» كونه على الجهة الأخرى من المؤخرة؛ التي تكثر عمليات تجميلها بالتصغير أو التكبير. أسمعتها الطبيبة كلاماً لم تتوقعه، وشتمتها قبل أن تغادر العيادة.

بعد التدقيق والتمحيص؛ وتأكد سامي من انتشار العيادات لهذا الغرض في العالم العربي، قرر ألا يُطلع زملاءه على هذه المعلومات حتى لا يُقال إن العرب يستغلون جسم الأنثى كسلعة؛ خصوصاً وأن هذه التهمة جاهزة عند الغرب منذ أجيال، وحتى لا تزداد الاتهامات بأنهم أصبحوا يبحثون عن الفروج «البيبي» وما قد تؤدي إليه التخيلات بعد ذلك. لم يتحدث أيضاً عن هذه التفاصيل؛ التي وصلته والأخرى التي طالعها، مع صديقته ماريون. بحث في قرارة نفسه: لماذا يُخفي عنها مثل هذه العموميات التي لا تعنيه، فتذكر شأن جارتهم أريكا؛ التي اتهمته بالبصبصة عليها في الدش، فإذا عرفت ماريون بشيوع حب العرب للرحم «البيبي» فقد يتسرب الشك إليها أنه أيضاً يحب هذا الشيء والنظر إليه، وأن شكاية أريكا لم تكن غيرة منها على علاقتهما. كما أقنعها. لم يُطلع ماريون أيضاً على الرسالة النصية التي وصلته من ابنة عمه أزهار تعاتبه على عزمه فسخ الخطبة بينهما. معرفة ماريون بذلك سيتبعها عتاب لماذا لم يخبرها أنه كان خاطباً، وربما يعطيها أملاً أنه عازم على خطبتها هي، ولا يعتزم البحث عن فتاةٍ سوريةٍ ممن حضرن إلى ألمانيا، كما أقنع نفسه. في رسالتها لم توافق أزهار على قراره،

وطالبته بمراجعة نفسه والعدول عن فكرة فسخ الخطبة، وأنها مستعدة للسفر إليه أو انتظاره ريثما يُنهي دراسته.

قرر أن ينتزع نفسه من أفكاره ويعود لمراجعة الخطوط الرئيسة في البحث قبل أن يرسله إلى زملائه، فيطبع كلٌ منهم بعض النسخ الورقية لتوزيعها على كل طلاب المحاضرة. المجتمعات التي تعاني الحرمان الجنسي وتشتد فيها المراقبة والعقاب؛ هي البلدان التي ينتشر فيها اللواط بين الذكور؛ وتحديداً بين بالغين وغلمان أصغر منهم، وينتشر فيها السحاق بين الإناث، وذلك نظراً إلى صعوبة الرقابة على هذه الأنواع من الممارسة وسهولة التعايش معها حين تُطل برأسها. راجع سامي الأمثلة المتوافرة في الدول العربية بكثافة؛ وخصوصاً الخليجية حيث اللواط والسحاق يمارسان بأشكالٍ شبه طبيعية، ثم تذكر ما لم يُذكر في البحث من انتشار نكح الحيوانات في الماضي وخصوصاً لدى القرويين الأكثر حرماناً والأشد وقوعاً تحت رقابة الآخرين، فهي لا تعترض ولا تحبل ولا تُفشي السر.

أيد سامي ظنونه الذاتية، وهو يراجع هذا الجزء من البحث؛ بأن معظم الرجال العرب قد مارسوا الجنس بشكلٍ غير طبيعي؛ سواء مع غلمان أو مثليين أو أرحام أو حيوانات، ولم يكن متيقناً فيما يخص الإناث بعضهن مع بعض، لكنه مقتنع أن الكثير منهن عرفن الجنس ومارسنه أو مورس معهن بشكلٍ أو آخر قبل الزواج.

لماذا ينتشر الحرمان الجنسي والمنع والرقابة لدى العرب؟ وهل توجد علاقة بين هذا الواقع والتخلف المجتمعي الذي يزداد بشكلٍ متسارع؟ تحت هذا البند من البحث ذُكر أن العرب قبل الإسلام كانوا منفتحين جنسياً، وبعد الإسلام تم تنظيم هذا الإجراء بتعدد الزيجات، وفرصة الطلاق لإعادة التزاوج مع آخرين، وكان هناك تسامح واضح في نكح

صغيرات السن أيضاً. هذا الوضع الجديد استمر طويلاً، ووجدت تفسيرات لنكح (ما ملكت أيمانكم) وسادت طبائع بيوت الحريم لمن يستطيع، ومنّى الفقراءُ الصالحون أنفسهم بما ينتظرهم في الجنة من «حور العين» وغلمانٍ يخدمونهم، ولم يتوانَ غير الصالحين في الاستعجال بهذه المتعة قبل الموت. في ظل ذلك الزمن المنفتح جنسياً؛ تقدم العرب والمسلمون في الفتوحات العسكرية، وفي العلوم والتسامح واكتساب حضارةٍ من الأقوام السابقة، وتطويرها ومنحها لغير المسلمين الذين استفادوا منها وأصبحوا بها في أوضاع أفضل منها. اختلف الحال حين تقدم الأصوليون في المجتمعات، وفرضوا رؤاهم حول الجنس وجسد المرأة الذي كان مادةً للشعراء وتحتفي به كتب التراث التي تنتصر للجمال أيضاً، فأصبحت الأنثى وجسدها من المحرمات، وقامت معركة وهمية متكررة قادتها السلفية والأصولية التي تجددت ولادتها، وانتشرت في دول الخليج، وتمددت بسرعة قوانين المنع والتحريم إلى بقية الدول العربية والإسلامية، وتم تصديرها بأموال النفط عبر العالم، وحملها الذين عملوا في دول الخليج وعادوا بها إلى بلدانهم. وأصبحت التفسيرات الأصولية للآيات القرآنية تجعل كل ما يتعلق بجسد المرأة عورةً وحراماً، وكأن السلف الصالح – على مدى قرون – كانوا زنادقة. تذكر سامي – وهو يراجع هذا الجزء – ما شاهده من صور وطالعه من معلوماتٍ تُظهر كبار شيوخ الأزهر وغيرهم من العلماء في الوطن العربي وهم يجلسون مع نسائهم وبناتهم البالغات؛ وذلك بدون أي حجابٍ أو تقييدٍ في اللبس؛ حتى ستينيات القرن الماضي، الأمر الذي ستدور حوله المعارك لو حصل الآن. تعاظم تأثير الأصوليين بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧، ومن ثم بعد الثورة الإسلامية في إيران التي أرعبت الخليج، وأطلق الحكام يد الأصوليين ليضبطوا المجتمع من

الثورة المحتملة، ومن ثم تشكلت الحركات الجهادية لمقاومة السوفييت في أفغانستان، فعظمت سطوة الأصولية. المهم؛ قال سامي لذاته، إن كل المنع والقمع والتحريم لم يردع العرب عن متابعة الجنس والاهتمام به من كل الأجيال؛ سواء على الإنترنت، أو غيره، بما فيه الآن من انتشار لموضة تجميل الرحم.

يقول الأصوليون والمحافظون إن انتشار مشاهدة الجنس على الإنترنت هو نتيجة لمؤامرة غربية: «أهل الغرب، بقيمهم الفاسدة وأمراضهم الخبيثة ومبادئهم الذميمة لم يكتفوا بإفشاء الرذائل والمنكرات ودواعي غضب الجبار بينهم ولكن تمادى بهم الحال إلى محاولة تصدير هذه المصائب والأمراض إلى دول الإسلام».. كما يقول خبير إنترنت سعودي يجهل بالطبع أن المجتمع العربي والإسلامي لديه تاريخٌ عريقٌ في التصوير اللفظي والغزل والأدب الجنسي. هو لا يعرف عن كتاب «ألف ليلة» ولا مؤلفات الشيوخ والعلماء العديدة؛ التي تدور حول الجنس وممارسته وأوصافه بأساليب لا تجرؤ أية دار نشر الآن على إنتاج مثلها، إذ كانت تهدف إلى الإثارة قبل اختراع الإنترنت بقرون. الحقيقة؛ أن الجنس غريزةٌ تشغل الإنسان والحيوان، وهي قديمةٌ ولا تغادر العقل الباطن. إذا نظمتها عبر التربية واحترام الاختلاط؛ فسيقل الانشغال الذهني بها، وإذا كبتها ومنعتها وحرمتها بالفصل بين الجنسين؛ سيصبح العقل أكثر انشغالاً بها من غيرها من الأمور التي تؤدي إلى رقي المجتمعات. الصمت عن قضيةٍ تشغل كل شخصٍ في عمر البلوغ هو نفاقٌ لا يمكن تدليسه بأقاويل دينيةٍ؛ لأن القمع يؤدي إلى مظاهر مرضية في المجتمع المتظاهر بالمحافظة والعفة.. مظاهر مثل اللواط والسُحاق والعادة السرية، وتعمق الكذب والرياء والانفصام إلى درجة أن الذين يمارسون هذه المظاهر أو مارسوها

قبل الزواج؛ تجدهم يؤيدون في العلن استمرار عوامل الحرمان الجنسي ومواصلة التربية المتخلفة للأجيال الصاعدة، بينما هم يتمتعون بزوجة أو أكثر. عدم تطوير التربية هو أهم أعمدة التخلف، ويجمد الوضع من جيلٍ إلى آخر.

النتيجة التي توصل إليها البحث في هذا الصدد؛ أن الحرمان الجنسي هو أحد مظاهر التخلف وأن السبب في هذا التخلف المتنوع، علميٌ واجتماعيٌ واقتصاديٌ وسياسيٌ... وغيره، يعود إلى سيطرة الفكر الديني الأصولي المعشش في رؤوس الجميع؛ من خلال التربية المتوارثة، والذي يضخ أفكاراً أصبحت مترسخةً ولا يوجد من يقاومها، وكلها أفكارٌ وممارساتٌ تعيد إنتاج التخلف.

حوْلَ النص المُقَدس

«أود في البداية التأكيد أن الدين ليس غريزة، وأن الجينات المتوارثة تلعب دوراً في تكوين الشخصية ولكنها ليست العامل الرئيس لتكوين الشخصية، وأن التخلف نابع من جمود التربية». كان من الواضح أن البروفيسور يريد توجيه النقاش لشمولية أوسع من خاصية الجنس التي هي عنوان البحث. «تعرفون أن العقل قابل للانقياد عبر التربية والإقناع، وأنه أيضاً مؤهل للتمرد والانطلاق إذا توافرت الفرص والمناخ. المعضلة أن الدين يعتبر النص الإلهي والديني المتوارث نصاً مقدساً غير قابل للنقد، وبالتالي على العقل أن يتكيف ويتقبل هذا المقدس كما هو. إذاً هذا الجنس البشري أو ذاك لا يتوارث التدين أو الصفات الشخصية سواء إيجابية أو سلبية، وإنما تتكون الأفكار والشخصية من تأثرها بالبيئة المحيطة والتربية العائلية والتعليم الرسمي، والثقافة السائدة إلى درجة يمكن أن يشترك فيها كبار السن مع الصبيان في ممارسة أفعال وتبني أفكار واحدة وهذا غير منطقي. الجينات تؤهل للاستعداد لاكتساب صفات معينة، لكن الاكتئاب مثلاً أو الثقة بالنفس تعود إلى عوامل نفسية يمر بها الإنسان، ولذلك؛ فهي مختلفة من إنسان إلى آخر. لاحظوا أن الإيمان والعقيدة يتناسخان ويتكرران في المجتمعات التي لا تزال تعتبر النص مقدساً وتريد حل مشكلاتها بالتمسك بهذا النص، وتقنع نفسها بأن الماضي كان أفضل نظراً للإيمان المطلق، وفي الحقيقة؛ أن الماضي لم يكن أفضل، ولكن التربية والتكرار كفيلان بإقناع العقل بوجود أشياء لم توجد». توقف البروفيسور

واستعاد أمام طلابه تفاصيل تجربة علمية أثبتت أن العقل يتبنى ذكريات لم توجد قط، ولكنها زرعت تدريجاً عبر إبلاغ الشخص أنه فعل كذا وكان هناك، ثم تُضاف تفاصيل جديدة وهمية كل مرة حتى يصدق العقل أنها ذكريات فعلية، وإذا كانت هذه الأقاويل متعلقة بالدين فإنها تصبح ضمن المقدس. «هل يوجد لدى أي منكم ما يؤيد ما قلته؟» تجاوب حميد، فسمح له البروفيسور بالحديث.

«النص المقدس في الإسلام هو القرآن، وهناك أيضاً قداسة عالية للأحاديث المتواردة عن الرسول، والعظات والخطب من الخلفاء الراشدين أصحاب الرسول. حتى الآن هناك آيات في القرآن غير متفق على تفسيرها، وآيات تطور تفسيرها الآن بغير ما تم تفسيره من الأولين. أما الأحاديث فمعظمها مؤلف لاحقاً وذلك باتفاق العلماء، والبعض منها مشكوك في صحته، وقلة منها فقط يمكن الحسم النظري أنها صدرت عن الرسول. من هنا تأتي الخلافات في تفسير الإسلام وتناحر طوائفه، ومطالبة السلفيين والأصوليين بالعودة إلى الماضي وتقديس تفسيرهم للنصوص. الوضع اليوم – وكما نرى – يتجلى في الخلاف بين دول الخليج، فبعضها يؤيد الإخوان المسلمين، والطرف الآخر يؤيد الوهابية. الفكر الإخواني والفكر الوهابي يحتقران الأديان الأخرى ويعتبران الإسلام هو الحل لكل المشاكل، وكونك مسلماً يعني أنك أفضل من الآخرين حتى لو كانت مجتمعاتهم في القمة ومجتمعات المسلمين في قعر التخلف. التطرف الإسلامي يعود إلى قوة أموال النفط على نشر وتصدير تصورهم المتخلف للدين، نشروه محلياً بالقوة والعنف، ثم عربياً وإسلامياً بالإنفاق المالي، ووصل إلى المسلمين في أوروبا، وإلى تربية الإخوان والوهابية ينتسب مفجرو القنابل وداهسو الناس في شوارع مدن أوروبا».

«نعم.». قال البروفيسور: «كانت أوروبـا كذلك، واضطهدت الطوائف المسيحية كل من شكك في النصوص المقدسة المتضاربة، وتقاتلت الطوائف في حروب إبادة، ولم تتقدم الأمم الأوروبية إلا بعد فصل الدين عن الدولة، وفجأة ندر زوار الكنائس وممارسو الطقوس، وازدهرت الحريات ومعها الاقتصاد والمجتمع. حين تقول إن الدين هو الدولة؛ فأنت تأذن لتفسير الحاكم للمقدس بأن يتحكم في كل شيء قانوني ومعاشي، تُعدم بفتوى، ويتحكم الشرع في شكل ولون ملابسك وتسريحة شعرك». تحرك البروفيسور وعاد يوزع نظراته على الجميع ويشرح: «الأنظمة الدينية الثلاثة الموحدة، أو حتى ما سبقها، تطورت وجابهت الانتقاد والاستفسار باللجوء إلى دعم نظريات مثل المقدس والقداسة، ادعاء المعجزات وترسيخ الاقتناع بها، الإيمان واتهام كل منتقد بعقله بضعف إيمانه، القدرة الإلهية كن فيكون حتى وإن لم تفهم أنت أي شيء؛ كون هذا فوق مستوى عقلك المحدود في مواجهة القدرة الإلهية. الأنظمة الدينية تقدم أيضاً نظام حياة يبدو متكاملاً كبناء جسر هندسي يتم تلقينك إياه منذ الصغر من والديك اللذين تلقياه من والديهما ولا مجال للتغيير حتى لجزئية واحدة وإلا سينهار الجسر الذي تسير عليه فوق وادٍ سحيق. هكذا يسهل على المتدينين والمؤمنين، وهم نصف سكان الأرض، تصديق السحر والمعجزات والغيبيات الملقنة لهم، ويرفض الواحد منهم أية فكرة قد تؤدي إلى زعزعة هيكلية الجسر. عندما تُعرض على العقل معلومة فإنه يستعيد المعلومات السابقة المخزنة فيه منذ الصغر، فإذا لم تتعارض هذه المعلومة مع المخزون يتم تقبلها، وإذا تعارضت وهددت تناغم المخزون تُرفض، فالعقل لا يعمل حسب المعقول وإنما يبحث عن تطابق المطروح الجديد مع المخزون... ترون طبعاً أن العقل غير معني

بالحقيقة المطلقة وإنما يعمل على الحفظ والتكيف والبقاء، ولذلك؛ يُقر بالغيبيات دون دليل على وجودها إذ يكفيه الاقتناع بما تم تخزينه فيه منذ الصغر كون هذه الغيبيات ساعدت على حمايته ويمكنها أيضاً إبادته. إذا كررت محاولات إقناع متدين لنسف جسره، أو حاول متدين كسب علماني إلى الإيمان، قد تتولد روح العداء والانقسام إلى فريقين نحن وهم. العقل يتقبل الآراء بمقياس تكلفتها عليه، فإن كانت مناسبة لمخزونه؛ يتم تقبلها كقيمة إضافية ومكسب معرفي، أما إذا تطلبت نزع أجزاء من الجسر؛ فيتم رفضها واعتبارها سلبية وخطرة. مثلاً إذا أوردت اكتشافاً علمياً حديثاً وقلت لمتدين إن هذا يؤيد فكرة وجود الملائكة فإنه سيتقبل الفكرة بدون نقاش وستعزز إيمانه، ولو أوردت له تفسيراً علمياً حديثاً يثبت الكلام المقدس فإنه يتقبله ويتغاضى عن جزئية أن المؤمنين السابقين كانوا على خطأ في تفسيرهم السابق لذلك الكلام المقدس، لأنك تقدم له العلم في خدمة المقدس. كما أن هناك سبباً نفسياً للمقاومة، فلو اقتربت من إقناع متدين عمره ثلاثون عاماً بتغيير رؤاه، ستراه يرتد عنك إلى اقتناعه الأول لأنك تثبت له هدر عمره في اقتناع خاطئ وتخيفه من تبني اقتناعات جديدة لا يعرف كيف ستؤثر فيه وفي شبكة علاقاته...».

شعر سامي باهتزاز هاتفه الذكي الصامت في جيبه «إنها رسالة واتساب». تردد في ذهنه «ربما من ابنة عمك». قال له ذهنه مجدداً وسرح به عن المحاضرة: «إذا كانت الرسالة منها، وهي كذلك، فإنها تصر على عدم فسخ الخطبة، وربما تخبرك أنها ستحضر إليك، إلى غرفتك مع ماريون. ماذا ستفعل؟ ماذا ستقول؟ لا يمكنك التهرب أكثر من ساعات، ومن ثم؛ عليك فتح الرسالة، وبعد بعض من الوقت؛ عليك الرد. لا، لا يمكن مطالعة الرسالة وإزالة العلامات الزرقاء وإعادتها إلى اللون الأسود

فتدعي أنك لم تطلع على الرسالة، وبالتالي؛ تتهرب من الرد، وإلى متى ستتهرب؟ فقد تجدها تدق باب الغرفة». حاول سامي للحظات التخلص من أفكاره والتركيز على المحاضرة، لكن هاتفه اهتز مرة أخرى. «لقد أعطتك بقدر ما تستطيع حتى الآن وأنت تخونها وتكذب عليها. منحتك الحب والثقة ولم تحرمك من شفتيها ولبست لك القميص بدون حمالات صدر لتتحسس ما كنتما تسميانه «رماناتها» وأنت الآن تنكح ماريون ولا تخبرها عن خطيبتك، وتريد خيانتها هي الأخرى والزواج من سورية في ألمانيا، وما أدراك ما فعلت هذه السورية مع الآخرين؟؟ وها أنت تتلصص أثناء المحاضرة على صدر أنيتا التي تكن لك الاحتقار، ولكنك مثل الكلب الهائج، بل أنت خنزير بعقلية داعشية». كيف لا أتمكن من إسكات ذهني عن مخاطبتي؟ هل هذا شيء صحي؟ أخاطب نفسي وكأننا اثنان؟ هل هذه نقاشات بين أقسام الدماغ؟ لا بأس. قال لذهنه على أمل أن يعود إلى تركيزه: سأفتح الرسالة بعد نهاية المحاضرة.

«..كما في فرق كرة القدم.». استمع سامي للبروفيسور، وكان قد فقد الصلة بما قيل قبل ذلك».. أيضاً لو راقبتم جماعة من الإخوة والأصدقاء يلعبون ورق الكوتشينة. ستجدهم ينقسمون فريقين وتظهر عليهم علامات التعصب ثم تعليقات شبه عدائية واستهزاء بعضهم ببعض. إنها ظاهرة «هم» و«نحن» روح تعاون بين الفريق الواحد وعداء للفريق الآخر وبذل المجهود للفوز. هذه الطباع مغروسة لدينا منذ القدم، حين كان الإنسان يخرج للصيد الجماعي وتوزيع الغنيمة وتوفير الحماية والصراع مع الجماعات الأخرى لتوفير الحاجة للبقاء، ولا تزال هذه الخاصية تتحكم في سير حياتنا». ختم البروفيسور حديثه ونظر إلى ساعته وأخبر الطلاب بإمكانية السؤال أو الإضافات، ثم أذن لإستيرا بالحديث.

«شاهدت بالأمس خبراً على التلفاز يقول إن أربعين بالمائة من الرجال في جنوب أفريقيا يتركون زوجاتهم وأولادهم بدون أي دعم، أي ينكحون ويخلفون ويمضون في سبيلهم إلى تجربة أخرى. وأعرف أيضاً أن البعض في نيجيريا يقدمون أولادهم للتبني في بريطانيا بعد أن يكونوا قد حرضوهم على ما سيجري لاحقاً، أي بعد أن يعيشوا في كنف عائلة بريطانية سنوات ويتعلموا، يتركونها ويعودون إلى أهلهم.. كيف نفسر هذه الظواهر؟».

طلب البروفيسور من زملاء إستيرا التطوع للإجابة، وسمح لديتلف بالحديث: «نسب الطلاق في بعض الدول الغربية تفوق الأربعين بالمائة، لكن الدولة تضمن للمطلقات النفقة من الوالد أو رعاية الوزارة المختصة. هذه الخاصية ربما لها علاقة بموضوعنا من ناحية حب الذكر لضمان استمرار جيناته. البعض من أنواع الحيوانات تطبق هذه النظرية، تنجب وتبحث عن إناث أخرى، ولكن هناك حيوانات مخلصة للزوجة وللأبناء وتتفانى في حمايتها وإطعامها وتعليمها الطيران أو الصيد». تبسم ديتلف وأكمل: «..وحتى نبقى في مملكة الحيوان فأسلوب إرسال الأبناء للتبني ثم استعادتهم له شبيه تماماً بين الطيور. طائر الكوكو يضع بيضة في عش عصفور آخر، فتفقس قبل بقية البيض ويلقي الفرخ بالبيض الآخر على الأرض ويستقل برعاية الوالدين اللذين لا ينتبهان لحقيقة أن الفرخ أصبح أكبر حجماً منهما معاً حتى يطير ويستقل عنهما ويعود مع بقية الكوكو لتكرار هذه الخدعة ضد العصافير الأخرى». عم الضحك القاعة، وقال البروفيسور أن لا تعليق إضافياً لديه، وسأل طلابه إذا كان لدى بعضهم تساؤلات.

«بالطبع لا يمكن لبحث كهذا أن يُلم بكل جوانب القضية، وبالتالي؛ ما خطر لي يمكن اعتباره إضافة». لم يكن حميد يريد إظهار حديثه كنقد

لنواقص في البحث ولهذا بدا كمن يعتذر عما سيضيف: «البحث تطرق إلى تعدد الزوجات لدى المسلمين كتعويض جنسي عما سبق الإسلام من حرية جنسية، وقد يكون هذا السبب صحيحاً إلى درجة كبيرة، لكن تلك الفترة كانت فيها حروب وموت للذكور ورغبة في إنجاب المزيد من المحاربين. لقد ذكر القرآن مرة واحدة إمكانية تعدد الزوجات واشترط على من سيفعل ذلك أن يعدل بين الزوجات وقال القرآن إن الزوج لن يعدل، وبالتالي لا يمكن هنا القول إن تعدد الزوجات فرض على المسلم. في الكتب السماوية الأسبق من القرآن ورد تعدد الزوجات مراراً وتكراراً، ولكنه هنا أيضاً لم يكن فرضاً على المؤمنين. الآن لدينا دول إسلامية لا تحرم تعدد الزوجات، ودول غير إسلامية لم تلغ الدين ولكنها أبعدته عن السياسة وفرضت احترام القانون الذي يُحرم تعدد الزوجات. القانون في الدول العلمانية يحمي الصغار جنسياً ويعاقب المغتصبين، وفي الدول الإسلامية هناك تشريعات تشجع على تزويج المغتصبة لمغتصبها وإعفائه من العقاب. الدول الإسلامية تفكر بشكل أصولي بمعنى ما سمح به الله في ظرف معين يبقى ثابتاً حتى لو تغير الظرف، بينما المسيحية بأطيافها ألغت تعدد الزوجات بغياب الظرف المؤيد لها وعادت إلى الأصل الذي يجمع بين كل الديانات وهو خلق الله لآدم واحد وحواء واحدة بالرغم مما سيؤدي إليه ذلك موقتاً من زواج الإخوة.. كان بوسع الله – لو أراد – تعدد الزوجات أن يخلق آدم واحداً وبضع إناث، أو ذكرين وأنثيين فتحل عدة مشاكل للجينات التي نعانيها إلى الآن، ولكنه خلق آدم واحداً وحواء واحدة مما يمكن تفسيره برغبته في عدم تعدد الزوجات في الظروف الطبيعية.».. اعتذر حميد عن الإطالة وأضاف: «المسلمون الذين يعددون الزوجات لا يهدفون إلى تغطية نقص مجتمعي في الإنجاب، ولا يريدون الستر على

العوانس والأرامل ورعاية الأيتام في المجتمع، فكل زوجة إضافية تكون عذراء أصغر من السابقة حتى يصل سن الزوجات الجدد إلى سن بناته من الزوجة الأولى». انتهى وقت المحاضرة فاختتم حميد حديثه بالقول: «ولكل منكم حرية الاستنتاج».

«أريد منك خدمة أكاديمية إذا وجدت الوقت». قال البروفيسور لحميد بعد أن غادرا قاعة المحاضرات والتقيا في الممر. «بحث عن أسباب كراهية معظم العرب والمسلمين للعلمانية». أكمل يورجن لحميد الذي تقبل الفكرة فوراً واستمع إلى أستاذه يفسر هذا الطلب بحاجته إلى هذا الموضوع ليتوسع فيه ويضمه إلى كتاب جديد له قيد الإعداد. سار الاثنان معاً باتجاه مكتب الأستاذ، وعندما وصلا إلى الباب استأذن حميد بالانصراف لكن يورجن دعاه للدخول معه. «لقد اقترب موعد اختيارك لمادة بحث الماجستير، هل لديك أفكار محددة؟».

«الكثير منها.». قال حميد «..لكن لم أستقر بعد على رأي. هل لديك اقتراح محدد؟».

«سأفكر لك في شيء يفيدك لاحقاً في حياتك العملية وليس لنيل فقط الشهادة، هل تفكر في العودة إلى المنطقة العربية التي يهرب منها الجميع؟ فكر ماذا ستفعل بعد الشهادة وأخبرني لأنصحك بما تكتب». قال يورجن وشغل غلاية الماء الكهربائية معلناً أنه سيصنع قهوة، فوقف حميد ليتولى الأمر ويستمع إلى أفكار أستاذه: «تعرف أن الإنجيل والتوراة قد تم تحريفهما عن النص الأصلي المقدس، وهناك من يقول أصلاً ويستشهد بالنصوص، أن وصايا موسى هي الشيء الوحيد الذي نزل من السماء والبقية كتبها الأحبار تباعاً، فهل يوجد في الإسلام شيء مشابه؟» سأل يورجن معتذراً أنه لم يتعمق في الدراسات الإسلامية.

«نعم القرآن يؤكد أن الكتابين تم تحريفهما، ولدى المسلمين اقتناع تام بذلك، وهذا أحد مبررات نزول الرسالة على محمد لتكون آخر الرسالات وتصحح ما تم تزييفه».

«لكن؛ لو فكرت أنت بموضوعية، هل يمكن تأكيد أن النص القرآني هو بالضبط ما نزل من الوحي؟» تردد حميد ولم يجب بشكل فوري، فالأستاذ ربما يعرف بعض الأشياء من التاريخ ويريد اختبار أمانته العلمية البحثية. «هل كل الأشياء الهامة قبيل وأثناء نزول الرسالة سُجلت ومتفق عليها؟ هل كان هناك متعلمون، ولغة مكتوبة، وأشياء يُكتب عليها، وهل حفظ القرآن وخط أثناء حياة الرسول وسجلت كل آية في حينها؟ عليك التفكير من هذا المنطلق، ولا تظن أنني أشير عليك بكتابة بحث الماجستير في هذا الموضوع».

«نعم عرف العرب الكتابة في الجاهلية، واشتهروا بتسجيل تاريخهم شعراً يحفظونه ويتناقلونه. لكن الحرف العربي كان بدون تنقيط، ولو أردت اليوم قراءة نص غير منقط لما فهمته مطلقاً فنصف الأحرف منقطة، وسيتم الخلط بين عشرة أزواج متشابهة في الرسم ويفرقها وجود ومكان النقطة عليها، لذلك حدثت خلافات في القراءة في عهد الخليفة الثالث حين كثر المسلمون عموماً وغير العرب منهم، واختلفت القراءات والمعاني خارج مدينة الرسول. حُسم الأمر بشكل أولي في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب على يد العالم أبي الأسود الدؤلي الذي نقط اللغة، ثم بشكل أفضل على يد الخليل الفراهيدي الذي توفي عام ١٧٠ للهجرة». تناول حميد فنجان القهوة وشكر أستاذه وأكمل: «كان الرسول أمياً كما يُقال، وهناك ثلاث مجموعات من الشخصيات البارزة شاركوا في تسجيل الوحي. المجموعة الأولى في مكة قبل الهجرة، ثم مجموعة أخرى في المدينة،

ومجموعة ثالثة بعد الصلح مع قريش وفتح مكة. شهدت مرحلة التسجيل في المدينة حادثة ارتداد لأحد كتاب الوحي الذي أعاد على الرسول نصاً فيه خطأ ولم يكتشفه الرسول، فكرر هذا فعلته ليختبر، ثم هرب إلى مكة وقص هناك ما حدث معه، وأصبح لاحقاً أول قائد بحري إسلامي وانتصر في معركة ذات الصواري ضد الأسطول البيزنطي».

«إذاً؛ تم تدوينه كل ما نزل مع الوحي وبدون تنقيط وعلى مدى زمن حياة الرسول؟»..

«صحيح على مدى ٢٣ عاماً منذ نزول الوحي لأول مرة حتى وفاة الرسول، وبالتالي؛ كتب على مواد متنوعة وحفظ في أماكن متعددة حتى تولى عثمان الخلافة فجمع كل الرقاع وسجلها في قرآن واحد غير منقط تحقق من صحته من بقوا من صحابة الرسول وأعدم عثمان كل السجلات القديمة».

«هل يحتوي القرآن على مواد ونصوص مشتركة مع المسيحية واليهودية؟» سأل يورجن طالبه بنبرة حيادية.

«نعم؛ القرآن يعترف بكل الأنبياء السابقين ويجلهم، ويروي الكثير من قصص الأولين نفسها ولكن بصياغات مختلفة ومهذبة.».. رفع يورجن حاجبيه مستفسراً، فأكمل حميد: «..نعم؛ نصوص التوراة تتحدث عن أنبياء وافقوا على منح زوجاتهم لآخرين مقابل أغنام وأموال، وتتحدث عن حوادث زنى في بيوت الأنبياء بتفصيل فاضح، كما تعرف. هذه الروايات صيغت بشكل مهذب في القرآن وأنكرت حدوث الفاحشة. القرآن يا أستاذ نزلت بعض نصوصه كاستجابة لاستفسارات يومية حياتية كانت تُطرح من الرعية على الرسول فيسأل عنها ربه، ويحمل جبريل الإجابات. وبعض النصوص تنزل لتصحح أخطاء مارسها الرسول أو الرعية، أو لتشجب

أفعالاً قام بها الكفار، وتنذر الأعداء وتطمئن المسلمين، هذا إلى جانب قصص الأولين».

«ماذا عن تضارب النصوص والقصص المتوارثة في فترة الرسالة ولكن بدون علاقة لها بالنص القرآني.. هل يمكنك التفكير في بعض الأشياء؟».

«نعم.». قال حميد وقرر أن يبقى في العموميات والمؤكد منها.

«.. هناك تضارب في قصة زواج محمد وخديجة، زوجته الأولى قبل نزول الوحي. قيل إنها هي التي خطبته، وقيل العكس. وقيل إنها كانت متزوجة مرتين قبله ولها أولاد من تلك الزيجات، وقيل العكس».

«إذا كانا تزوجا قبل الإسلام، فمن عقد لهما؟» تسارع تفكير حميد وشك أن أستاذه يسوقه إلى استنتاج محدد.

«تزوجا كما كان يتزوج أهل الجاهلية، هناك طلب طرف للآخر واتفاق على مهر، وأعتقد أن الطلاق كان سهلاً تلك الأيام». تروى حميد لكن يورجن واصل انتظار سماع بقية الإجابة وارتشف من فنجان قهوته، فأكمل حميد: «ابن عم خديجة كان نصرانياً وهو القس ورقة بن نوفل، وكان صديقاً لأبي طالب، عم الرسول، وكان يكتب العربية والعبرية. عندما نزل الوحي لأول مرة على محمد وعاد إلى البيت مرتعباً أخذته خديجة عند ابن عمها وقص عليه ما حدث، فبشره ورقة بأن هذا هو الناموس الذي تحدث لموسى وعيسى».

«يعني ثمة احتمال أن خديجة كانت نصرانية، أو أقله ابن عمها هو الذي عقد لهما الزواج، هل يوجد شيء من هذا القبيل في النصوص ولو بشكل متضارب؟».

«لم أطلع على شيء مشابه». قال حميد وهو ينظر إلى فنجان القهوة حتى لا يكتشف أستاذ علم الاجتماع الكذب في عينيه، فهو ملم جداً بكل

ما قيل في العلاقة بين ورقة بن نوفل والنبي محمد. «لكن هناك تضارب في الآراء حول الأحاديث المنسوبة إلى الرسول». قال حميد ليغير مجرى النقاش، وأكمل حديثه بينما يورجن منصت إليه: «الأحاديث تم تداولها شفهياً بعد موت الرسول وتولي أبي بكر الخلافة، وكان عمر بن الخطاب يشجب المتحدثين ويفرق شمل التجمعات التي تستمع إلى رواة الحديث، وعندما تولى الخلافة منع سفرهم خارج المدينة، لكنهم انتشروا بعد اغتياله.». شرح حميد عن أبي هريرة وعبد الله بن عباس وكثرة ما نسب إليهما وأن الأحاديث سُجلت بعد مئات السنين من تناقل شفهي، وانتشرت فيها الصبغة السياسية والأيديولوجية مع كل عهد يقضي على من سبقه ويريد تعزيز موقعه بأقوال تنسب إلى الرسول نفسه.

«يعني إذا إردنا تنقية الأحاديث؛ علينا شطب كل حديث له علاقة بالإدارة والحكم والأيديولوجيا، وبالتالي؛ الاحتفاظ بالأحاديث الأخلاقية والتعبدية فقط». تساءل يورجن فأيده حميد وقال: الأفضل عدم اعتماد أي حديث والاكتفاء بالنص المقدس، وأضاف إن عبد الله بن عباس وأبا هريرة مشكوك في ذمتهما المالية، الأول اتهم من ابن عمه علي بن أبي طالب حين ولاه البصرة، والآخر اتهم من عمر بن الخطاب الذي عزله عن ولاية البحرين. «هاتان قصتان طويلتان مشوقتان سأقصهما عليك في مرة أخرى». قال حميد حين شاهد أستاذه يحمل فنجاني القهوة، فأخذهما منه وذهب إلى الحمام فغسلهما وودع يورجن وغادر مكتبه تحت وقع كلمات الشكر، والاتفاق على لقاء آخر أطول.

سِر التعاطفِ الأُنثَوِي

«هل يوجد معنى لهذه الحياة؟ هل يجب أن يكون لها معنى؟ هل نعيش في انتظار الموت؟ أيجب كسب أشياء لنقول إننا نجحنا في الحياة؟ هل الإنجاب غنيمة؟ وإذا لم نحسن تربية من ننجب، هل يبقى هذا إنجازاً؟ لماذا علي أن أتزوج؟» كانت هذه الأسئلة تترجّح في ذهن سامي بينما الحافلة تتهادى به عائداً من الجامعة إلى منطقة سكنه. لقد طالع رسالة ابنة العم، واغتم لغمها، فهرب ذهنُه عن إرادته. «لماذا أتزوج وأتحمل مسؤوليات إعالة عائلة؟ هل مهم فعلاً الحفاظ على جيناتي بشكل متناقص حتى تنتهي بعد جيلين، وما فائدة أبي من جيناته التي أورثني إياها؟ يمكنني التمتع بالحياة من دون عائلة وزواج، الجنس متوافر ومتجدد هنا أو في أي مكان آخر، ودخلي من أي عمل سيكون أوفر لو لم تكن عندي عائلة أنفق عليها، وحين أكبُر، هل ستنفعني الزوجة والأولاد أكثر مما قد تنفعني الدولة وبيوت العجزة؟ نعم ها قد اتضحت الصورة، نعيش لنراقب أنفسنا ونحن نموت، وربما هذا ما يدفع الناس للتمسك بحبال الدين لضمان كرسي في الحياة الآخرة؛ فهم لا يتصورون أنهم يموتون ويذوبون وينتهي أمرهم إلى النسيان إذا لم يبدعوا ويتذكرهم الناس لأعمالهم. الجميع يعتقدون أنهم على درجة من الأهمية ولا يمكن أن يضيعوا إلى الأبد بعد الموت». توقفت الحافلة، واستجمع شتات ذهنه وهو يغادرها. «سأكتب لها أنني لا أريد الزواج مطلقاً، ولهذا رأيت أن أمنحها فرصة مبكرة للتعرف

إلى غيري وتشجيعها على التجاوب مع من يطلب يدها، لن يكون هذا مقنعاً تماماً ولكنه قد يخفف عنها حين تعرف أنني السبب وليس هي، وأن غيرها لم تنجح في الفوز بقلبي، وهذا قد يُرضي غرورها الطبيعي». تجاوب مع تحيات من يلتقون به قرب البناية السكنية، من يحييه بهزة رأس يعطيه مثلها ومن يرفع يده يجيبه بمثلها حتى دخل المصعد. «لكن؛ هل فعلاً لا أريد الزواج، أليس هذا كذباً عليها؟ قد تنساه وتحمد الله إذا تزوجت من هو أحسن مني، وقد تكرهني قناطير إذا تزوجت قبلها». كانت هناك بعض الخلايا الذهنية تحاول إيصال رسالة إليه، وكان يصدها بالادعاء أنه لم يقرر بعد الزواج من أي بديلٍ لابنة عمه، وبالتالي؛ فهو لا يكذب.

«يومك خير.». قابلته ماريون بتحية بعد الظهر وابتسامة عريضة وعينين سعيدتين عندما دخل المطبخ فوجدها فجأة أمامه. لم يكن يتوقع أو يفكر في رؤيتها هنا، وضبطت هي على الفور مزاجه من ملامح وجهه.. «ماذا حدث؟ تبدو وكأنك في عالم آخر..!».

«أهلي يريدون تزويجي ابنة عمي، كما هي العادة عندنا.». توقف عن الحديث مستهجناً ما خرج من فمه، وتجمدت هي في مكانها بينما تراجع رأسها إلى الوراء قليلاً وارتفع حاجباها ومطت شفتيها، ثم استعادت رباطة جأشها بسرعة وواصلت الاستماع، وواصل هو الكذب والتلعثم: «أخبرت والدي أن ينسى الأمر ولكن ابنة العم تظن – على ما يبدو – أنني من حقها، وكتبت لي ترفض فكرة.. رفضي.». قال لها بعد أن كاد يخبرها: رفض الخطيبة فسخ الاتفاق. لم تعلق ماريون بل حاولت امتصاص الصدمة واستيعاب ما يقول. ملامحه تقول لها إنه لا يخبرها الحقيقة كاملة. «سأكتب لها مباشرة هذه المرة وبوضوح أن تنسى الموضوع».

«لا تتسرع، فهي قريبتك، ولا يجب أن تجرح مشاعرها، وربما لا

ذنب لها.» نظرت إليه لتستوضح تأثير كلامها فيه. «كم عمرها؟» أخبرها أنها أصغر منه بسنتين، «وكم عاماً عشتما متقاربين؟» أجابها أن الجيرة كانت طوال الطفولة والصبا حتى وقعت الحرب، وحضر هو إلى ألمانيا وانضمت هي مع بعض عائلتها إلى والدهم في الإمارات العربية. «وزواج ابنة العم شيء طبيعي عندكم، أليس كذلك؟» أجابها بإيحاء من رأسه ولم يستوعب إلى الآن ماذا تريد أن تصل إليه من هذه الأسئلة التي تلقيها تباعاً بنبرة طبيعية، لقد ظن أنها ستنشرح للخبر ولو في سرها أقله، ولكنها تتصرف بتعقل وتفهم وكأن الأمر لا يعنيها. «ولعبتما جنسياً في فترة الصبا حتى افترقتما.». قالت بحيادية وأكملت على الفور: «..ولهذا؛ بالطبع هي تظن أنك من نصيبها، فقد أعطتك أعز ما تملك، وأنا متيقنة أنك أعطيتها وعوداً آنذاك لتنال منها جنسياً.. مثل أي حبيبين هنا، مع فارق أن الانفصال عن الحبيب هنا سهل، وعندكم أشبه بكارثة للفتاة». أعطته التبرير حتى لا يعترض على محتوى كلامها.

«يبدو أن اللعب الجنسي بين الأقارب أو الجيران في الصبا، كما «البوي فرند» في الغرب، لكن عندنا سري وعندكم علني وبرعاية الأهل.». شعر أنه وقع في الفخ، فقد أقر ضمنياً بعلاقةٍ جنسية مع ابنة العم، وبالتالي؛ اعترف أنه قد وعدها بالزواج لينال منها. حسب مقولة ماريون. هل يدافع عن نفسه فيخبرها أنهما كانا مخطوبين.. لم يعجبه أن يقر لها بذلك؛ إذ ستعرف فوراً أن كذبه لا نهاية له، قرر تغيير الموضوع: «هل لعب معك أحد أقاربك أو أرحامك جنسياً وأنت صغيرة؟»..

«لا؛ ولم تكن هناك حاجة لذلك، فلا يوجد محرومون بين أهلي ومعارفي. كان لدي صديق في المدرسة ونخرج معاً ونتبادل القبل، ثم صادقت غيره بعد سن السادسة عشرة». صمتت وفهم من كلامها أنها

مارست الجنس بعد السن القانونية أثناء المرحلة الدراسية، وهو يعرف أنها صادقت شاباً آخر في المرحلة الجامعية قبل أن يتعرف هو إليها. «أقاربنا من أبناء العمومة بمثابة إخوة لنا، ولا توجد ضرورة لأي منا بالتهجم الجنسي على الآخر.».. صمتت وشعرت بتفاعلات تنضج في رأسها. «هل معك صورة لابنة عمك؟» تلعثم ولم يجزم بجواب. «اطلب منها أن ترسل لك صورة حديثة.. هل تتحدث حبيبتك الإنكليزية؟» ارتبك من معاني أسئلتها وصمتا. شعر بأنه سيخرج من الجنة، وشعرت هي بتعاطف مع تلك الأنثى المخدوعة من حبيبها.

ذهب إلى غرفتهما، ولحقت به بعد قليل. حديثهما أصبح مثل تخاطب ماكنات، رسمياً بارداً، حاول كسر الجليد بلمسات يدوية فأخبرته أن عادتها الشهرية جاءت قبل الموعد.. كذبة بيضاء ولكنها مقدمة لقرار بدأ يتبلور في مخيلتها وسيتطلب إجراءات عدة، وتأهيلاً نفسياً. عليها إيجاد غرفة منفردة لها في بيت الطلاب والتنازل عن حقها في نصف الغرفة المزدوجة، فهي لا تستطيع وقف التعامل الجنسي معه والاستمرار في البقاء في غرفة واحدة. ستعامله ببرودة لتترك له فرصة التكيف مع قرارها الذي سيكون عليه اكتشافه ذاتياً خلال يومين، فالأمر بالنسبة إليها لا يحتاج إلى شروحات. تعجبت من توالي القرارات الذاتية في عقلها قبل أن تعرف بماذا يريد أن يجيب ابنة عمه، كما أنها لا تعرف قريبته هذه. «كان لدي علاقات قبل التعرف إليه، فلماذا لا يكون له علاقات قد انتهت.». سألت نفسها، وأجابت بأن علاقاتها كانت واضحة وقد انتهت كل مرة بانفصال سلمي ولم يتم فيها خداع كما يبدو في علاقته هو بابنة عمه.

شعر ببرودتها وظن بقدرته على إرضائها تدريجاً، فقصة ابنة عمه يجب ألَّا تثيرها، فهي لا تعرفها، كما أنه هو الذي أخبرها وعليها أن

تستنتج أنه لم يكن يخادعها، وقد أخبرها أصلاً بعزمه على إنهاء العلاقة. «هل أخبرها أن علاقتنا هي أحد أسباب قطع العلاقة بابنة عمي؟» تردد في إجابة نفسه إذا ما كان عليه التورط في المزيد من الكذب. لقد فشل في اكتشاف سر التعاطف الأنثوي عبر المحيطات. المخ الأنثوي تم تشكيله عبر التطور ليقوم بالمشاركة والتعاطف، بينما المخ الذكوري يتفوق في ممارسة الوظائف التنظيمية والتحليلية، وذلك حسب د. سيمون من جامعة كمبريدج وأبحاثه ومراقبته التي استمرت عشرين عاماً. الأنثى يمكنها تفهم مشاعر الآخرين بشكل أفضل من الذكر ولديها قدرات على قراءة الأفكار والمشاعر، ولهذا فردود أفعالها العاطفية قوية وأسلوبها في التعبير عن المشاعر ساخن، وعندما لا يشعر الآخرون بسبب ردود فعلها يظنون أنها تتصرف بدوافع الغيرة وليس من قراءتها للأفكار وحدسها. كلاهما لا يعرفان – على الأرجح – هذه التفاصيل، ولكن ماريون أخذت تفكر وتتصرف بالسليقة وفق هذا المنظور؛ وكأن صدمة كهربائية أيقظتها لتتعرف إلى مشاعره وتطالع أفكاره وتكتشف مراوغته، فتتخلى عنه، وتتمنى أن يؤدي موقفها هذا لعودته إلى الأنثى المخدوعة. لم تشعر بغيرة قط، لكنها أخذت تؤنب نفسها على التقصير في اكتشاف طباع سامي.

كان عليه أن يعرف، من الكتب التي طالعها ضمن المحاضرة مع البروفيسور يورجن، بوجود بعض الفوارق في كيفية تصرف عقل الأنثى عن الذكر فهرمون التستوستيرون الذكوري متوافر لدى الرجل بنسبة أكبر من هرمون الإستروجين الأكثر وفرة بدوره لدى الأنثى، وأن كلاً من الهرمونين يدفع لتصرفات مختلفة، بخواص ذكورية أو أنثوية. هرمون الذكورة يساعد صاحبه على الإصرار والإنتاج والمنافسة وحب السيطرة والتملك والعنف، وبالطبع؛ خوض المغامرة إلى جانب الرغبة في توفير الحماية ورعاية الغير.

أما هرمون الأنوثة فيدفع إلى الحب والتواصل والتفهم واللين والحنان والضعف وتقبل الرعاية من الغير وتحسس مشاعر الآخرين واستيعاب أوضح للغة الجسد. كلا الهرمونين متوفران لدى الذكر والأنثى ولكن بنسب مختلفة مثل ٦٠ بالمائة إلى ٤٠ بالمائة. عندما يتصرف الذكر بعطف وحنان وفقاً لصفات الأنثى فإن نسبة هرمون الأنوثة ترتفع في جسده لا إراديا ويكتسب تلك الصفات بمرور الزمن. كذلك الأنثى التي تهتم بتطبيق صفات الذكور يرتفع عندها هرمون الذكورة وتتراجع صفات أنوثتها.

الماضي الجميل..!

التخلف يعود إلى التجمد الفكري والثقافي لدى الفرد، وبالتالي يعم العائلة والمجتمع بمقدار نسبة المتخلفين في هذا المجتمع. حتى تواجه التخلف ستحتاج إلى الأخذ بنظم تعليم ديناميكية، ونظام سياسي مساعد، والحد من المؤثرات السلبية في عقل الإنسان، مثل العادات والتقاليد الرجعية، وتسلط الدين على المجتمع. الدول التي توفر متطلبات التقدم وتحتفظ بتسلط الدين لا تخرج من حالة التخلف، لأنها تبقى مرتبطة بالماضي، ولأن قوى الشد العكسي فيها قوية ومؤثرة وتمسك بزمام الحكم. مجموعة الدول التي وقعت مواثيق الأمم المتحدة ولم تطبقها ولم تدمجها في قوانينها هي دول دينية متخلفة تؤمن بتضارب هذه المواثيق مع تفسيرها للنصوص الدينية. بالرغم من توافر الأموال بكثرة لدى بعض هذه الدول؛ فهي لا تخصص أي جزء يذكر من ميزانيتها للثقافة أو البحث العلمي، وتهدر أموالها على تصدير الحروب والخراب، أو الرشوة لتعميم وفرض رؤيتها الدينية على الجيران والعالم، ولذلك؛ تعيش في تناقض مجتمعي شديد بين شراء واستعمال منتجات التقدم والعلم وبين الحفاظ على عقلية غيبية في مجتمع استهلاكي غير منتج لمتطلبات الاكتفاء الذاتي أو الكماليات، ولولا اكتشاف النفط؛ لاستمرت هذه البلدان في ممارسة التسول أو الغزو والنهب.

كان رأفت يراجع ما كتبه من أفكار حسب طلب أعضاء لجنة مناصرة

فلسطين لتحديد الأسباب الرئيسة للتخلف في الشرق الأوسط، وأحياناً يضيف ملاحظات جديدة، إذ لم تعد الأوضاع جلية، وغالباً لا تستجيب للتشريح النظري اليساري.

إذا أعطيت المتدينين أي دور في التشريع وتسيير المجتمع؛ فسوف يطالبون بالمزيد تباعاً ويعودون إلى التفسيرات القديمة التي تمنحهم حق السلطة بالكامل. الحل هو النضال من أجل تجريد الدين من أية سلطة دنيوية على غرار ما حدث مع الدين المسيحي في أوروبا الغربية عبر قرون من الحروب والنضال ضد سلطة الكنيسة حتى تم فرض تداول أنظمة حكم ديمقراطية. الدول المسيحية التي فشلت في فصل الدين عن الدولة، في أميركا اللاتينية مثلاً، تعيش حالة تخلف مشابهة للدول الإسلامية التي لا تؤمن بمبدأ تداول الحكم، ولكنها تمارس سلطة متوارثة تدعي الارتكاز على خلفية ربانية أو تفسير ديني موائم لها.

بعض أنظمة الحكم العربية تعتمد على ادعاء الانتماء إلى سلالة النبي محمد، وبعضها يعتمد على تفسير خاص للنصوص المقدسة، وغيرها تطبق شرائع قانونية مرتكزة على تفسيرات أصولية دينية، والدولة الوحيدة الممارسة للعملية الانتخابية ،لبنان، تطبق نظام المحاصصة الطائفية لحماية كل التفسيرات الدينية ومنحها دوراً في الحكم. كل هذه الدول تقيد الحريات والإبداع وتقنن أنظمتها للرقابة على الثقافة، وخصوصاً رقابة مثلث الممنوعات: الجنس والدين والسياسة، إلى درجة يفرض فيها الفنانون والكتاب رقابة ذاتية لينجوا من المنع لمسرحياتهم وكتبهم ومقالاتهم، وإلا فالعقاب بانتظارهم من المنع والسجن وحتى التكفير.

كل المنادين بشعار أن الإسلام هو الحل، وأيضاً الذين لا يعارضون هذه الأطروحة، وربما معظم المسلمين، يعتقدون أن الماضي أجمل وأعدل،

وبالتالي؛ أفضل من الحاضر، وحتى نصل إلى المستقبل علينا العودة إلى الماضي. هذه الفكرة تم زرعها في رؤوس الناس؛ حتى أصبحت غير قابلة للنقاش، ويستشهد أصحابها بعدالة بعض الخلفاء الراشدين، وبتطور الحياة في الأندلس الإسلامية، وبالفتوحات. لكن لا يوجد من المؤيدين من يناقش تفاصيل أية حقبة من الماضي. فعلى سبيل المثال: الخلافات والحروب بدأت في يوم موت النبي محمد. اختلف الصحابة علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب على من سيخلف النبي. ثم وقعت حروب الردة، وبعد موت خليفة النبي الأول، أبي بكر؛ عاد علي ليطالب بالخلافة ولكن الخليفة المُحتضر أوصى بها لعمر بدون شورى. عندما اغتيل عمر؛ نصب مجلس شورى واختير عثمان بن عفان الذي تآمر عليه مسلمون واغتالوه في بيته ونصبوا علياً بن أبي طالب بدلاً منه. هنا حدث الخلاف الأكبر ووقعت المعارك التي قضت على نصف جيش المسلمين في الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية. أسس الأخير الدولة الأموية التي دامت قرناً من الزمان كحكم توارثي ملكي متسلط على الشعب. الثورة العباسية ذبحت الأمويين ونبشت قبورهم واعتبر أبو جعفر المنصور نفسه وسيطاً لله على الأرض. كل الذين تبعوه قلدوه بشكل أفظع وكان أئمة السلاطين يفسرون النصوص بما يناسب السلطان، واستنبطوا أحاديث مغلوطةً تُقر بقدسية طاعة الرعية للراعي مهما فعل، فعقابه إن أخطأ عند الله ورسوله فقط في الآخرة. تقبلت الشعوب هذا التفسير ورضخت للحكام الذين تطور بهم الأمر إلى انعدام الثقة بالشعب المطيع فجلبوا العبيد والمماليك وبنوا بهم قوات الحرس الخاص والجيوش. هؤلاء المماليك أصبحوا يُنصبون الخلفاء ويخلعونهم. منذ الخلاف بين صاحبي الرسول علي ومعاوية أصبحت الدول الإسلامية تقاتل بعضها بعضاً وتستعين

بالأجنبي، وتعددت وتنافست عواصم الخلافة حتى أفاق المسلمون على سفن أوروبا تدك شواطئهم وتغزو أراضيهـم، التي كانت قبل الإسلام أراضي تابعة لروما وبيزنطة. هكذا هُزمت الخلافة العثمانية كآخر خلافة إسلامية، واقتسمت دول أوروبا ورثتها، وبدأت فترة الاستعمار الأوروبي الذي ارتبط في الوجدان الإسلامي بالحروب الصليبية، فتم تشبيه كل ما هو أوروبي بصليبي ونشأت تدريجاً فكرة العودة إلى الأصول الإسلامية لهزم الاستعمار بعد أن زينوا الماضي بأمثلة منفصلة عن مجرى التاريخ.

السلفيون والأصوليون هم راديكاليون متخلفون في تفسير النصوص الدينية، اعتمدوا على تأويلات علماء السلاطين واختاروا نصوصاً خارجة عن سياقها وزمنها وقدسوها. وطالما الدين هو الحل والنص مقدس فلا مجال للانتقاد والتغيير حتى لا نضل الطريق الصواب، وهكذا فُرضت عمليات الذبح وموروست نظريات الغزو والسبي والنهب من قبل داعش التي يعشش فكرها هذا في رؤوس كل مؤيدي العودة إلى الماضي. داعش هي الماضي، وهي أضعف وأغبى من إنجاز أي عمل إنساني أو مفيد لقضية الإسلام، أو حتى الصمود أمام أية حفنة من الصليبيين بأسلحتهم التي ينتجونها في بلادهم. الفكر الداعشي المتماشي مع الأصوليين والسلفيين والراديكاليين هو نتاج مباشر لفكر حركة الإخوان المسلمين والتعاليم الوهابية، التي تُغرب المسلم عن عقله وعن محيطه وتغرس في عقول الناس أن الإسلام هو الحل، الإسلام هو الأفضل من المسيحية واليهودية، المسلمون أفضل من الخنازير الصليبيين، المسلم في أوروبا يعيش في بلاد حرب بين الخنازير وهو أفضل منهم وعليه عدم الاندماج في المجتمع؛ بل محاربتهم حتى يسلموا.

الداعشيون القدامى والحاليون والمستقبليون، هم ضد استعمال الذهن

والفكر والفلسفة وعلم المنطق والفضاء والعلوم، لن يمتنعوا عن استعمال منتجات العلم ولكنهم ضد منهج العلم الذي أنتجها. عظماء الفلاسفة المسلمين حُوربوا من الداعشيين، وفي مقدمتهم ابن رشد الذي طُرد من الأندلس وأحرقت كتبه. تلك الكتب تُرجمت قبل إحراقها إلى اللاتينية ودرست في جامعة باريس وكانت موادها هي الوقود لفصل أوروبا بين الدين والدولة، لذلك؛ وصفت الكنيسة الكاثوليكية ابن رشد بأبشع وأقبح الألفاظ. قبل ابن رشد وفي قرطبة أيضاً أثبت العالم البلنسي كروية الأرض، فحاربه فقهاء السلاطين وهاجمه الشاعر الشهير ابن عبد ربه حتى نُفي من الأندلس وكان هو الذي حدد القبلة للأندلسيين آنذاك.. قال عنه ابن عبد ربه مستغرباً ما أصبح حقائق الآن:

زعمت بهرام أو بيدخت يرزقنا ... لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
وقلت إن جميع الخلق في فلك ... بهم يحيط وفيهم يقسم الأجلا
والأرض كروية حف السماء بها ... فوقا وتحتا وصارت نقطةً مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها ... قد صار بينهما هذا وذا دولا
كما استمر ابن موسى في غوايته ... فوعر السهل حتى خلته جبلا
أبلغ معاوية المصغي لقولهما ... أني كفرت بما قالا وما فعلا

في الأندلس الإسلامية لم يمر عام بدون ظلم ومعارك ومؤامرات، ولم يأخذ أمير البيعة قبل خلافات وقتل للإخوة أو أبناء العم، وحتى أفضل فترات الأندلس في عهد الناصر لدين الله الذي وصف بالعصر الذهبي، ذبح الناصر أحد أولاده الذي تآمر عليه، وأحرقت كتب فلاسفة عظام.. إنها المؤامرات والسعي للكرسي والرقابة على النشر التي لم تغب عن أي عهد أو دولة أو إمارة إسلامية، ولا تزال قائمة إلى يومنا هذا.

سأعطيكم مثالاً على توافق العقل الداعشي الجديد والدواعش القدامى: في زمن الحاجب المنصور، الذي حكم الأندلس في زمن الخليفة

الطفل هشام ابن الحكم، كانت الغزوات عادة تمارس مرتين في العام لبلاد وممالك الشمال بغرض النهب والسبي والإرهاب والتأديب. كان للمنصور وزير اسمه ابن شهيد اشتهر في عمله وفي كتابة تاريخ الإسلام من سنة أربعين للهجرة حتى زمنه، ولأنه أصيب بالنقرس فقد اعتكف عن المشاركة في الغزو وصار يصلي جالساً، ولكنه شوهد يرقص في حفلات المنصور في مدينة الزاهرة بطرف قرطبة. نسي المنصور في إثر إحدى الغزوات أن يرسل إلى ابن شهيد بعضاً من المكاسب فكتب إليه راجياً ومذكراً أن الرسول كان يمنح بعض من لا يشاركون في الغزو شيئاً من الفيء:

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا ... بالنفس تقيك صرف الرزايا
ورسول الإله أسهم في الفي ... لمن لم يُخب فيها المطايا
فاجعلني (فديت) أنكح معروٍ ... فك وابعث بهن عِذاب الثنايا
هو عرف فإن تحول صهراً ... كان والله آية في البرايا

أرسل المنصور إليه عقيلة رومية ومعها ثلاث من جواريها وكتب لوزيره:

قد بعثنا بهن كشمس النهار ... في ثلاث من المهى أبكار
فاجتهد واتئد فإنك شيخ ... خفي الليل عن بياض النهار
صانك الله عن كلالك ... فيها فمن العار كلةُ المسمار

جاء رد ابن شهيد للمنصور يشكره ويطمئنه بأن مسماره لم يكل:

قد فضضنا ختام ذاك السوار ... واصطبغنا من النجيع الجاري
ونعمنا في ظل أنعم ليل ... ولهونا بالبدر ثم الدراري
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ... ذي مضاء عضب الظبي بتار
فاصطنعني فلست أجزيك كفراً ... واتخذني سيفاً على الكفار

هذه هي العقلية التي كسب بها الدواعش الجدد أنصارهم، نصيب من النهب والسبي والرقيق والاغتصاب، وهذه أدوات للإرهاب يضاف إليها ذبح وحرق للمسلمين الذين يعتبرهم الدواعش في صف الكفار إذا

لم يسارعوا لإعلان البيعة للبغدادي. هؤلاء وأنصارهم هم الذين يريدون العودة إلى ذلك الماضي ليصلوا به إلى المستقبل.

مع نهاية الخلافة العثمانية؛ دخلت الحواضر الإسلامية في عصر الاستعمار الأوروبـي، ومع نهاية الاستعمار؛ كانت أرض الخلافة قد تحولت إلى عدة دول نالت الاستقلال وأقامت البنى والإدارات والجيوش الشبيهة شكلاً بما لدى الدول الاستعمارية الأم. لكن ذلك بقي صورياً إذ روج الإسلاميون تكفير حكومات هذه الدول، فبقيت الإدارات والدساتير قشرة مهمشة بينما عادت الدول والمجتمعات بدفع إسلامي إلى مخزونها التقليدي القديم. العقلية القديمة إياها عاجزة بالطبع عن إدارة شؤون دولة حديثة. هنا وقع التناقض لأن الاستعمار أصبح لدى الجميع مضاداً للإسلام، والدول الحديثة المستقلة بنظام أوروبي صُورت بالضرورة وكأنها ضد الإسلام. لهذا فشلت الدول والإدارات في إظهار دور الدولة المستقلة.. هي شكلياً مثل أوروبا، ولكنها عملياً تعيش على مخزون الماضي، ولذلك ظهرت نتائج فوضوية مثل الفساد والمحسوبية وضعف دور الدولة. ثلث الناتج القومي للدول العربية منذ استقلالها منهوب عبر الفساد. في الشرق عموماً تسير الأمور حسب المحسوبية والقبلية، وهذا يحرم الإنسان من حقه الحكومي وحقوقه الإدارية والقانونية ويعطل مصالحه.. ويعيق البلد ويكسر نفوس الناس وينشر الظلم والاستكانة والاتكالية وبالتالي؛ الفوضى والفقر.الأفكار الجميلة والعملية التي تبناها فضلاء من عصر النهضة، لم تكن كافية بالرغم من كونها نظريات نيرة، ولكنها بقيت حبراً على ورق إذ لم تتوافر الظروف لاستقبالها من الجمهور وتطبيقها وحمايتها، وبدون تفهم ومشاركة للجمهور في نبذ التخلف ستزداد الأحوال سوءاً.

قد يُقال، وعن حق، إن بعض الدول الديمقراطية تكرر الأخطاء،

وتعتدي على المسالمين وينصاع شعوبها لحكامهم وهم يعرفون أنهم فاسدون، كما في حالة تكرار الإسرائيليين لانتخاب نتنياهو الفاسد رسمياً وقضائياً، أو مجرمو حرب، كما في تكرار انتخاب البريطانيين لتوني بلير الكاذب، أو حتى مجانين كما في حالة الرئيس الأميركي ترامب الذي أصبح جنونه وهبله مقبولاً عند العامة. الفارق بين هؤلاء وأمثالهم وبين السلاطين والخلفاء والملوك والأمراء، أن الفئة الأولى قابلة للإزالة سلمياً ولو بعد حين وعبر الصناديق، بينما الفئة الثانية لا تذهب عن الحكم إلا محمولة في صناديق. وهناك فوارق رئيسة أخرى بين شعوب دول الفئتين من حيث ضمان الحقوق والمساواة وتوافر الحريات العامة والخاصة.

مَسجِدُ الحُب والتسامُح

«ما رأيك في ما سمعتِ؟»

«طالما ما تقوله هو تحليل واستنتاج، فلا يمكن الجزم بصحته، لكن الملاحظة محقة فعلاً وتستدعي التدقيق، وربما هذا نتيجة لتشدد أجهزة الأمن فتوقفت العمليات الإرهابية. إذا وقعت عملية جديدة الآن في مكان لا ينتظر انتخابات فكل نظريتك ستذهب مع الريح». هكذا أجابت ماري عن سؤال حميد بعد أن سمعت وجهة نظره. كانا في الطريق من هايدلبرج إلى مدينة شفتسنجن الصغيرة القريبة حيث يقطن والداها اللذان، على ما يبدو، ألحّا على ماري أن تستضيف حميد في بيتهم يوم أحد، بدون مبيت. استجاب لطلبها وهو يظن أنها أبلغتهما عمق الصداقة التي لم تصل بينهما إلى مرحلة الجنس بعد تلك الليلة التي ناما فيها على سرير واحد من دون تماس، ولهذا ظن برغبة والديها التعرف إليه. في الحافلة التي استقلاها من هايدلبرج تحدث معها حميد عن أفكار راودته. قال إن العمليات الإرهابية في أميركا وبريطانيا وفرنسا حدثت قبيل انتخابات دورية عامة ثم توقفت، وبالتالي فهو يربط بين الأمرين ويظن أن الهدف من ذلك الإرهاب كان مساعدة قوى اليمين على الفوز، وبالتالي؛ فالاستنتاج يؤدي إلى دور قوى محلية في تنظيم وتنفيذ عمليات الطعن والدهس والتفجيرات وإطلاق النار التي أصابت مدن تلك الدول. «بعدين داعش أعلنت مسؤوليتها عن تلك العمليات». أضافت ماري بصوت منخفض بعد أن قربت فمها من أذن حميد حتى لا يسمع أي من ركاب الحافلة كلمة داعش.

«هؤلاء الأوباش يزجون بأنوفهم في كل شيء ويتبنون أي شيء، فلو تحدث الإعلام عن كسر ساق الجمل في حديقة حيوان فالدورف لأعلنوا مسؤوليتهم عن ذلك.». ضحكت ماري فقد كانت الحافلة تمر بحديقة الحيوان المذكورة التي يُشهرها جمل أبيض». تصوري لو نفذ الموساد الإسرائيلي عمليات إرهابية ببصمة داعشية فإن الأوباش سيتبنونها ويتسببون في المزيد من التغريب بين الإسلام والمسلمين وبين الغرب والمسيحيين. هذه سياسة تسير عليها الدعاية الصهيونية منذ عقود لإضفاء صبغة التطرف والتعصب والجهل على العرب والمسلمين، والأوباش في نظر العالم يمثلون الإسلام والمسلمين».

«أعتقد أنك سوف تنسجم في الحديث مع والدي».. تذكر حميد أنه ذاهب لتناول الغداء مع صديقته وأهلها، وتجدد ظنه أن والدها ربما يعتقد أنه مخنث كونه لم ينكح ابنته التي لم تكن لتعارض ذلك لو أقدم تلك الليلة، أو انتهز واحدة من الفرص العديدة التي أتيحت بعد ذلك.

«هل أخبرتِ والدك بأننا لم نمارس الجنس؟» همس في أذنها واستدارت الحافلة مع الطريق فلامست شفتاه أذنها.

«هذا أمر خاص ولا يسألني أهلي عنه.».

«لا تعطيني محاضرة، أنا لست أهلك.». قاطعها حميد وقد ضغط بيده على ركبتها حتى لا تؤرجحها الحافلة في هذا الطريق الريفي عبر القرى، وأكمل: «إذا كان والدك يعرف منك أو من أمك عن علاقتنا، فربما ظن أنني مخنث، وبالتالي؛ يضيع بقية اليوم في أقوال وأفعال وردود فعل لإثبات أنني لست مخنثاً». ضحكت ولم تحقق رغبته في إجابة شافية. «إذا أخبرت والدتك وطلبت منها عدم البوح لوالدك فاعلمي أن هذين العجوزين لا يخفي أحدهما عن الآخر شيئاً».

«والداي ليسا عجوزين، وسترى». ازدادت ظنونه أنها قد أبلغت أمها بعدم اكتمال علاقتهما. صمت وتحسس باقة الزهور التي حملها ليهديها إلى ربة المنزل.

لوهلة؛ ظن حميد أنه يعرف والد ماري، وجهه مألوف لديه. أعاد النظر إليه وهما يجلسان في صالون البيت، ولاحظ بيتر حيرة على وجه حميد، فتساءلت ملامحه. «هل تقابلنا في مكان ما قبل الآن؟» نطق حميد ليبرر نظراته، لكن بيتر تبسم ونفى بإشارة من رأسه. «هل أنت متأكد؟» اتسعت الابتسامة وتكرر النفي.

«لو تقابلنا قبل الآن لتذكرتك ولتذكرتني». توقف بيتر عن الحديث ورفع الكأس مرحباً بالضيف وارتشف الجميع من كؤوسهم بعضاً من المقبلات الروحية. «عندما كان وجهي أكثر شباباً يشبه وجه ماري الآن. أنت ترى الآن ما ستكون عليه ماري بعد ثلاثين عاماً، ولذلك تظن أنك قابلتني.. يبدو أنك تتأملها كثيراً». ضحك الجميع واحمرت وجنتا ماري التي وشت بحميد وقوله أن والدها عجوز حتى تغير موضوع الحديث ولا يضطر حميد للإجابة. «قالت ماري أنك فلسطيني.». وافقه حميد بإيماءة».. يعني أنت من الشعب الوحيد المحتل حتى الآن.. وأي احتلال..! نظرية دينية عنصرية ما كان يجب أن يؤيدها إلى الآن أي بلد أوروبـي.. ويا للأسف».

«ربما لا يريد حميد الحديث في السياسة، أنت أيضاً لم تبدِ اهتماماً منذ زمن بالسياسة». قالت والدة ماري التي تأمل في التعرّف إلى ظروف هميد، ولم تكف عن تأمله منذ وصوله بيتهم.

«اسمه حميد وليس هميد.». قال بيتر مشدداً على حرف الحاء الذي لا مثيل له بالألمانية بالرغم من تردد حرف الخاء في كل جملة تقريباً،

وأكمل: «..هل تظنين أنه من عشاق كرة القدم؟ حميد وكل أبناء قومه يفطرون ويتغدون ويتعشون سياسة، فهم يعملون من أجل التخلص من الاحتلال بطرائق شتى، لكن عدوهم قوي متغطرس، وقادتهم لا يعرفون اليسار من اليمين. أناس كهؤلاء يحترفون السياسة والنقد».

«حديث بيتر صحيح تماماً وأنا أحب السياسة ولذلك أدرسها.». وجه حميد حديثه إلى لورا، والدة ماري، وحتى لا يتحزب مع بيتر ضدها أضاف: «أخبرتني ماري أنك طبخت اليوم ساور كراوت مع هاكسة.. إنها أكلتي المفضلة، وحسب تقييمي لطيب الكعك الذي تجلبه ماري معها؛ فالأكلة ستكون رائعة». سألته لورا إذا كان الفلسطينيون يأكلون الساور كراوت، فشرح لها كيفية طهو الملفوف، ولكن العرب عموماً لا يخللون الملفوف. لم يتحدث عن الهكسة أو مثيلها، فهي قطعة لحم من فوق ركبة الخنزير تكون مخللة هي الأخرى وتطبخ مع الملفوف وورق الغار وحبوب الفلفل الأسود.

«الساور كراوت اختراع ألماني، حتى جيراننا الأوروبيون نادراً ما يأكلونه». كان حميد يعرف خلفية هذه الأكلة ولكنه أصغى إلى بيتر الذي قال إن طواقم السفن المدنية والحربية الألمانية كانوا يعانون صحياً إذا طالت الرحلة ونفد مخزون الخضار لديهم، وهكذا تم تخليل الملفوف وحمله في براميل على متن السفن، وأصبح أيضاً طعام طواقم الغواصات التي لا يمكنها حمل الكثير من الأغذية الطازجة ومضطرة إلى البقاء في البحار فترات طويلة.. «أعان الله تلك الطواقم». قال بيتر وضحك حميد الذي فهم قصد الرجل، فأضاف: «في البحر والهواء الطلق شيء، وتحت الماء في الغواصة شيء آخر». تعالى الضحك واقترحت لورا نزهة في حديقة القصر القديم بعد تناول الساور كراوت.

«يبدو أنك مطلع على مجريات الصراع العربي الإسرائيلي». قال حميد لبيتر بعد أن غادرت لورا وماري إلى المطبخ للاهتمام بالبطاطا التي ستقدم مع الطعام.

«في القرن، بل في الألفية المنصرمة كنت ناشطاً في المجال السياسي، وتابعت تطورات صراعكم مع اليهود». قال بيتر وقدم إلى حميد زجاجة من البيرة بعد فتح واحدة له. «وبعد أن أخبرتني ابنتي عنك، فكرت بعض الشيء في التطورات وتكون عندي اقتناع الرجل المراقب». اجترع من الزجاجة وواصل حميد الإنصات إلى هذا الرجل الذي تشع منه مظاهر الهدوء وراحة البال والثقة بالذات. «لن أكرر عليك ما تعرفه من التفاصيل والمبررات، لكن اسمح لي بتقديم استنتاج خياراتكم.». اجترع حميد كمية صغيرة من البيرة كونه لم يتناول فطوراً وتؤثر الكحوليات فيه بسرعة إذا لم تساندها أطعمة في المعدة».. يمكنكم الاستسلام وترك الإجراءات للمجتمع الدولي ليقرر ويتحمل المسؤولية. أو يمكنكم المطالبة بحل الدولة الواحدة لكم ولليهود. أو يمكنكم بالطبع تطوير مقاومة مدنية سلمية تماماً، أو اللجوء إلى خيار المقاومة المسلحة داخل حدود كل فلسطين». تفحص بيتر قسمات حميد فلم يعثر فيها على انبهار مما سمع، لكنها لم تعكس استهانة بما قيل، فأكمل بيتر بعد جرعة إضافية: «ما يعيق قضيتكم هو عقلية زعمائكم، فهم يعشقون المناصب ولذلك يقدمون تنازلات جغرافية وتاريخية لإعلان دويلة صغيرة يحكمونها ولن توصلكم إلى أي حل. زعماؤكم انسلخوا عن رؤية شعبكم التي زرعها اليهود في نفوسكم، وهي أن قوة الاحتلال تحتاج إلى قوة مضادة، وهذا بالطبع يلغي خياري المقاومة المدنية السلمية والحرب، فأنتم لا تؤمنون بالمقاومة السلمية ولا تريدون التعايش مع المحتل، ولكنكم فشلتم أيضاً في الحلول العسكرية

التي لا تتقنونها والتي تقدم لإسرائيل مبررات للعنف وتصعيده ضدكم». ظهر الآن إعجاب واحترام واضحان لبيتر، وخمن حميد أن الرجل صاحب مدارك ونظرة بعيدة وسعة صدر، وظن أن خبراته جمة ومتنوعة وعقله يقظ، فقد لخص تاريخ النضال الفلسطيني وعثراته في بضع جمل.

«دعني أخمن أنك كنت ناشطاً يسارياً وعلى علاقة مباشرة بالقضية الفلسطينية».

«كنت متابعاً ناشطاً، ولا أعتبر نفسي يسارياً.. لكن قضيتكم لا تحتاج إلى خبراء ليحللوا جزئياتها ويتوصلوا إلى حلول. اليهود احتاجوا إلى وطن، والغرب غمرهم بالكراهية والتقتيل والرفض، فتوافق الجميع على تصدير القضية إلى فلسطين حيث يمكن إعطاؤها بعداً دينياً. في هذه الأثناء تمكن اليهود من مفاتيح السياسة والإعلام والاقتصاد عبر العالم ووقعتم أنتم في الفخ. كان بوسع قيادتكم قبول قرار التقسيم، وكان من المفترض أن يحرضوكم على العودة إلى بلدكم بعد أن وضعت الحرب أوزارها. لكنكم تضمرون الشر لليهود وتتوقعون نيتهم المشابهة تجاهكم، لذلك تقبلتم مخيمات اللجوء وسلمتم أموركم إلى الدول والسياسة العربية والدولية حتى أصبح زعماؤكم يريدون الزعامة والكراسي في وضع عسكري وسياسي ضعيف فلم يجدوا مناصاً من الاستسلام للعدو فعلياً والإنكار في العلن، أي إنهم أعجز عن جني ثمار الاستسلام». لم يقابل حميد أي ألماني أو غيره إلى الآن يتحدث بهذه الشمولية، فالرجل غير متحزب لموقف معين، ويبدو أن عقله غير مُؤجر لأحد ولا يدع آخرين يلقنونه المواقف والأحكام، وآراؤه متزنة ومنصفة، ولا يوجد تعجل أو تجنّ على طرف دون الآخر في حديثه. «إسرائيل تحاربكم بشعارات التحضر والمدنية وحقوق الإنسان، فلماذا لا تطالبونهم بالعدالة والمساواة والحياة في دولة واحدة؟

هل تجربتكم في حكم أنفسكم في الضفة أو قطاع غزة تعطيكم الأمل في دولة ذات معنى في المستقبل؟ انظر إلى أفواج اللاجئين يركبون البحر ويسيرون آلاف الكيلومترات عبر العديد من البلدان وفي ظروف مناخية سيئة ليصلوا إلى بلاد لا يتحدثون لغتها ولا يؤمنون بدينها ولكنهم هاربون بأرواحهم.. لماذا لا تعودون؟ انطلقوا من المخيمات إلى قراكم وبلداتكم ولتكن تحت الاحتلال والإدارة الإسرائيلية. لن يجرؤ اليهود على قتل لاجئين مسالمين عائدين بدون مطالب سياسية وإنما مطالب اجتماعية، وإن قتلوا في المرحلة الأولى بعضكم فالعدد سيكون أقل مما تخسرون يومياً من قتلى وجرحى وإعاقات وإهانات، ولكنكم هذه المرة ستنهون مشاكلكم وتسلمون زمامكم إلى اليهود تحت رقابة العالم.. حبذا يا حميد لو فكرت في العوامل النفسية التي أوصلتكم إلى حال السكون والقنوط والاستسلام للقيادات المحلية والعربية والعالمية. عليكم كسر التقليدي واستغلال نقاط ضعف عدوكم. قضيتكم لن تُحل بسرعة عبر مطالبتكم بدولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل، ولن تُحل بدون كسر الأطر المألوفة.». توقف بيتر عن الحديث استجابة لنداء لورا تعلن أن الطعام قد وضع على الطاولة.

كانت ماري الأقل نهماً في الأكل، والأولى التي كفت عن الطعام وبقيت جالسة تجاري الآخرين وتخطط على مسامعهم برنامج ما بعد الغداء، حيث يوجد قهوة وكعك، كوخن، ومن ثم النزهة إلى حديقة القصر الأثري القريب من بيتهم، وقالت إن هناك مفاجأة تنتظر حميد، ثم سألته إذا كان قد زار القصر قبل ذلك. أجابها نافياً، ولم يُقر بحقيقة معرفته للقصر والحديقة ومكوناتها حتى لا يفسد عليهم فرحتهم بإعداد المفاجأة. كان بيتر يأكل بتلذذ وقال إن القصر أقيم على نمط قصر فرساي بالقرب من باريس، ولكن الثورات الألمانية لم تنهب هذا النموذج المعماري المصغر

على غرار ما فعله الفرنسيون إبان الثورة من نهب قصر ملكهم وإزالة كل شيء قابل للحمل. أطال حميد الجلوس إلى المائدة ولكنه عملياً لم يُكثر من الطعام حتى تبقى معدته طبيعية ولا تستأثر بالدماء على حساب دماغه فينعس ويكسل. كانت وجبته الرئيسة في المساء، ولكنه جارى اليوم أهل ماري في تناول الطعام مبكراً. عندما كف عن الطعام شكر لورا وأثنى على لذة الطعام، وجاملها بالقول إنه لولا ترك جزء من المعدة فارغاً للكعك لما كف عن الساور كراوت. «يمكننا تناول الكعك والقهوة بعد العودة من النزهة». قالت ماري وحصلت على موافقة من الثلاثة.

كان القصر، وحديقته نسخة مصغرة في البناء والمساحة عن قصر فرساي الذي بناه لويس الرابع عشر ليكون مقراً لملوك فرنسا. في قرية شفتسنجن التي يقطنها اثنان وعشرون ألف نسمة، أقام أمير المنطقة هذا القصر والحديقة بإشراف مهندس فرنسي. اجتاز الأربعة البوابة الخارجية للحديقة واخترقوا البناء إلى جوف الحديقة تحيط بهم أنواع الزهور المنتشرة على جانبي طرقات متفرعة بشكل هندسي. قال بيتر لحميد وكانا يتقدمان الأنثيين ببضع خطوات: إذا تقبلت مني نصيحة فلا تدخل في جدالات تافهة غير هادفة، ولا تدع أحداً يستدرجك إلى معارك صغيرة أو وهمية على مواضيع لا تستحق الوقت الذي يُهدر فيها، وإذا حُصرت في مستنقع جدل فاخرج منه فوراً، أو اصمت إذا صعبت عليك المغادرة. توقف الأربعة أمام ضفة البحيرة الاصطناعية حيث كان البط على أنواعه وألوانه الزاهية ينتظر مع الإوز وبعض الطيور المائية الأخرى، أن يُلقى إليها بالطعام من الزوار.

حين سار بيتر إلى اليسار وصمتت ماري وأمها عرف حميد أنهم متجهون إلى المفاجأة وعرفها أيضاً، فقد زار القصر وحديقته قبل ذلك

وجال في ربوع المفاجأة. «هذا أقدم وأجمل مسجد في ألمانيا». قال بيتر وقد أطلت المئذنتان عن بُعد من بين الأشجار، وظهرت على الثلاثة فرحة طفولية. «بناه الأمير كارل فيليب ثيودور على مدى ستة عشر عاماً وانتهى العمل به عام ١٧٩٥ بإشراف المهندس نيكولاس دي بيجاجي. وكالعادة هناك روايتان لهذا البناء». تجاوب حميد مع فرحتهم وأبدى الإعجاب والاستغراب وأصغى إلى بيتر. «استوحى الأمير الفكرة من الطراز المعماري العثماني الذي أصبح موضة يُحتذى بها في أوروبا آنذاك. لم يكن آنذاك مسلمون هنا ولكن في ستينيات القرن الماضي أصبح العمال الأتراك يصلون هنا، والجامع الآن محط اهتمام السلطات التي أنفقت عليه عشرة ملايين يورو منذ أعوام لترميمه بهذا الشكل كما ترى، حتى أصبح من أهم معالم المنطقة». كان من الجلي أن المسجد محاط برعاية خاصة، وهو بالفعل قريب من الطراز الأندلسي حيث البناء يحيط بحديقة داخلية تحفها المعرشات الإسمنتية. والمسجد مِن أفخم وأثمن الآثار الموجودة في حديقة القصر، ولقد استُخْدِم على مَر السنوات لأغراض مختلفة، فمثلاً: استخدم كمستشفى في عامي ١٨٧٠ و١٨٧١ أثناء الحرب التي شنها الألمان على فرنسا. في الواقع فإن المبنى لم يُستخدم كمسجد إلا في فترات نادرة ومتقطعة، وبحسب الوثائق فإن أول من صلى فيه كان من المغاربة الذين أسروا في الحرب الفرنسية الألمانية عام ١٨٧١، وكان منهم جرحى يتعالجون في مستشفى عسكري بالقرب من القرية، فسُمح لهم بالصلاة في المسجد.

توقف الأربعة مراراً أمام كتابات عربية منحوتة، وانتظروا كل مرة حتى يُنمق لهم حميد الترجمة إلى الألمانية: خُذ ذهباً قدْر احتياجك، وخُذ معرفة قدْر ما تستطيع أن تأخُذ». انبهر الثلاثة من المعنى وسأل بيتر إذا كان

هذا الكلام من القرآن. «لا.. ليس من القرآن، كل ما كتب هنا من الحكم والأمثال، وترجم جملة أخرى: قلب الأحمق في فمه، ولسان العاقل في قلبه». في مكان آخر من الجدار كتب: الدنيا والغنى زائلان، والأعمال الصالحة باقية. «الكلام من فضة والصمت من ذهب». «من أراد كل شيء ذهب خالي الوفاض». الكثير من الحكم وضعت تحتها ترجمات ألمانية. الخطوط العربية هذه هي الإثبات أن النحاتين لم يعرفوا شيئاً عن العربية، ولم يشارك عرب أو مسلمون في البناء، فعلى الواجهة تم ترميم جميل (لا الله إلا الله) بدل لا إله إلا الله، وإحدى الحكم لا تعرف إذا كانت (لولا الأمل خاب العمد) أو أنها لولا الأمد خاب العمد. في كل الأحوال تمت تجزئة الكثير من الكلمات على سطرين مثل عا – قل ويصعب بالتالي فهم الكلمات خصوصاً وأن التنقيط فيه أخطاء.

«قلت للمسجد روايتان، فهل انتهيت من الأولى؟»

«تقريباً.». قال بيتر واسترجع أفكاره قبل الانتقال إلى الرواية الرومنسية. «في زمن بناء المسجد كانت حقبة التنوير تعم أوروبا، وكان الأمراء يتسابقون لاقتناء السلع القادمة من الشرق، مثل أدوات الكتابة أو حتى الخيام والمعدات الحربية والأقمشة والرسومات التي تمثل الشرق. أيضاً كانت النساء الأوروبيات يتفاخرن بارتداء الأزياء العثمانية الإسلامية، والموسيقى الحربية التي كان يعزفها الجيش العثماني، أصبحت مصدر إلهام للموسيقار النمساوي الشهير مُوتسارت، وأشهر معزوفاته اسمها (التركية). الانبهار في العمران الشرقي لم يقتصر على قريتنا فقط.». قال بيتر وضحك الثلاثة وقد اقتربوا من الراوي وهم يتنزهون في ساحة المسجد الخارجية: «..بل في لندن وباريس وبرلين وحتى سانت بطرسبرغ، ففي لندن شيد مسجد في حديقة كيو جاردنز عام ١٧٦٢، وآخر بالقرب من باريس كان

قد صُمم عام ١٧٨٥. محطة المضخات البُخارية في ضاحية بوتسدام في برلين هي تصميم عمارة شرقية من ١٨٤٢، أو الحمامات التركية الكثيرة في القصور الأوروبية، وللعلم فقد بُني في مدينة دريسدن الألمانية في عام ١٩٠٧ مصنع للسجائر مشابه لمسجد مملوكي في مدينة القاهرة، وغير هذا الكثير من المباني التي دُمرت من الحروب والأيام. لقد كلف بناء هذا المسجد ١٢٠ ألف جولدن كانت تعادل آنذاك كلفة بناء قصر فخم، لكن الأمير أقام هذا المسجد هنا في حديقة قصرة الصيفي».

«لماذا إذاً فعل ذلك؟» سألت لورا زوجها وهي تعرف الإجابة ولكنها أرادت نقل الحديث إلى اتجاه رومنسي.

«تقول الأسطورة إن الأمير كارل وقع في عشق أميرة شرقية، وبالطبع كان الشوق إلى أهلها وبيئتها يعكر مزاجها ومزاجه، ولهذا بنى لها هذا المسجد كي يكون معبداً لها ومصدر طمأنينة. وتقول تفاصيل أخرى بأنه قد تزوجها وأسلم على يديها وبناهُ إكراماً لها. لكن الرواية من نسج الخيال الشعبي فالمسجد كما رأينا يفتقر إلى أبرز ما قد يميز أي مسجد في العالم الإسلامي، فبدلاً من وجود محرابٍ واضحٍ باتجاه مكة، هناك أكثر من واحد، وكل منها في اتجاه مختلف، كما أن المبنى ليس فيه أي منبر ليصعد عليه الخطيب في يوم الجُمعة مثلاً، وبدلاً من الآيات القرآنية التي تزين الجدران في كُل المساجد، وجدنا عدداً من الحكم الشعبية على الجدران بلغة عربية غير واضحة.. أليس كذلك يا حميد؟».

«لا بد من حشر المنطق في كل شيء؟ ربما قصة الحب حقيقة وإلا كيف خلقت وانتشرت؟ إذا كانوا مهتمين ومنفتحين كما قلت؛ فما المانع أن يعشق كارل شرقية وتحضر معه إلى هنا؟»..

«لا يوجد أي مانع وأنا لم أقصد تكذيب الرواية الرومنسية.». حاول

بيتر تهدئة زوجته التي تريد أدماج حب أوروبا للموضة الشرقية آنذاك في رواية حب ولهان. «في كل الأحوال كانوا آنذاك أكثر انفتاحاً وتسامحاً وسعياً للاختلاط مما نحن عليه الآن شرقاً وغرباً.»..

«أنت مخطئ هنا يا بيتر، فلدينا آلاف وربما ملايين قصص الاختلاط والتزاوج الناجحة بين الشرق والغرب الآن، وها نحن نستقبل ملايين اللاجئين وندعوهم للاختلاط معنا، وقواتنا تشارك في ضرب الإرهاب لإنهاء الكوارث في الشرق، والذين يلجأون إلينا لا يمكن الظن أنهم يكرهوننا.». وضع بيتر كفيه على رأسه وهو يستمع إلى زوجته، واحمرت وجنتا ماري ولكن أحداً لم يتنبه لذلك، وخطر لحميد أن لورا وماري تتوقعان نهاية سعيدة لعلاقته بالإبنة.

«..أنت محقة تماماً يا عزيزتي وهذا ما كنت أريد قوله لحميد أيضاً.». انحاز بيتر ليتوقف على ضفة الماء على أمل أن تسبقهما الزوجة والابنة ببضع خطوات، ويبدو أن ماري فهمت رغبة والدها، أو أرادت الحد من تصريحات والدتها. «قضيتكم سوف يطول أمدها، وعليكم التكيف حتى لا يُقضى عليكم. قضية الإرهاب في أوروبا ستتعاظم سنوياً وعلى مدى عقود قادمة لأن اللاجئين ليسوا كلهم مسالمين وبينهم دواعش كبار وآخرون من الأطفال المدربين والمحرضين والذين سيتمتعون بحقوق الأطفال هنا حتى تحين اللحظة لتدمير أنفسهم ومن حولهم. ولا ننس عدد الأغبياء المتعصبين من اليمين الألماني الذين سيصبون الزيت على النار. مشاكلكم الآن نابعة من الأخذ بالتفسير السلبي للدين، ومن تعظيم عقيدة الاستشهاد، وتضخيم محتويات الجنة، هل تفهمني يا حميد؟» أومأ حميد بالإيجاب وقد اندهش من إيجاز بيتر للمشكلة في هذه الكلمات الأخيرة القليلة، ولم يرغب في مجادلة أو إضافة لأن الأمور بدت له جلية وهما يسيران خلف

الأنثيين. «لا تشغل بالك أكثر من اللازم فيما لا يمكنك تحصيله أو ردعه، ولا تهدر عمرك في البحث عن المستحيل حتى لا تقف في محطة الانتظار اللانهائي. ابدأ بنفسك في البناء الصحيح فالعالم يعج بالأغبياء المتبجحين الذين لا ينتصحون».

«هذه الحكم يمكن نقشها على جـدران المسجد.». قال حميد مازحاً جاداً فقد أعجب بصفاء ذهن هذا الرجل وقدراته التحليلية ورؤيته إلى الحياة، فهو يدرك أن صفاء قلبه وقناعته يؤدي إلى كرم الحياة معه. أكمل حميد وهما يضحكان: «..إنني أحاول دوماً مراجعة نفسي ومناقشتها بصراحة ووضوح وأسعى لتقويمها والاستفادة من عبر الحياة مما أرى وأسمع وأقـرأ.. علي أن أتأمل الإعجاب الأوروبـي بالسلطنة التركية والإسلام، وبناء مسجد هنا قبل قرنين من الزمن، سواء لأسباب جمالية، أو لخلفية رومنسية، ثم الهجوم على السلطنة واحتلالها وتقسيمها واستعمارها قبل قرن، والتفكير كيف وصلنا إلى حالنا الآن؟» شكر حميد بيتر على اليوم الجميل، وتجاذبا أطراف الحديث في طريق العودة إلى البيت عن مسؤولية الإنسان عن صحته وشؤونه، وكيف أن أي شخص آخر لن يحمل العبء عنك، ولن يسهر معك في مرضك، ولهذا يجب أن لا تهضم حقوق ذاتك لمصلحة المقربين منك وتحترق كالشمعة لتنير لغيرك، بل دلل نفسك وأنصفها قدر الإمكان.

بين البَطَلِ والمُجْرِم

«الأخلاق، هل هي شيء ثابت أم متطور ومتغير؟ بمعنى آخر؛ هل النظام الأخلاقي يماهي دوماً الخير ويعاكس الشر؟ هل له علاقة بالجينات أو الهرمونات تحدد فاعليته وتأثيره؟ هل النظام الأخلاقي موروث بشري بالسليقة، أو ربما منبعه الديانات؟ أم هو بالدرجة الأولى نظام متغير ومتطور ليتماشى مع حماية التجمعات البشرية وتقدمها؟» سأل البروفيسور طلابه وهو لا يتوقع منهم إجابات بقدر ما يهدف إلى تحفيزهم ذهنياً لاستيعاب الطريق الذي سيسلكه لتحديد ماهية الأخلاق، التي باسمها تشن الحروب وتتنافس الديانات. «تعرفون طبعاً أن ما هو أخلاقي في برلين يعتبر فجوراً في الرياض وكارثة في كابول، ذلك بالرغم من أن التطور البشري والاختلاف في رؤية الأخلاق حديث جداً إذا ما قارناه بعمر البشرية.». ضحك البعض وتبسم الآخرون من التشبيه في رؤية الأخلاق بين برلين والرياض وكابول.. «ليس فقط الأخلاق الجنسية وكل ما يتعلق بالجسد وبالإناث. الحرب التي تشنها أميركا على أفغانستان مثلاً تعتبر ضمن الأخلاق الطيبة الكريمة الإنسانية للكثير من الأميركيين، بينما هي العكس تماماً لدى غالبية المسلمين. لا بأس دعوني أتكلم بتحديد أضيق، إذا قتل رجل شخصاً آخر في المجتمع نفسه، فهذه جريمة يطالب المجتمع بعقاب فاعلها. أما إذا كان المقتول شخصاً معتدياً غازياً أو لصاً من جماعة أخرى يصبح القاتل بطلاً لأنه بقتله للمعتدي حمى الحمى والأرض والعرض. في

الحالتين هناك قاتل ولكن مفهوم الأخلاق يحتم تضاد التقييم. قتل رجل من داخل المجتمع سيؤدي إلى أخذ الثأر وبالتالي؛ ثأر مضاد وهذا سيُضعف القبيلة، القوم، المجتمع. أما قتل معتدٍ فإنه يقوي المجتمع ويعزز هيبته في المحيط ويخيف خصومه. الخوف من التشتت الذاتي وإخافة الآخرين، وعامل الخوف في ذاته لعب دوراً في جمع الأفكار الثقافية والأخلاقية التي أسست الوجود الإنساني المتطور. الأديان مثلاً حافلة بمسببات المخاوف ومطالبة بأخلاق ناسبت زمن نشوء تلك الديانات، هكذا فالأخلاقيات في الأديان ليست متشابهة تماماً، كما أن الأخلاق لا منبع شمولياً مطلقاً لها أو هي مرتبطة بقوانين الطبيعة. التغير المتوالي للتكوين الاجتماعي ناتج من حالة خوف اضطرت المجتمعات لحماية ذاتها منها، والتوافق على جملة أخلاق توثق توحيد الصفوف لمحاربة الأخطار. النظام الأخلاقي وجد ويتطور ليس لأن البشر يحبون الخير ويكرهون الشر ولكن سعياً للبقاء والابتعاد عن الأفعال التي تضر البشر كمجتمعات. هذا لا ينفي انعدام الاصطياد في منابع الخوف والتلاعب بالمشاعر لتحقيق أهداف دينية أو سياسية ولإقناع الناس بأفكار يمكن أن يرفضوها بدون ترويج الخوف».

«اليوم كما بالأمس، القبائل، المجتمعات، أو الدول التي لا تحترم النظام الأخلاقي الذي يحمي الفرد والقبيلة والمجتمع، تنزلق بسرعة إلى هاوية الاقتتال والضعف والتفكك وتقع فريسة للغزو والنهب والسبي من المجتمعات الأكثر تماسكاً وتمسكاً بنظمهم الأخلاقية. ليس بالضرورة أن يكون النظام الأخلاقي دوماً صحيحاً، حتى لو قيل إنه هدية من السماء، لذلك نجد النظم المنسوبة للسماء قد تحجرت ولا يطبقها أتباعها. منظومة الأخلاق شيء متغير متطور، لنأخذ نظام العبودية الذي ترفضه كل القوانين الحديثة الآن باعتباره في قعر الأخلاق.. هذا النظام كان رسمياً وسارياً

لدى الأديان وتواصل تطبيقه حتى عهد قريب. سادت العبودية عندما كانت منفعة للبعض، وانتهت عندما أصبحت ضارة اقتصادياً، وتطور بدلاً منها نظام الأجير الذي يتحمل نفقات وأعباء وهموم ذاته. نظام السبي ركن هام في كل الأديان تقننه وتنظمه، ولكنه الآن منبوذ أخلاقياً. الكذب والنفاق مثال آخر على تعدد الرؤى. إذا كذبت حتى لا تثير مشكلة من الإفصاح بالحقيقة فأنت إنسان نافع مفيد لمجتمعك، وإذا كان كذبك يسبب الضرر لجماعتك فهذا غير أخلاقي. إذا صدقت القول ولكن نتيجة الصدق ضارة أو جارحة أو مفيدة للعدو، فصدقك غير مقبول أخلاقياً. هكذا نرى أن التقييم الأخلاقي ليس بالضرورة مرتبطاً بالفعل ولكن بنتيجة الفعل على تماسك المجتمع. لهذا نجد تفاوتاً في الأنظمة الأخلاقية بين المجتمعات ونشعر بعدم موضوعيتها ويفاجأ البعض أن نظمهم الأخلاقية هي ليست لكل مكان وزمان وأنها مرفوضة في مجتمعات أخرى والعكس صحيح إلى درجة توجيه أقذع الصفات إلى أخلاق الطرف الآخر. هذا يعني في النهاية أنه لا يوجد نظام أخلاقي عالمي صالح للجميع، ولكن الأخلاق تُخلق وتُقر لسببين: استمرار الحياة للبشر، واستمرار تماسك المجتمع».

«لو فرَضت الظروف على أي بشري الاختيار بين قتل خمسة أفراد، بغض النظر عن جنسيتهم، أو قتل خمسة حمير، فإنه بالطبع سيقتل الحمير لأنها لا تشترك معه جينياً مثل أي بشري آخر. لكن لو فُرض عليه القرار قتل خمسة أجانب أو قتل خمسة من بني قومه فإنه سيقتل الأجانب، ولو كان الخيار المفروض عليه بين خمسة عجزة أو خمسة شبان وأطفال من بني قومه، فسيقتل العجزة. ماذا لو كان عليه الاختيار بين خمسة شبان أو خمس شابات؟ هل يمكن لأحدكم الآن فك هذا اللغز؟» توقف البروفيسور وجال بنظره على الأيدي المرفوعة وأشار لإستيرا بالإجابة.

«بالتأكيد سيقتل الشبان.». ساد الضحك، ثم أكملت: «لأنهن الأضعف وبحاجة إلى الحماية».

«صدقت زميلتكم، لأنهن الأضعف ولأنهن الاستثمار الجيني الأهم من الشبان. عدد بويضاتهن محدود، بعكس الذكر، وفترة حمل الجنين لديهن طويلة، ومؤهلهن الزمني للحمل أقصر من مؤهل الذكر، ولهذا فالأنثى هي الأهم وتحتاج إلى الحماية، وهذا ما يفسر تقييمنا الأعلى للإناث والأطفال، فهم دوماً الأولى بالرعاية والحماية. لكن؛ ماذا لو كان خيار القتل لخمس إناث لا تعرفهن وأي خمس من أقاربك؟» لم يرفع أحد يده للإجابة وبدا أن الطلاب استوعبوا هدف البروفيسور بربط الأخلاق بالاستثمار الجيني. لكن حميد قال مؤيداً أن لدى العرب مثالاً مشهوراً يلخص هذا الأمر: أنا وأخي على ابن عمي، وأنا وابن عمي على الغريب.

«نحن مبرمجون لتقييم الأفعال من منطلق حماية الجنس البشري المشترك جينياً، وتأثير الفعل في التماسك والرفاهية للمجتمع، والمحيط، والمجموعة، والأسرة. مثال على ذلك أن النظرة إلى المثلية الجنسية كانت سلبية ولا تزال إلى الآن في الكثير من المجتمعات، وشاع عنها نقل الأمراض القاتلة، وذلك ببساطة لأنها تهدد مصير المجتمعات لكونها لا تنجب أطفالاً يحملون الجينات البشرية، وبالتالي تهدد بالانقراض إذا سُكت عنها. تغيرت النظرة إلى المثلية حين ثبت أنها صفات إجبارية لأصحابها نتيجة لخلل في جيناتهم، وبالتالي تم التساهل معهم قانونياً في بعض المجتمعات التي قننت الأمر بمنع الممارسة مع الأطفال. هكذا انقلبت الرؤية المجتمعية المثلية في فترة زمنية قصيرة في العالم الغربي، من نظرة لا أخلاقية قطعاً، إلى اتهام بالرجعية لكل من ينظر إليها من زاوية سلبية الآن حين ساد الاقتناع أن المثليين غير مؤهلين للإنجاب والتربية أصلاً».

«البوائق مثل الكذب والسرقة والاغتصاب والاختلاس والخيانة وغيرها من مؤشرات الأخلاق السلبية ذات التأثير الانحطاطي في جودة الحياة وترابط المجتمع، تنتشر بشكل أكثف في المجتمعات مدعية التدين. نعرف أن الأديان والمؤمنين يدعون أن الدين هو مصدر الأخلاق، والأخلاق بالتالي غير قابلة للتطور حتى لا تنسلخ من الدين، وأن ما كان مناسباً قبل آلاف السنين يجب أن يُطبق الآن. لهذا بالذات لم تعد النظم الأخلاقية القديمة تلك صالحة، ولا يطبقها أحد تقريباً من مدعيها، ونجد انعدام الأخلاق بمجمله، والأنانية تحديداً، أكثر انتشاراً في المجتمعات المتدينة نفسها. الأنانية من أهم قواعد سوء الأخلاق، فهي تفسد العقل وتبرر الكذب الذاتي ليقنع نفسه وغيره بأنه غير أناني، وتوجهه لاختلاق تبريرات للأفعال الأنانية وتصويرها بمظهر فاضل. لكن الإنسان الذي تطور في إجراء طويل لملايين السنين قادر على الظهور مزيفاً وإخفاء الأنانية ويمكنه الكذب على الذات، لكن عقله أيضاً مسلح بقدرة السيطرة على الذات، وهناك في عقله نداء للتسامي يظهر أحياناً حتى لدى أعظم الأشرار.. المهم أن يتمكن العقل في الحد من الكذب على الذات ومن المكابرة وترتقي لديه أفعال القيم العالية. هكذا في النهاية يمكن الاستنتاج أن الأفراد والمجتمعات التي لا تطور نظمها الأخلاقية حسب الزمان والمكان سوف تتخلف وتتعرض للانهيار».

«هل من علاقة بين الأخلاق والسعادة والخوف؟» سألت أنيتا البروفيسور وقد استشعرت أنه أوجز لهم ما يريد قوله حول ترابط الجينات والأخلاق.

«أنتِ تعرفين الجواب، أو على الأقل فكرت في العلاقة بين الأخلاق والسعادة، فأعطينا ما لديك».

«آمل ذلك.. لو بحثنا في أسباب السعادة الشخصية سنجد أنها جزء من قائمة الأخلاق المتعارف عليها. مثلاً صنع المعروف والعطاء للآخر واحترام الآخرين والتسامح مع أعضاء المجتمع من جيران وغيرهم، والاشتراك معهم في أعمال تطوعية ومراعاة مشاعرهم وحماية ممتلكاتهم.. هذه الأسباب... وغيرها تسبب السعادة للشخص الفاعل وتساهم في إسعاد الآخرين أيضاً، لكنها أيضاً جزء أصيل من المنظومة الأخلاقية.».. توقفت أنيتا وهلةً تستجمع ما تريد استنتاجه، ثم أكملت مطورة مقولتها: «..حيث تسود الأخلاق تنتشر السعادة، وحيث توجد سعادة فهناك أخلاق تعم المجتمع ويرتفع مستوى العطاء والإنتاج. نرى ذلك على مستوى دول وأيضاً في شركات معينة. الأخلاق القائمة على التضحية بالأنانية هي طريق المجتمعات للرقي والسعادة. المال وحده لا ينتج السعادة للفرد أو على مستوى المجتمع».

«ما ذكرته من قائمة الأخلاق المتعارف عليها، متأصلة في الأديان، ويحث عليها الدين الإسلامي.»..

«..المهم هو تطبيق هذه القيم بضمير نقي وعقل ملم بمظاهر الأنانية ويقاومها. العلم بالشيء وعدم تطبيقه هو جريمة إضافية.».. أجابت أنيتا على تعليق سامي الذي أراد هدم رؤيتها العلاقة بين الأخلاق والسعادة، بمعنى أن الأخلاق معروفة لدى المسلمين ولكن السعادة هجرتهم وحلت بدلها الحروب والكراهية، تماماً كما هجرته السعادة بهجران صديقته ماريون له نهائياً.

«للأسف؛ إن الأديان أصبحت تثير الرعب والهلع وليس السعادة.». قال أتسوشي، فأنصت الجميع إليه ليتمكنوا من فهم لكنته اليابانية الألمانية.. «البوذيون في بورما يقتلون المسلمين، واليهود يعذبون الفلسطينيين

ويحتلون أرضهم باسم الدين ووصايا ربانية، وترامب المسيحي يتصرف بعنصرية وتسبب بارتفاع نسب خوف الأميركيين من الحروب، والمسلمون يقتلون بعضهم بعضاً ومنهم من يُرهب أية مدينة في الغرب تطأها قدماه. الأديان لا يمكن أن توصل إلى السعادة، بل أصبح هاجس الخوف الأعلى في العالم الغربي الآن هو الإرهاب، الممارس باسم الدين، ويعتبره البعض من تعاليم الدين. كان الشبان في الماضي يخافون من العناكب والمرتفعات والعفاريت ومن ممارسة الحب لأول مرة.. الآن أصبح الخوف من العمليات الإرهابية في أول القائمة وبمعدلات مطردة.. أنسى أخلاق الأديان وطريقها إلى السعادة».

«عموماً لا نريد الخروج عن موضوع الأخلاق والجينات، لكن دعوني أقدم لكم بعض النصائح للاقتراب من السعادة الشخصية.». قال البروفيسور إثر تقاطع الضحكات على نصيحة اتسوشي، وأكمل: «ضع لنفسك هدفاً واعمل على تحقيقه وتقدم بثبات. تختلف الأهداف باختلاف الأفراد لكن النتيجة واحدة، ويفترض أن يكون الهدف ذا معنى وهذا ما يحقق السعادة. أضف إلى ذلك حفاظك على صحتك، وجود عمل دائم يحقق دخلاً كافياً، ووجود علاقة عاطفية في حياتك. بالطبع إذا استطعت تلافي مسببات التعاسة ستكون سعادتك أشمل في النوع وأطول في الفترات الزمنية».

القُدْسُ، بيت لحم، تَقوُع

«..بالإضافة إلى ما قلته لكم الآن احتفظوا برقم القنصلية الألمانية في تل أبيب، فقد تضطرون للاتصال بها. في الطائرة يوجد رجال للمخابرات فلا تتحدثوا بعضكم مع بعض، ولا تغادروا الطائرة كجماعة، بل سيروا إلى الجوازات منفصلين ومختلطين ببقية الركاب وتجمعوا عند موقف الباصات إلى القدس.». كان رأفت يشرح لأربعة متطوعين وألزه ما تجمع لدى لجان المناصرة من تجارب حول إجراءات السفر ودخول مطار بن غوريون والطريق إلى الضفة عبر القدس حتى لا يتعرف الإسرائيليون إليهم ويرفضون دخولهم. كان الشرح طويلاً ومفصلاً ولكن رأفت يتحدث بهدوء ويحاول طمأنة الخمسة بالتأكيد إن احتمالات مواجهتهم بمشاكل قليلة ولكن الاحتياط واجب. في الحقيقة أن نسبة رفض دخول المتطوعين عالية جداً. كل أجنبي من أصل عربي وفي سن الشباب يحققون معه في المطار وغالباً يمنعون دخوله، وكل من يعرفون أنه نشط في بلاده لمساندة فلسطين يعود على الطائرة نفسها، ولم تكن تدخلات السفارة تنفعهم ولكن حين يتم إطلاع سفارة البلد تقل فرص بهدلة المرفوضين. بالإضافة إلى كل التوضيحات؛ زود جودت ألزه بمعلومات ترشدها للوصول إلى قريتهم وزيارة أهله، ووعدها بإرسال عناوين أصدقاء له في رام الله عبر الواتساب تحسباً من تفتيش أوراقها في المطار، فقد كان جودت على اقتناع أنهم لن يسمحوا بدخول ألزه إلى فلسطين، ولكنه لم يردعها عن السفر، وهو لا

يستطيع ذلك أصلاً، كما أنه فضل لها المرور بهذه التجربة لصقل إرادتها وإدماج النظري بالواقع العملي.

اختارت ألزه أن تكون أول المتقدمين الخمسة إلى الجوازات في مطار بن غوريون، كان الوقت فجراً ولا يوجد سوى نافذتين تستقبلان الزوار. نظرت إليها الشرطية وكررت ذكر اسمها كما ظهر على شاشة الكمبيوتر. «ما الغرض من الزيارة؟»

«سياحة تاريخية لأسبوعين».

«هل تنوين زيارة الضفة الغربية؟»

«برنامجي مفتوح، ما رأيك أنت هل تستحق الزيارة من منظور آثار تاريخية؟» أجابت ألزه وهي تتصنع الجدية والطبيعية رغم أنها أدركت أنهم يعرفونها، فالركاب الذين سبقوها مروا بسرعة، والنافذة الأخرى لا تحقق مع أحد وقد مر اثنان من المرافقين الأربعة بسلام.

«لي عليك ملاحظات في النظام، إذا رغبت في زيارة المناطق الفلسطينية سيكون عليك الحديث مع زميل لي، وإذا وافقت على البقاء في إسرائيل يمكنني منحك إذن الدخول وتسجيل ملاحظة بمنعك من دخول المناطق عبر كل الحواجز».

«زيارتي في الأساس لإسرائيل، وسنترك زيارة بقية الأراضي المقدسة لمرة أخرى». قالت ألزه وتجاوبت مع الشرطية في تقديم معلومات مكان السكن وموعد المغادرة المقرر.

في الطريق إلى القدس؛ أبلغت ألزه الأربعة أنها مُنعت من دخول الضفة رسمياً واسمها الآن على أنظمة الحاسوب في كل المعابر، وقالت لهم إنها ستعمل على الوصول إليهم لاحقاً عبر طرق غير مأهولة. كتبت على الفور عبر الواتساب إلى جودت بما جرى وبضرورة أن يُرسل إليها

قريباً إلى القدس من يصحبها إلى الضفة، وقررت أن تتجول بقية اليوم في المستوطنات قيد الإنشاء حول القدس الشرقية.

«لحسن الحظ إن الوضع هادئ اليوم.». قال سائق التاكسي الذي طلبه لها موظف الاستقبال في الفندق. «ما مصلحتك في زيارة مستوطنة قيد الإنشاء؟» استهجنت ألزه تدخل السائق فيما تعتبره شأناً خاصاً، ولكنها سايرته وأخبرته عزمها الحياة في القدس لاحقاً. «لكنك لست يهودية، لن يسمح لك بالسكن في أية مستوطنة».

«وماذا لو اعتنقت اليهودية؟»

«لا يُسمح للأغيار باعتناق الدين اليهودي».

«لكن أمي يهودية ويمكنني إثبات ذلك وأخذ كل نصيبي.». أرادت ألزه الانتقال إلى استقبال المعلومات فسألت السائق أي المستوطنات هي الأفضل الآن للسكن فيها، لكنه عاد يؤكد لها استحالة منحها شقة إلا إذا كانت ضمن مجموعة دينية أو سيكون على الوزارة أن تحدد سكنها بما يتناسب وحاجتهم أولاً وقدراتها ثانياً. سكتت فترة متجاهلة ثرثرته حتى وصلا إلى موقع بناء يرتفع فيه غبار من أثر تحريك الآلات للأرض، وفي جهة مقابلة كانت ناقلات الباطون تفرغ حمولتها على أسطح بنايات قيد الإنشاء من طابقين وعمال في أركان الموقع.

«كل العمال الذين أمامك عرب يحضرون في الصباح الباكر ويعودون إلى الضفة قبل المساء». استغربت ألزه ما تسمعه فأعاد السائق عليها ما سمعته. «كل المستوطنات بناها عمال عرب من الضفة، وهم يتسابقون على كسب تصاريح عمل تؤهلهم لدخول إسرائيل». تحركت السيارة إذ بدا واضحاً أن ألزه لن تترجل هنا. «هل آخذك إلى مستوطنة مأهولة» شكرته وطلبت منه أخذها في جولة بمحاذاة الجدار الفاصل. كانت ألزه قد جمعت

معلومات جمة قبل رحلتها هذه عن الجدار والحواجز ولكن معلومة بناء الفلسطينيين للمستوطنات كانت جديدة عليها.

«هل عزز الجدار شعوركم بالأمن؟ نحن الألمان عملنا طوال أربعة عقود على إزالة جدار برلين، وانتشينا فرحاً حين سقط الجدار بإرادة شعبية؟».

«أنتم ألمان شرقاً وغرباً، ولكنا هنا عرب ويهود، وهم أكثر طرفين في العالم يكره كلاهما الآخر. أقيم الجدار لمنع تسلل المخربين، ولذلك لا يوجد الآن تفجيرات لباصات في تل أبيب والقدس.. لقد تركنا لهم غزة، ولكنهم قتلوا بعضهم بعضاً وتبادلوا إلقاء خصومهم أحياء من أسطح العمارات».

«لكنك تعرف بالتأكيد أن هذا الجدار يعزل مناطق فلسطينية بعضها عن بعض ويعزل مزارعين عن أراضيهم، وطلاباً عن مدارسهم وجامعاتهم، وتعرف أن مخطط الجدار سيقضم نصف الضفة الغربية وسيبقى النصف الفلسطيني مليئاً بالمستوطنات المقامة على أرض محتلة». كفت ألزه عن الجدال مع السائق وطلبت منه أن يشرح لها أين هم أثناء المسار المتلوي بمحاذاة جدار يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار وقد عزل القدس عن السكان العرب الذين عليهم المرور من معابر عسكرية حتى يصلوا إلى مدينتهم المقدسة.

٦٣٠ حاجزاً ومعبراً منتشرة بين الضفة وإسرائيل وتقطع أوصال الضفة وتعيق حياة الفلسطينيين وتهين كرامتهم. ٩٦ حاجزاً ثابتاً في الضفة ونصفها في العمق بعيد عن حدود الضفة مع إسرائيل، وهناك ١٧ حاجزاً في الخليل وحدها. ٣٦٠ حاجزاً من النوع المتنقل الطيار في الضفة وتقام بدون مبررات وذلك للحفاظ على توتر الفلسطيني حين يخرج من بيته. ٣٩ فقط من مجموع الحواجز هي معابر مقامة على الخط الأخضر الفاصل

بين الضفة وإسرائيل. كانت هذه المعلومات بعض مما اطلعت عليه ألزه قبل سفرها إلى فلسطين المحتلة، وهي الآن ترى توغل الجدار في المناطق الفلسطينية وقضم نصفها وانتشار المستوطنات والحواجز خارج الجدار، أي الوضع هو احتلال تماماً بحيث لا يمكن للفلسطيني النوم في بيته أينما كان وهو متيقن أن الجيش الاحتلالي لن يزوره في أية لحظة.

في المساء؛ اكتملت لدى ألزه آراء بأن إسرائيل تمارس حرباً نفسية منظمة متواصلة منذ زمن بعيد. كتبت إلى جودت تذكره بأنها تنتظر من ينقلها إلى الضفة، ووضعت ما يجول في رأسها ضمن عدة إرساليات واتساب تراثية. الرابي والفلاح: ذهب فلاح إلى الرابي يشتكي ضيق الحال والمكان لكونه لا يمتلك سوى بيت من غرفة واحدة يضمه مع الزوجة وثلاثة أبناء، وحوش صغير للبيت بالكاد يتسع للحمار والدجاجات العشر وعنزة. كان أمله أن يجد له الرابي حلاً يوسع عليه. «كل شيء سيكون على ما يرام، عليك بالصبر والمثابرة». قال الرابي للفلاح وطلب منه أن يدخل معه الليلة الحمار إلى الغرفة. لم تجد احتجاجات الفلاح نفعاً، وأصر الرابي على رأيه. في اليوم التالي؛ ذهب الفلاح إلى الرابي يولول من الضيق ورفس الحمار وضراطه، ويلعن هذا الحل الأرعن. هدأ الرابي من روعه وطلب منه أن يُدخل الليلة العنزة مع الحمار لينام جميعاً في الغرفة، وطمأنه أن الحل يقترب بسرعة. لم يجد الفلاح مناصاً وأغلق أذنيه على احتجاج الزوجة والأولاد، وبالكاد انتظروا شروق الشمس. لم يصدق الفلاح أذنيه حين طلب منه الرابي أن يضم الدجاجات إلى الفريق في غرفة النوم ويحضر إليه في اليوم التالي ليخبره بالنتيجة. لم ينم أي من البشر أو الطيور أو الحيوانات تلك الليلة في الغرفة المغلقة عليهم نتيجة التزاحم، فالدجاج يعتلي الحمار وهذا يرفس العنزة التي تصرخ طلباً للهواء

بينما تكور البشر بعضهم فوق بعض طلباً للحماية. «الليلة أخرج العنزة والحمار والدجاج ونم أنت وزوجتك وأطفالك في الغرفة واحضر غداً إلي لأعطيك الحل». في الصباح هرول الفلاح إلى الرابي شاكراً مادحاً مقبلاً يديه وشارحاً له نعيم النوم وهدوء المكان وسعته والأمن من حوافر الحمار ومناقير الدجاج. كان على جودت أن يفهم ألزه بأن هذا ما يريد الإسرائيليون إيصال الفلسطينيين إليه حين يعرضون عليهم أي حل بعد المعاناة المنظمة المستمرة طوال نصف قرن على احتلال الضفة والتي سبقها عقدان من الزمن منذ النكبة حتى النكسة.

تناولت ألزه الفطور مع زائرها في صالة فندق ناشيونال في شارع الزهرة المتفرع من صلاح الدين في القدس الشرقية. اتصل بها عبد الكريم قبل أن يصل إليها فالتقيا على الفطور بين عشرات السياح، وأيد فكرتها أن تحافظ على حجزها في الفندق. أخبرت موظف الاستقبال أنها قد تغيب ليلة أو اثنتين لدى أصدقاء لها، ثم انطلقا. استقلّا سيارة إسرائيلية سائقها عربي في شارع الزهراء وانعطفت السيارة يساراً إلى شارع الحريري ثم إلى ابن بطوطة فعلي بن أبي طالب، ثم اتجهوا شمالاً إلى ساحة الأقصى عبر بوابة دمشق. بيوت من طوابق قليلة معظمها مكسوة بالحجر، ومحال عربية الشكل والمحتوى، مطاعم ومحال إلكترونيات وهواتف وبيع لوازم العرائس. كانت الشوارع مكتظة بالسيارات المركونة ولا يمكن للسيارات المتحركة تجاوز بعضها بعضاً. قررت ألزه ألا تترجل وتؤجل زيارتها لساحة الأقصى إلى وقت آخر. استدارت السيارة بهم جنوباً على طريق الخليل. قبيل الوصول إلى معبر قبة راحيل انعطفت السيارة يساراً على طريق ترابي يحاذي الجدار العازل، وتجاوزت المعبر، والتف الطريق الترابي حول مدينة بيت لحم. كانت المخاطرة محسوبة إذا التقتهم سيارة

عسكرية، فالسائق عربي إسرائيلي يحمل سائحة تريد التأمل في الجدار، ومرافق عربي يحمل تصريحاً لدخول القدس. دخلوا بلدة تقوع بعد حوالى ساعة من السير على الطريق الترابي المتعرج، ولو قدر لهم السير من بيت لحم إلى تقوع مباشرة لاستغرقوا عشر دقائق لقطع اثني عشر كيلو متراً إلى الجنوب من مدينة المسيح.

لم تفهم ألزه ما قاله كريم للسائق، لكن السيارة اتجهت إلى قمة التلة المنبسطة التي تتناثر فيها بيوت البلدة، وترجل كريم ودعا ألزه لإلقاء نظرة. «ها هي بيت لحم في الشمال وخلفها القدس مباشرة تحتنا، وإذا استدرت جنوباً؛ سترين جبال الخليل فوقنا، والبحر الميت يلمع تحت الشمس شرقاً، وهذا السهل الأخضر دوما في الغرب هو مصدر الدخل الزراعي من أشجار الزيتون». كان كريم يتحدث أثناء الاستراحات تاركاً للزائرة التأمل في المنظر حولها. «وتلك التجمعات السكنية المتناثرة في السهل الشرقي كلها مستوطنات أصبحت تفصلنا عن البحر الميت وتحرمنا حق الرعي والزراعة في سهلنا الشرقي». كانت ألزه تستمع وتستدير إلى الاتجاهات ويمتص ذهنها هذه الطبيعة الخلابة والمواقع المرتبطة بالتاريخ الإنساني. «هنا تجدين الآثار لكل الحضارات التي أتت وذهبت، الرومان والإغريق، والديانات اليهودية والمسيحية والإسلام».

«أينما نظرت في بلدتكم رأيت مآذن جوامع، فهل بلدكم مزار ديني؟».

«لا، بل كما رأيت يصعب على الزوار الوصول، ويصعب علينا التجوال خارج البلدة والوصول إلى أراضينا. أعتقد أن لدينا خمسة عشر مسجداً متوزعة بين مناطق البلدة متنوعة التضاريس. العدد كبير بالنسبة إلى العشرة آلاف نسمة، ولكن الهدف هو تسهيل وصول كبار السن إلى المساجد أينما كانوا».

«وتدرسون الطلاب في المساجد؟»

«قطعاً لا.». قال كريم مستهجناً «لدينا ست مدارس وحضانتان.». قاطعته ألزه إذا كانت المدارس مختلطة، فأشار لها كريم إلى بيت أهل جودت وأخبرها أنهم يتوقعون وصولها الآن وأن طول الانتظار سوف يقلقهم.

تقافز الصغار حول ألزه، ولم يجبها أحد إذا كان كل هؤلاء من سكان البيت. أمسكت والدة جودت بيدها ثم قبلتها مراراً على وجنتيها وهي تنطق بعبارات الترحيب، وكريم يترجم بإيجاز. أجلستها الوالدة إلى جانبها على وسائد أرضية بسطت تحت معرش عنب، وأخذت تتحسس شعرها وذراعيها بحنية. «عمتي، جودت أخبرنا أنها صديقة عادية مثل عشرات الأصدقاء ومثل الكثير من الأجانب الذين يحضرون متطوعين إلى الريف الفلسطيني». أراد كريم إفهام عمته أن تخفف من لمس الزائرة.

«لكن الآخرين لم يرسلهم جودت إلينا، ولم يرسلك إليها في القدس.. أنا أعرف ليش بعثها لنا». قالت العمة وانتهت مقاومة كريم وأصبح على ألزه أن تتحمل أو تتصرف. «اسالها قديش عمرها، وكم أخ لها؟» لم يتجاوب كريم، فانتخى أكثر من طفل لتجريب إنكليزيتهم وسؤال الزائرة: ما اسمك؟ كم عمرك؟ سأل الأولاد. أنت جميلة، شعرك ناعم، قالت الفتيات الصغيرات وهن يتضاحكن لتجاوب ألزة معهن. انكمشت العمة قليلاً حين اكتشفت أن ألزه أكبر من جودت سناً. «اسألوها إذا لها أخت أصغر منها». مطت العمة شفتيها وهي تسمع المترجمين يؤكدون أنها وحيدة أبويها. «كريم اسألها ليش مش متزوجة؟»

«كيف عرفتِ يا عمتي أنها غير متزوجة؟ ربما متزوجة غير مرة». قال كريم بحزم حتى يوقف المترجمين الصغار، وأخبر الضيفة أن الجميع تواقون لمعرفة دوافعك للحضور وماذا يفعل المتطوعون هنا.

«هناك ناس يؤيدون الحق وآخرون يؤيدون الباطل». قالت الضيفة وطلبت من كريم أن يتحدث بلسانها بما يراه مناسباً. «المتطوعون في الخريف يشاركون في جمع الزيتون داخل مزارع مهددة من المستوطنين، وفي فترات أخرى يرافقون الصغار إلى مدارسهم عبر الحواجز والدوريات وبالقرب من المستوطنين، وإذا هجم المستوطنون على المزارع نشارك في ردعهم عبر الحديث والتصوير والتدافع أحياناً». صمت الصغار وهم يرتشفون العصير، آذانهم مع كريم وعيونهم تتابع ألزه التي شرحت لهم عن التظاهرات على الجدار، وعما يفعله المتطوعون من مناصرة في بلدانهم، ومحاولة إقناع مواطنيهم ببشاعة الاحتلال وشجاعة الفلسطينيين. «أخبرهم يا كريم أن كل بلد فيها أشرار وطيبون وغير مبالين، وعليهم أن يميزوا بين الناس ولا يكرهوا أمة بكاملها لسوء تصرف بعضهم، أو لموقف حكومتهم».

أطلق السائق بوق سيارته حين أفاق من قيلولة تحت شجرة خروب ضخمة. استأذنت ألزه وكريم للمغادرة، وشكر الوالدة التي أخبرتهما أن أبا جودت ذهب لإحضار الغداء، فواعدوها بزيارة أخرى، وقال كريم إنه سيعود وقت الغداء ليشاركهم في الطعام. وأضاف: «علينا الذهاب إلى بيت لحم لتجول ألزه فيها وتحصل على بعض الراحة، فقد كان يومها طويلاً». كان المخطط أن توصلهما السيارة إلى بيت لحم حيث ستبيت في أحد فنادق المدينة، ويحضر إليها كريم قبل الفجر ليذهبا لرؤية معبر قبة راحيل.

حجز لها كريم باسمه غرفة في فندق السلام الذي يعرف مديره، وهو يقع على الشارع الرئيس الموصل إلى المعبر. قبل أن يتركها لتستريح شرح لها عن بعض المواقع على خارطة للمدينة، وتواعدا على اللقاء في الثانية فجراً. لقد شاهدت العمال يبنون المستوطنات، وسمعت عن مسار يومهم

الطويل إذ يعودون في المساء إلى بيوتهم مرهقين، بالكاد يتناولون طعامهم وينامون من دون أي تفكير في عائلتهم أو قريتهم أو مجريات الحياة.

«هؤلاء يعتبرون أنفسهم محظوظين لحصولهم على تصريح عمل يخولهم دخول الحدود الإسرائيلية». قال كريم وهما يراقبان المعبر فجراً.

«وكيف يحصل البعض على تصريح ويفشل الآخرون؟» سألت ألزه كريم وهي تنظر مشدوهة لهول المنظر. كانت قد لفت رأسها بحطة سوداء لا تظهر خصلات من شعرها، وارتدت بنطالاً وقميصاً واسعين بحيث لا يتعرف إليها كأنثى إلا من قريب، وذلك حسب نصائح كريم الذي جلب لها هذا اللباس إلى فندق السلام قبل الثانية فجراً وانطلقا إلى المعبر من دون أي شراب أو طعام. اقترب منهما بائع قهوة فاشتريا فنجانين.

«من لديهم حسن سير وسلوك ولا توجد سجلات أمنية محلية أو إسرائيلية له يمكنه تقديم طلب ولديه فرصة للحصول على تصريح». قال كريم وسأل بائع القهوة من أين كل هؤلاء العمال.

«ليسوا كلهم عمالاً، فالكثير منهم مزارعون فقدوا أرضهم أو عملهم، وهم يأتون من كل مناطق وسط الضفة وجنوبها.. يأتي بعضهم منذ الواحدة وينام في الممر ليكون الدور الأول له حين يفتح المعبر». كان المنظر جنونياً تماماً بالنسبة إلى ألزه. ممران طويلان من الجدران الإسمنتية بعرض متر واحد، فوقها شبك حديدي قوي يحول الممر إلى نفق. هناك ممر خالٍ من البشر والآخر مكتظ بشكل أسوأ من علب السردين. هناك تدافع قاتل، وعمال ركبوا على الشبك الحديدي ليتجاوزوا من هم على الأرض ويفترض أن يقفزوا فوق الآخرين في نهاية النفق عند الوصول إلى شباك الرقابة العسكرية. فجأة؛ تعلق شبان بالسقف وكأنهم ممغنطون وأخذوا يزحفون إلى الأمام. ضحك بائع القهوة وهو ينظر إلى وجه ألزه

ونادى على القهوة ثلاث مرات متتالية وهو يغادرهما بحثاً عن زبائن لم يدخلوا بعد إلى معصرة الممر.

نظرت ألزه إلى كريم فشرح لها: «الممر الفارغ للأجانب والطوارئ. وهذا الازدحام متعمد. الجيش بوسعه إنهاء الأزمة لو فتح كل النوافذ العشر لتفحص الأوراق، ولكنهم لا يشغلون سوى نافذة الآن وعند الرابعة يفتحون نافذة أخرى. لذلك يتزاحم هؤلاء البؤساء ليكتمل حظهم بالوصول إلى أعمالهم قبل السابعة صباحاً وإلا لن يحصلوا على العمل».

«يدفعون الناس للعمالة والخيانة والقنوط سعياً وراء تصريح العمل، ثم يعرضونهم لهذا الذل الممنهج، ولا يتركون لهم مجالاً للتنمية المحلية ويستعيدون منهم أجورهم من بيع سلع إسرائيلية». أرادت ألزه القول لكريم إن السلطة الفلسطينية أشبه بهؤلاء، ولكنها أكملت استنتاجاتها: «لا توجد حكومة سيئة لشعب جيد».

«إذا بقيتم ساعة أخرى سترون من تكسرت ضلوعهم اليوم من الزحام، فهم يرقدون كل يوم على طرف الممر حتى يخف الزحام فيخرجوا سعياً إلى المستشفى». قال بائع القهوة وقد عاد إليهم من جولة بين العمال المتجمهرين قبل الوصول إلى عنق الزجاجة. كل يوم هناك ضحايا؟ سأله كريم.. «نعم كل يوم، الفرق هو في العدد. أحيانا تتكسر أرجل بعضهم أو تلتوح حين تلتصق الرجل في الزحام ويدفع آخرون صاحبها إلى الأمام». ترجم كريم ما قاله القهوجي، وأعلنت ألزه أنها لن تنتظر طويلاً فقد شاهدت ما يكفي. أخرجت هاتفها الجوال وألغت خاصية الفلاش في الكاميرا والتقطت بعض الصور على ضوء الكشافات. طلبت من القهوجي أن يلتقط لها صورة مع كريم والمعبر خلفهما.. هذه سترسلها فوراً إلى جودت.

قيادةُ الإسلام السُني

«عندما كنت في الصف الرابع الابتدائي، كان كتاب التاريخ المدرسي الذي تعلمنا منه في السعودية، يعود بنسب مؤسسي المملكة إلى سعود ووالده محمد المقرن بن مرخان. ثم سُحب هذا الكتاب من المنهج حين كتب باحث سعودي أن مرخان هذا هو تاجر حبوب عراقي، وقد حضر إلى نجد مع قافلة لقبيلة المصاليخ عائدة من العراق ومعه ابنه، ماك دان، الذي غير اسمه إلى المقرن وتزوج كل من الاب والابن من بنات العرب، وأنجبا الكثير، ومنهم محمد والد سعود. بعد انتشار هذه المعلومة عن الجد مرخان وأصله العراقي، توقف النسب الرسمي في طبعات كتب التاريخ الجديدة عند الحفيد سعود، وطمس اسم الجد مرخان، وحتى الآن فإن شجرة آل سعود تتوقف عند المقرن كأبعد ما تكون». كان الشاب المتحدث نحيل الجسم، يجيد الألمانية ولا يستعين بنص مكتوب أمام جمهور من الطلاب لبوا دعوة عامة إلى قاعة في جامعة هايدلبرج للاستماع إلى محاضرة ونقاش حول الخلفية التي يدور فيها الخلاف الخليجي الداخلي، وعلاقة ذلك بالإرهاب في مدن أوروبا، والاتهامات الخليجية المتبادلة، والتحركات الجديدة في السعودية على الصعيد الداخلي، وما يقال عن تفاهمات محتملة مع إسرائيل للتصدي لإيران وأنصارها في المنطقة. «لن أخوض في الكثير من التفاصيل، رغم أهميتها، لكن بعض التفسير للماضي لا مناص منه لفهم الحاضر». أعاد المتحدث ترتيب قصاصات أمامه وهو يسترق النظر إلى

الجمهور تفحصاً للغة الجسد. شاهد أناساً يعرفهم وفي مقدمتهم أستاذه الجامعي، وأيضاً صديقه جودت، وبعض زملائه الجامعيين.

«أقنع مرخان رجال القافلة أنه ابن عمهم وقد هاجر من الجزيرة مع والده بسبب خلافات عائلية وأصبح من أغنياء التجار، وأهدى لهم حمولة القافلة من الحبوب والتمر، فاعتزوا بقرابته وأشاعوا، حين عاد معهم، أنه ابن عمهم. استقر مرخان في قرية (أم الساهاك) وأقام لنفسه وعائلته قرية أسماها (الدرعية) لتكون مقراً لقبيلة أو لإمارة يُخطط لها وينطلق منها في التوسع، اذ كانت الجزيرة العربية تعج بالإمارات القزمة ومناطق نفوذ قبلية. تزوج مرخان وابنه المقرن الكثير من النساء، واقتنى جواري للإنجاب، واشترى عبيداً أتباعاً، وأعلن نفسه أميراً للدرعية. تنبهت القبائل القريبة لما يريد فهاجموه ودمروا عاصمته ونهبوها، لكنه هرب مع أتباعه إلى أرض غصيبة، قرب الرياض الحالية واستجار بصاحب الأرض فأجاره. بعد شهر واحد فقط قتلوا المجُير واستولوا على الأرض وأطلقوا عليها اسم الدرعية، مرة أخرى، وافتتح مضافة وأعلن تأكيد إسلامه لنفي الاشاعات، ونشر أتباعُهُ روايات أن أصله عربي من الجزيرة، وأنه يملك درع الرسول محمد الذي فقده في معركة (أحد) واشتراه اليهود آنذاك من قريش. واغتال أنصاره من أنكر أصله وقصته أو من عارضه، ومنح أولاده أسماء عربية. أنجب المقرن ابنه محمداً في الدرعية الجديدة، وهذا وبقية إخوته قلدوا والدهم وجدهم في الإنجاب، فوُلد لمحمد أبناء منهم سعود الذي أنجب محمداً آخر، أي محمد بن سعود بن محمد بن المقرن بن مرخان. التقى محمد بن سعود عام ١٧٤٥ شيخاً متشدداً اسمه محمد بن عبد الوهاب طرده أهل قريته لفظاظة آرائه، فلجأ إلى الدرعية. اتفق الاثنان على عقد حلف ديني سياسي، وبايع محمد بن عبد الوهاب أمير الدرعية محمد بن سعود على السمع والطاعة،

وبايعه ابن سعود على نشر دعوته إذا استتب له الأمر، واشترط ابن سعود في مبايعة الشيخ ألا يعارضه في ما يأخذ من الرعايا، فأجابه الشيخ على ذلك راجياً أن يخلف الله عليه من الغنيمة. توافق المحمدان على توسيع حكم الدرعية وإقامة دولة تقيم الشرع حسب مفهوم الشيخ. صار ابن سعود يغزو ويغنم والشيخ محمد يُنظّر للدولة بتكفير كل من لا يُذعن، ولتأكيد الاتفاق؛ تزوج ابن محمد بن سعود ابنة الشيخ محمد هذا. أعلنا إمارة وباشرا غزواً ونهباً للجيران معتمدين على تفسير أصولي متوحش للدين، واتهما كل سكان الجزيرة العربية بالكفر، وحللا غزوهم لإعادتهم إلى دين السلف الصالح، وسأعود لتبيان مفهومهما لذلك، وهو عموماً أشبه بما فعلته داعش في المناطق التي احتلتها. كانت نجد آنذاك جزءاً من شبه الجزيرة كما نعرفها الآن، وكانت تعج بالصراعات القبلية البدوية والغزو والنهب المتبادل. أعلن المتحالفان الدرعية مدينة هجرة ومن يصلها فهو آمن، فكثر تعدادهم وضاقت بهم وتوسعوا في غزو ونهب وسبي من لم يقدموا الطاعة، تماماً كما فعلت داعش لاحقاً. في عام ١٨٠٣ دخل الملك عبد العزيز إلى مكة، وهذا الملك غير مؤسس الدولة الثالثة. تم ترهيب مكة والمدينة إذ قام أتباع عبد الوهاب بتدمير كل الآثار الإسلامية وقبور الصحابة والأولياء وكل بناء حول المسجد الكبير، وكانت قوات الغزو قد أحدثت مذبحة في الطائف حين دخلوها قبل مكة. في نوفمبر ذلك العام اغتال شيعي الملك عبد العزيز انتقاماً لقتل خمسة آلاف في كربلاء، فتبعه في الحكم ابنه سعود الذي واصل الغزو للجزيرة حتى مات عام ١٨١٤، واعتقل العثمانيون ابنه عبد الله بعد تحريرهم مكة والمدينة. أرسلوه إلى اسطنبول، حيث أهين في شوارعها ثلاثة أيام، ثم أعدم، وقطعوا رأسه ورموه بالمدفعية، استخرجوا قلبه وقطعوه وربطوه إلى جسده. في عام ١٨١٨ بلغ

الغضب الإسلامي الرسمي مداه على أفعال السعوديين والوهابيين إلى درجة محاصرة إبراهيم باشا، ابن محمد علي، بطلب عثماني، لعاصمة السعوديين في الدرعية وتدميرها وتشتيت بقايا السعوديين والوهابيين في الصحراء. حين غادر الجيش المصري نجد أعاد الأبناء بناء دولتهم الثانية عام ١٨٢٤ ورفعوا علماً قريب الشبه بعلم داعش الآن ولكن خلفيته خضراء وليست سوداء. تواصل الفتح السعودي لمناطق الجزيرة، ومقاومة السكان للتطبيق المتوحش لدين الحركة الوهابية طوال قرن من الزمان حتى تحالف عبد العزيز مع الإنكليز وأجْلَوْا السلطان الحسين بن علي عن الحجاز إلى العراق، وسلما الجزيرة كلها لعبد العزيز وعيناه ملكاً على الدولة السعودية الثالثة، ومنحاه قوات حربية وأمـوالاً ومستشارين، منهم جون فيلبي الشهير، وذلك طبعاً في مقابل اتفاقيات وتعهدات قدمها عبد العزيز، ولها علاقة بمخطط بريطانيا إقامة دولة صهيونية خارج الجزيرة، في فلسطين، وبإخضاع المنطقة اقتصادياً للإنكليز». كان الجمهور في القاعة صامتاً كأنه مسحور مما يقص عليهم هذا الشاب الذي يعرف قلة منهم أنه يتلو عليهم من الأفكار التي يُحضرها لإعداد رسالة ماجستير في العلوم السياسية. كان جودت مثل الكثيرين قد ارتفع حاجباه وتقوسا إذ انشد تماماً للسرد من صديقه اليمني هذا الذي عاش مع والديه في السعودية، والذي لم يناقشه من قبل في محتوى رسالته. توقع جودت أن يُفصح المحاضر عن نيّات مرخان، أو يفسر لماذا أصر مرخان على تسمية عاصمته مرتين بالدرعية.

«يتبنى أتباع الوهابية فكرة الدولة الدينية ويرون أن الدولة لا بد أن تُحكم بالشريعة الإسلامية، ويطبقون ذلك من خلال بعض الآليات، منها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستمر تطبيقها حيث تجدد تأسيس هيئة كبيرة بالمملكة العربية السعودية الحديثة لإكراه الناس على تطبيق

رؤيتهم. أتباع الهيئة هم طائفة من الموظفين المدنيين يجوبون الشوارع ويفرضون ما يُعتبر في باقي البلدان الإسلامية بأنه خيار شخصي، وإن كانت قد تفاوتت درجة فرضهم للعبادات والأخلاق حسب الحقبة، حيث كان بالرياض، في بداية الدولة السعودية الثالثة الحالية، إذا مر أحد المُطوعين بجانب منزل وشم رائحة تبغ، كان لا يتورع عن اقتحام المنزل وضرب المدخن، أما الآن فإنهم يمنعون النساء من التبرج والتزين وإظهار شعورهن أو قيادة السيارات، ويكرهون الناس على إقفال محالهم والذهاب للصلاة في مواعيدها، وغير ذلك مما ليس مجال ذكره الآن وهو معروف ويستقبله السكان كجزء من واقع الحياة تعودوه، أو مرتعبين من العمل على تغييره. أساس الفكرة الوهابية السعودية هو طاعة ولي الأمر مهما فعل، والمسلم عليه التظلم لله يوم القيامة، وهم بذلك يستقون فهمهم هذا من ابن تيمية الذي عايش الغزو التتاري لبغداد في القرن الرابع عشر وجعلته تلك الظروف يطور رؤيته الدينية المتشددة. لقد اعتمد محمد بن عبد الوهاب في القرن الثامن عشر فكرة التكفير لأي مسلم ينخرط في فعل أو قول يمكن تفسيره ضد النظام الحاكم، أي الملك. وعلى الصعيد الاجتماعي كل من يُجل الموتى والقبور ويزور الأولياء ويعمل بالنذور والحج بالنيابة أو الاحتفال بالمولد النبوي، يجب قتله وسبي نسائه وبناته ومصادرة أمواله وأملاكه. على كل مسلم أن يقدم الولاء والبيعة شخصياً لملك أو حاكم واحد، ومن لا يفعل ذلك يُقتل وتُسبى نساؤه وبناته وأمواله حسب نصوص محمد بن عبد الوهاب الذي أنكر إسلام الشيعة والصوفيين وأية طوائف أخرى، وبالتالي يُطبق عليهم ما يُطبق على المخالفين والكفار، وهنا يكمن سر العداء الحديث بين الرياض وطهران. بالنسبة إلى النظام السعودي الوهابي الأول كان العثمانيون والمصريون، وهم من السنة، غير مسلمين

ويجب منعهم من زيارة مكة، وذلك لممارساتهم تجاه القبور والأولياء. هذه النظرية الوهابية جاءت آنذاك هدية لمحمد بن سعود وقبيلته المتنامية في الدرعية. الآن بوسعهم ممارسة ما كانوا يفعلونه من غزو للجيران، ولكن باسم الدين وفرض التوحيد، وعظموا فكرة الجهاد والاستشهاد، وأن الشهيد سيذهب مباشرة فور موته إلى الجنة حيث النعيم والشروحات المهولة من الرفاهية المعيشية والجنسية. القبائل المهزومة كانت تُخير بعد النهب، إما التزام الوهابية وإما الموت. مع عام ١٧٩٠ كانت معظم شبه الجزيرة تحت سيطرة هذا التحالف وشنوا غارات على سوريا والعراق والمدينة في الحجاز. في ١٨٠١ هاجموا كربلاء في العراق ودمروا الضرائح وقتلوا آلاف الشيعة دون تمييز. هذه النبذة التاريخية الموجزة لتُظهر تكرار التاريخ والتوالد المتكرر للسلفية والتخلف المتناسخ طالما لن يتم فصل الدين عن الدولة، خصوصاً وأن أموال النفط أصبحت منذ ثلاثينيات القرن الماضي تُضخ لتقوية ونشر الوهابية في الدول الإسلامية وعبر العالم». ابتعد المتحدث عن المنصة قليلاً ورفع وجهه مباشرة للمستمعين ورأى العيون مسلطة عليه فواصل السرد بدون العودة إلى ملاحظات مكتوبة، وطمأن جمهوره أنه لن يطيل عليهم. وواصل:

«أما النظرية السنية الأحدث لإقامة دولة إسلامية فتعود إلى حركة الإخوان المسلمين التي ولدت في مصر في عشرينيات القرن الماضي وفي أجواء نيابية وبرلمان وأحزاب ونظام ملكي دستوري وانفتاح عالمي ساد مصر آنذاك. وهي لذلك حركة تختلف أحياناً عن الوهابية في رؤيتها لأسلوب الحكم، وتتفق معها أحياناً أخرى. حركة الإخوان المسلمين تعترف بالنظام الديمقراطي والانتخابات عند الضرورة، ولكنها طبعاً تسعى لاعتبار الدين والشرع أساس حكم الدولة على غرار الدولة التركية

الآن، وما سعى الرئيس المصري محمد مرسي إلى فعله حين نجح في الانتخابات بعد ربيع مصر. انتخابات نعم، لكن نظام الدولة إسلامي بغض النظر عمن سيفوز في الانتخابات، وبالطبع لديهم تشدد أقل بالنسبة إلى الضرائح والقبور وقطع الرقاب». تذكر جودت وهو يستمع إلى صديقه ما عرفه عن مطالبة الإخوان المسلمين في مصر للرئيس عبد الناصر بتطبيق مظاهر إسلامية في البلاد لأنه الحاكم، لكن الرئيس المصري رفض ذلك فناصبوه العداء.

«المُحدثون العرب، وبعضهم أساتذة الإخوان الحاليين، تأثروا بما عاصروا في فرنسا. مثلاً جمال الدين الأفغاني (١٨٣٩-١٨٩٧) طالب بالثورة على النظم السائدة في العالم الإسلامي واستبدالها بنظم تعتمد الشورى وانتخاب برلمان ينظم شؤون الدولة. كتب الأفغاني للخليفة التركي عبد الحميد الثاني: إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه، وليس من يعترض منهم.. أتيت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك، لأني رجعت عنها. وكتب جمال الدين إلى شاه إيران أيضاً: اعلم حضرة الشاه أن تاجك وعظمة سلطانك وقوائم عرشك سيكونون بالحكم الدستوري أعظم وأثبت.. كان محمد عبده من تلاميذ الأفغاني (توفي عام ١٩٠٥) ورأى المشكلة تعود إلى جهل الأمة بقيم الإسلام وانقيادهم لرجال دين يسبحون وينظرون للحاكم، فأخذ يدعو إلى تعديل وظيفة رجال الدين بتوجههم إلى الاستقامة والصدق والتسامح والعدل ما يشكل جوهر الإسلام، وأنه لا علاقة يجب أن تكون لرجال الدين بالسلطة المدنية للدولة، والهدف من هذه الدعوة هو تجريد الحكم الاستبدادي من شرعيته الدينية. تلميذ محمد عبده وهو الشيخ محمد رشيد صاحب مجلة المنار تأثر بالتجربة الفرنسية ومقولة أن الأمة هي

مصدر السلطة واعتبر التجربة الفرنسية تطبيقاً لنظام الشورى الإسلامي، لكن الشيخ اعتبر أن من لهم حق الاختيار ليس كل الشعب بل أهل الحل والربط مثل العلماء والأمراء والوجوه المؤثرة اجتماعياً ثم توسيع الدائرة الانتخابية تدريجاً. تلميذ هذا الشيخ هو الإمام حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩) وهو مؤسس حركة الإخوان المسلمين وهو مؤيد للحكم الدستوري الذي يعتبره متمماً لنظام الشورى وأن مسؤولية الحكام أمام الشعب، وقال:.. ولهذا يعتقد الإخوان المسلمون أن نظام الحكم الدستوري هو أقرب النظم الحاكمة في العالم كله للإسلام، وهم لا يعدلون به نظاماً آخر». أكد المتحدث لمستمعيه أنه يقترب من النهاية ويلخص بقدر الإمكان، وكرر أهمية ما يقوله حتى يمكن فهم ما يجري الآن. وواصل حديثه بدون تململ من الحضور: «القائد الذي غير نهج الإخوان هو سيد قطب. كان مدرساً، واستشعر قيام ثورة ١٩٥٢ في مصر فانضم إلى الضباط الأحرار وأصبح مستشاراً أراد توجيههم إلى رؤاه، ولكنهم تجاهلوه واتبعوا نظاماً اشتراكياً، فانضم إلى حركة الإخوان وأخذ يحرضهم لرفض منهج الدساتير أو الاحتكام إلى الأغلبية، وسعى إلى تكفير المجتمع لإعادته إلى الصراط، أي ألغى أي توجه وتقبل لمبدأ الديمقراطية الذي ساد فكر الإخوان من قبله. يقول سيد قطب: إن العالم يعيش اليوم في جاهلية من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها.. هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله على الأرض وعلى أخص خصائص الألوهية، وهي الحاكمية. إنها تسند الحاكمية إلى بني البشر فتجعلهم أرباباً.. ويطالب قطب بطليعة تخاصم الجاهلية وتقاتلها في كل أرجاء الأرض على غرار مقاتلة الرسول للجاهلية.. تكمن الطليعة وتترقب ثم تقفز على الحكم، أي تماماً كما فعل الوهابيون في القرن الثامن عشر، وكما فعلت داعش في

القرن الواحد والعشرين. كل هؤلاء نسوا تماماً أن الحاكمية إلهية وتمنح من الرب للأنبياء، وأنهم ليسوا أنبياء. هكذا قبضت السلطات المصرية على سيد قطب بعد أن حاول الإخوان اغتيال الرئيس المصري وتمت محاكمته وإعدامه واستتب العداء بين الإخوان والسلطات حتى جاء الربيع العربي، وشاءت الظروف نجاح المرشح الإخواني محمد مرسي بالرئاسة، أي اعترف الإخوان بمبدأ الانتخابات والديمقراطية فشاركوا ونجحوا حتى انقلب الشعب عليهم بتحرك جماهيري مهد لعودة العسكر إلى الحكم».

«أعتقد أن الصورة بدأت تتضح الآن.». قال الشاب وهو يبتسم كمن سيقدم حل مسألة رياضية مستعصية. «..النظام السعودي الوهابي الثيوقراطي تماماً والذي يقود الإسلام السني أينما كان برضا واعتراف وتعامل العالم الرسمي، ارتعب من نجاح فكرة النظام الإسلامي الديمقراطي الذي لا يمانع في تغيير الحاكم. هكذا ضخت الرياض مليارات على الانقلاب العسكري ضد الرئيس الإخواني المنتخب محمد مرسي في مصر، وذلك حتى لا تنافس السنية الديمقراطية أختها الثيوقراطية في قيادة الإسلام السني. كان الرئيس المصري المنتخب محمد مرسي يحظى بدعم مالي ومعنوي هائل من قطر وتركيا. سقط مرسي وبقيت قطر وتركيا تدعمان فلول الإخوان المسلمين وانتفاضاتهم وتهول في حجم مقاومتهم، واحتضنتا قياداتهم. كان هدف قطر من دعم الإخوان التأثير في مجريات وقيادة العالم العربي والإسلامي السني عبر دعمها المالي والإعلامي للإخوان المسلمين أينما نجحوا في خضم الربيع العربي. على الطرف الآخر؛ كانت السعودية تسعى لتدمير الإخوان أينما وجدوا حتى لا يقدموا نموذجاً إسلامياً ديمقراطياً يؤثر في وضعهم في المملكة ورؤيـة العالم إليهم؛ خصوصاً وأنهم صدروا الوهابية إلى دول عربية وآسيوية وإلى مسلمين كُثُر في أوروبا.

كان هناك تقارب أيديولوجي واستثناء انتهازي في العلاقة بين الوهابية السعودية والإخوان في مصر أيام الرئيس جمال عبد الناصر الذي اشتبك مع الإخوان ورفض أسلمة الدولة حسب رؤيتهم. طالب الإخوان الرئيس المصري بفرض الحجاب وإغلاق دور السينما والمسارح والمقاهي وإلغاء المجالس النيابية، أي (سعودة) مصر. رفض عبد الناصر مطالبهم فحاولوا اغتياله وحاربوه بدعم من السعودية التي اعتبرت عبد الناصر آنذاك الخطر الأكبر الذي ينافسهم في قيادة الأمة العربية السنية، والإخوان هم الخطر المنافس الأصغر المؤجل. ناصبت السعودية عبد الناصر العداء الشامل في اليمن حين أرسل الجيش المصري لنصرة أنصار الوحدة ضد الإمام. تخلصت الرياض من خطر المنافسة العروبية الناصرية حين هاجمت إسرائيل، بطلب أميركي، مصر وسوريا عام ١٩٦٧. تاريخ الوطن العربي بعد نهاية الخلافة العثمانية مصبوغ تماماً بمساعٍ سياسية للهيمنة والصراع على التحكم في كل العرب، سواء عبر المال أو القوة أو الأيديولوجيا».

في اللحظة نفسها التي نظر المتحدث إلى ساعته واطمأن أنه لم يُطِل على الحضور الذين لم تتبخر مظاهر الاندهاش والتشوق عن محياهم، اهتز هاتف جودت في جيبه وعرف أنه تلقى رسائل واتساب، وخمن أنها من ألزه التي تجوب فلسطين المحتلة. شرب المتحدث من زجاجة ماء أخرجها من حقيبته وأكمل: «هزيمة حزيران عام ١٩٦٧ كانت فرجاً للمحافظين وهزيمة للحداثة العربية وهزيمة عسكرية على يد دولة دينية صغيرة، إسرائيل، وبالتالي؛ قال المحافظون إنه انتقام إلهي والحل هو العودة إلى الدين.. وكان الإخوان والوهابية ضد الناصرية والقومية العربية. بعد النكسة؛ عادت مظاهر التدين في اللباس وسطحيات أخرى وتوسعت الأفكار الأصولية بدعم وهابي فكري ومالي في كل الدول العربية. استغل المحافظون أمية

القراءة والثقافة لدى أغلبية النساء العربيات وشرحوا لهن بأساليب عدة منها الدعوة والدعم والفضائيات أن دورها هو حماية الدين بمفهومهم طبعاً. هكذا صبغت البيوت عبر المرأة التي تؤثر على الزوج وتُربي الأجيال. أضف لذلك أن المصريين وغيرهم من فقراء العرب انبهروا من الغنى في السعودية، منبع الدين، وربطوا بين التدين السعودي وتوفر المال الإلهي».

«الآن؛ نعود إلى الحاضر، وإليكم المفاجأة: لقد سمعتم كيف كسبت داعش أسلحة الجيش العراقي الحديثة، وكيف أسقطت الطائرات الأميركية الضخمة الأسلحة إلى داعش، بالخطأ طبعاً، والسرعة التي احتلت فيها داعش مناطق في العراق وسوريا، والاستغراب من الجميع كيف نجح هؤلاء في كل هذا، ولماذا شجعت حكومات فرنسا وبريطانيا ذهاب الشبان لنصرة داعش، ولم تعترض تركيا طريقهم. كان الهدف إقامة دولة سنية وهابية في أكبر منطقة ممكنة داخل العراق وسوريا، وقد كرر الرئيس ترامب مراراً قول ما هو واضح للجميع، أن أميركا، إدارة أوباما، هي التي أقامت داعش. وابتداءً من عام ٢٠١٤، وتحت قيادة زعيمها أبي بكر البغدادي، انتشر تنظيم داعش بشكل ملحوظ، وحصلت على الدعم في العراق بحجة الحد من التمييز الاقتصادي والسياسي ضد السنة العراقيين، وهذا ما أقنعت السعودية به الرئيس أوباما وطالبته بتوازن بين تأييده للشيعة في المنطقة واتفاقياته مع إيران، التي أغضبت إسرائيل أيضاً (ولطفت الأجواء علناً بين الرياض وتل أبيب) وبين ضرورة دعم أميركا للسنّة. هكذا تم لداعش وجود كبير في المحافظات العراقية السنية، ومن ثم؛ المناطق السورية من الرقة وإدلب ودير الزور وحلب، وذلك بعد الدخول في الحرب الأهلية السورية التي أشعلتها السعودية وقطر ضد الحكم العلوي السوري الأقرب عقائدياً لإيران. إلا أن تقدم داعش توقف بعد إنشاء تحالف، من عدة

دول متناقضة التوجهات والاهداف لمحاربة التنظيم، يشمل دولًا عربية وإسلامية وأجنبية، فلم يعد بوسع أي طرف تقبل وتحمل مسؤولية دعم داعش أو السكوت عنها. ما بين أغسطس ٢٠١٤ وأبريل ٢٠١٥، خسر تنظيم الدولة (داعش) ٢٥٪ إلى ٣٠٪ من الأراضي التي يُسيطر عليها في العراق مثل مدينة الفلوجة، ثم البصرة والموصل وتلعفر حتى صيف ٢٠١٧. وها هو تنظيم داعش ينحصر وينهزم جغرافياً في سوريا الآن حين توحدت إرادة القوى المتضاربة سابقاً، وحين خسر داعش مناصريه شبه السريين. السبب الرئيس في تصدي السعودية لاحقاً لداعش بعد إنشائها؛ أنها تمردت وباشرت عمليات إرهابية ضد مساجد الشيعة داخل المملكة وروجت أن النظام السعودي يتراجع عن الوهابية والسلفية، بل طبعت داعش كتاب (التوحيد) لمحمد بن عبد الوهاب ووزعته على الناس في البصرة والموصل. وحسب رؤيتهم وجب احتلال مكة والمدينة ليصبح للخلافة وزنها الديني الفعلي. ويمكن بسهولة التعرّف إلى أوجه الشبه في الرؤية والممارسات الوهابية القديمة والداعشية: تكفير للمسلمين الذين لا يبايعون، وتحليل غزوهم وسبيهم وبيعهم في الأسواق، جلد وحرق وقطع أيدي وأرجل وإعدامات بقطع الرؤوس في الميادين».

خطر لجودت أن يشير لصديقه لاحقاً أن إعلان داعش الخلافة أكسبها في البداية تأييداً شعبياً؛ لأن الكثير من العرب يعتقدون أن مأساتهم بدأت مع نهاية الخلافة العثمانية، تلك الخلافة التي عملت بريطانيا على إنهائها حين دعمت الدولة السعودية ضد الخلافة العثمانية، وحين أصرت على إنهاء الخلافة في تركيا نفسها شرطاً للاعتراف باستقلال تركيا بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى، كما اشترط الإنكليز إقامة دولة علمانية في تركيا فقبل أتاتورك ذلك ونصب رئيساً وحارب أوجه الدين وفرض العلمانية،

وهذا من أسباب كراهية العرب للعلمانية أيضاً إذ ربطوها بممارسات فرضها الأجنبي وتفرضها الدولة ضد المظاهر الإسلامية.

«لقد توافقت سياسة الأنظمة الخليجية الثيوقراطية على تدمير الأنظمة العربية الجمهورية، على أمل فوز الإخوان بالنسبة إلى البعض، وفوز السلفيين الوهابيين بالنسبة للبعض الآخر. ثم اختلفت الرؤيتان وتصارعتا بعد سقوط نظام مرسي الإخواني في مصر. الفريق الأول يريد، وينفق، على عودة الاخوان ليهيمن من عبرهم على الساحة، بينما السعودية ترى في تقبل الإخوان لفكرة الانتخابات خطراً على مصير الحكم الثيوقراطي في كل الخليج. أما على صعيد داعش فقد فشلت في ترويج الأفكار الوهابية القديمة في مناطق سيطرتها، وأساءت إلى مفهوم الخلافة، وكان هذا من أسباب هزيمتها على الأرض ورفض بقية جمهور السنة لها عبر المنطقة والعالم. لقد فضحت داعش نفسها بممارساتها، الأيديولوجية السلفية، وحين انفضحت، تخلت عنها السعودية ثم تركيا، خصوصاً حين أعلنت أن غايتها هو حكم مكة والمدينة لتحقيق دولة الخلافة في بلاد المسلمين حسب مبدأ: قائد واحد، سلطة واحدة، جامع واحد». تنحى المتحدث قليلاً خلف الميكروفون، واستقبل التصفيق بانحناء وشكر بوضع اليد على القلب.

«لقد تنبهت إلى أن العام الذي التقى فيه المحمدان ،١٧٤٥، وشكلا حركة دينية تريد العودة إلى الأصول بتفسير متشدد.». قال أول معلق على ما استمع إليه مع بقية الحضور «..ذلك العام تناسب مع احتدام الصراع بين التنويريين والأصوليين في أوروبا، وتحديداً في فرنسا التي كانت تطارد فولتير وبقية الفلاسفة. من بريطانيا البروتستانتية كتب فولتير آنذاك في إحدى رسائله إلى فرنسا، بأن الإنكليز أكثر تقدماً، لأن القساوسة في

الكنيسة ينصحون الرعية باللجوء إلى حُقن التطعيم للعلاج والوقاية، المكتشف حديثاً آنذاك، بينما الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا تمنع التطعيم وتقول للرعايا إنه من عمل الشيطان وإن الأعمار بيد الله. بعد أربعة عقود؛ وصل الصراع في فرنسا إلى الثورة ووضع الحد لرجال الدين، وبداية عهد الحرية والعدالة والمساواة.. السؤال بالطبع لماذا نجح الفكر الأصولي في التحكم في المسلمين طوال هذه الفترة، خصوصاً وأن ما كان يجري في أوروبا من تنوير ونهضة علمية وتحرر للإنسان وفصل الدين عن الدولة، لم يكن خفياً على المسلمين، أو أقله لم يكن خفياً عن النخب التي كان عليها قيادة جيش التنويريين؟».

«الإجابة والتعليق مفتوحان لأي شخص منكم أيضاً، أنا لا أحتكر المعرفة أو الحقيقة، بل طالب للعلم». قال الشاب بأدب وهدوء قبل أن يجيب عن أول سؤال من الحضور، وأكمل: «التنوير الأوروبي الذي وصل إلى فرنسا بعد أوروبا البروتستانتية جاء أصلاً من المسلمين، وتحديداً من فلسفة ابن رشد الأندلسي الذي ولد قبل ستة قرون من عصر التنوير والثورة الفرنسية.. وهنا المعضلة، فابن رشد طالب بتفعيل العقل في تفسير الدين، أي الابتعاد عن الغيبيات ومواكبة التطور العلمي مع الاحتفاظ بالروحانيات، ولم يكن بوسعه آنذاك المطالبة بفصل الدين عن الدولة. لكن رجال الدولة والدين في قرطبة هاجموه وأقنعوا الخليفة الموحدي بنفيه من الأندلس، ولم يحكم عليه الخليفة بالموت بسبب خدماته العلمية والطبية في بلاطه. المشكلة أن الفلسفة التنويرية بقيت نخبوية في الإسلام وذلك بدعم من القهر والوضع الاقتصادي. حين تُتهم بالكفر فتُقطعُ رأسُك وتُسبى حريمك وبناتُك وتُنهب أملاكك مهما كانت، بينما دينك يطلب منك الصبر وترك أمر الحاكم لله لاحقاً، فمن الصعب خلق كتيبة من الفلاسفة تشكل جيشاً

من التنويريين.».. صمت المحاضر وهلةً وأبدى بعض الحضور رغبة في السؤال أو التعليق ولكنه استدرك: «..حاكمنا غني ومتجبر ومتمسك بكرسيه. علينا ملاحظة التالي: عندما بدأ الربيع العربي قبل سنوات، جاء في الدول الأكثر انفتاحاً وفي جمهوريات غير متزمتة دينياً. ثم فطنت الثيوقراطيات للأمر فغيرت قطار الثورة إلى اتجاهات دينية، وأقامت حركات مسلحة دينية انتحلت صفات السلفية والأصولية ومارست القمع ضد الجمهور وضد النظام الدستوري الجمهوري، فسقطت بعض الأنظمة وهاجر من تمكن من الجمهور عبر البحر بسبب ممارسات المنظمات الإرهابية بالدرجة الأولى. أي بدل أن تتحول الثورات العفوية السلمية منذ مطلع ٢٠١١ إلى المطالبة بالإصلاح ولثورات تقدمية، اقتيدت بالقوة والمال والتضليل الإعلامي المبرمج لتطالب بالعودة إلى السلفية وظهرت المنظمات الجهادية السلفية ومنها داعش حتى تحولت فكرة الثورة إلى بعبع للشعوب».

«السؤال الذي يجول في خاطري هو: لماذا سكتت أوروبا على السلفية الإسلامية طوال القرن الماضي، ولماذا تسكت إلى الآن بعد كل ما وقع من أحداث وما يتهدد أوروبا ربما لعقود قادمة؟» سألت سيدة متوسطة العمر بصوت جهوري، تجلس في الصف الأول ولا يبدو عليها من طلاب الجامعة.

«هذا السؤال المهم مفتوح للعديد من الإجابات الواضحة والأخرى المبهمة والتي قد تنغمس حتى في نظرية المؤامرة.». أجابها الشاب وهو ينظر إلى الحضور بحثاً عن متطوع أو راغب في الإجابة، ثم أكمل: «حتى مطلع عشرينيات القرن الماضي لم تكن شبه الجزيرة العربية تشكل أي مطمع اقتصادي لأي من القوى الغربية. لقد دعم الإنكليز آنذاك أية

تطورات سياسية محلية تؤدي إلى مناهضة العثمانيين، وإلى عدم المطالبة بإقامة الخلافة الإسلامية. هذا ما كانت قد أصرت عليه بريطانيا، ضمن أمور أخرى، في مؤتمر لوزان نوفمبر ١٩٢٢. بعد اكتشاف النفط تحالفت بريطانيا ثم الولايات المتحدة مع الملك عبد العزيز على استغلال الآبار مقابل ضمان دور القيادة السعودية للمسلمين السنة وبشرط عدم إعلان خلافة. أقنع الأوروبيون أنفسهم تدريجاً أن التواصل بين الدولة السعودية الثالثة والعالم، وكثرة الأموال لديها، ستؤدي إلى الانفتاح والتغيير التدريجي. لكن بدل التقدم الإيجابي في مجال حقوق الإنسان والانفتاح الاجتماعي والانخراط في الحياة العصرية وقع العكس، بمعنى أن بلدان الخليج النفطية الغنية الثيوقراطية المنتمية بدرجات متفاوتة إلى الوهابية، باشرت تصدير وتسويق هذا الإسلام البدوي عبر العالم، وأنفقت مئات الملايين على بناء مؤسسات ومراكز إسلامية تروج العقيدة الوهابية في أوروبا وأميركا، وها نحن نرى النتائج. أي إن السكوت الأوروبي أو المطالبة الخجولة للإصلاح قد قُبض ثمنها مصالح نقدية من نهب للنفط وتصدير للصناعات وخصوصاً الأسلحة، والحفاظ على البداوة الدينية ما دامت أنها تعطيهم النفط والمال. عموماً؛ قبل عام ١٩٧٩ لم تكن السعودية قد تجاوبت بأي شكل ملحوظ مع آمال أصدقائها في الغرب، ولكن في ذلك العام انتكست الأوضاع في قفزة إلى الماضي. في فبراير ١٩٧٩ انتصرت الثورة الإيرانية الشيعية وعزمت على تصدير الثورة إلى الجيران، وتحركت قوى دينية في الخليج تسعى لتقليد هذه الثورة، ثم احتلت مجموعة أشد تكفيرية الكعبة، وغزا الاتحاد السوفياتي أفغانستان بعد عشرين يوماً على تحرير الكعبة بقوات أجنبية، فتعزز النشاط والتأثير الديني للشيوخ ومنحوا مناصب وسلطات مهمة واشتد تأثير وصلاحيات هيئة الأمر بالمعروف التي تسلطت على

الإناث. هذه التطورات أعادت هيمنة رجال الدين على المجتمع فأقفلت دور السينما والمسارح القليلة وقيدت حرية النساء تماماً وأعلن الفصل بين الجنسين. هل تعلمون أن مفتي المملكة العربية السعودية حتى عام ١٩٩٩ وهو رئيس هيئة العلماء ورئيس جامعة ويتقلد الكثير من المناصب، كان يُكفر كل من يقول إن الأرض تدور حول نفسها، ويبرر ذلك بالكثير من الأسباب مثل رؤيته الشمس تشرق وتغيب، ولو كانت الأرض تدور لوقعنا، ولتحركت الجبال، ولاختلف موقع القبلة مع كل صلاة، ولأصبحت دول المغرب في المشرق.. وبالكاد اقتنع أن الأرض كروية، وقد توفي وهو على فتواه تلك. المفتي الذي تبعه من أحفاد محمد بن عبد الوهاب وليس هنا مجال تزويدكم بالفتاوى السائدة. لقد اضطر الحكم الثيوقراطي لمسايرة القوى الأكثر تخلفاً لضمان الاستمرار في الحكم. من جهة أخرى شجعت السعودية ودول الخليج صدام حسين على مشاغلة إيران الشيعية عسكرياً بعد الثورة مباشرة، وامتدت الحرب عشر سنوات. وتصدت دول النفط، وخصوصاً السعودية، لمقاومة السوفيات في أفغانستان عبر تشكيلات المجاهدين الذين تم تجميعهم من العالم العربي والإسلامي، وأصدرت هيئة العلماء السعودية فتاوى إيجابية عن الإخوان المسلمين لكسب أتباعهم في الانضمام إلى المجاهدين الذين تحولوا إلى تنظيم القاعدة الذي حرر مع الطالبان، والدعم والتبني الأميركي المباشر، حرروا أفغانستان عام ١٩٨٩، بل انهزم الاتحاد السوفياتي وانهار، وسُجل ذلك انتصاراً للأصولية والسلفية بمن فيهما الإخوان المسلمون الذين تغلغلوا في المجتمعات العربية ومنها السعودية حتى تبنوا (غزوة منهاتن في ١١ سبتمبر ٢٠٠١) فانتهت علاقة المصالح مع الأميركان. كان تنظيم القاعدة أقل تشدداً عقائدياً من الوهابية المتمسكة بتعليمات القرن الرابع عشر والتي

تدعم النظام، وتحرك التنظيم للانقلاب على الحكم، وبقية قصتهم معروفة. وبالمناسبة تلك القصة تتكرر الآن مع داعش التي خُلقت من القوى نفسها لهدم جمهوريات وإقامة دولة سنية إسلامية، فإذا بها تقيم خلافة وتنظر إلى السيطرة على الكعبة وقيادة الإسلام السني، وها هي تواجه مصير القاعدة».

«ما هو الموقف الأيديولوجي الشيعي، أو بالتحديد الإيراني، من قضية الحُكم والحاكمية، وأين تقف إيران الآن في صراع الضواري الدائر في المنطقة؟» سأل جودت صديقه ليتيح له فرصة استكمال المعلومة الدينية لطرفي الإسلام.

«باختصار.». قال المحاضر رافعاً يده بالشكر والتحية «.. النظرية الشيعية تعتبر أن الحاكمية لله والرسول والأئمة الاثني عشر من أهل البيت، ولكون الإمام الثاني عشر قد غاب (عام ٨٧٣ م)؛ وحتى يعود فإن الولي الفقيه ينوب عنه في قيادة الأمة والقيام بمهام الحكومة الإسلامية وإقامة حكم الله على الأرض. الإمام بعد الثورة كان الخميني، والإمام الحالي هو علي خامنئي، وسلطاته ربانية وفوق الجميع. لكن إيران تمارس الانتخابات والنظام البرلماني شكلياً، وإن كان الدستور والأحكام يعتمدان على التفسير الديني. أما فيما يخص الموقف السياسي؛ فتعتبر إيران نفسها منتصرة منذ الاتفاق النووي مع الغرب، ثم حمايتها النظام في دمشق، وإفشال الأهداف السعودية التركية الأميركية هناك. لقد دعمت إيران بشكل فعال سورية والعراق عبر إرسال السلاح والحرس الثوري وميليشيات الحشد الشعبي وحزب الله، الذين شاركوا بجدارة مع الأكراد والقوات الجوية لدول التحالف في القضاء على داعش ومنظمات إرهابية أخرى.». تردد المحاضر ثم أضاف: «.. من هذا المنطلق فإن هذه الإنجازات الايرانية ضد رعب داعش وكراهية عموم المسلمين لها، ومع انتشار اقتناعاً بوجود

تقارب وهابي يهودي مسيحي أميركي يلوح في الأفق، وموجه ضد القضية الفلسطينية وضد إيران، فسوف يُكسب الأخيرة تعاطفاً شعبياً سنياً ويدفع المنطقة للبقاء تحت سيف الدين، ولكن الآن برؤية ولاية الفقيه هذه المرة.. لهذا بالذات نرى تحرك النظام التركي لتسجيل المواقف لاستعادة كسب جمهور السنة على طريق إحياء الخلافة العثمانية مجدداً».

«في كل مرة تتصدى حركة دينية لحركة أخرى فالنتيجة حتمية، من سيئ إلى أسوأ، وقد مرت أوروبا بهذه التجارب ولم تصل إلى وضعها الحالي بسرعة وسهولة، ولكن بداية التقدم كانت حين انتشر اقتناع الفصل بين الدين والدنيا، والعالم الإسلامي سيدور قروناً حول الساقية نفسها إذا لم توجد القوى الاجتماعية المؤيدة للفصل». جاء هذا الاستنتاج من أحد الحاضرين الألمان الذي يعرفه الشاب المحُاضر جيداً فأصغى إليه باهتمام واستحثه على الاسترسال؛ فأضاف: «لا اعتراض على الدين والتدين والطقوس لمن يريدها، فالكنائس لم تُمنع أو تغلق في أي بلد علماني أوروبي. لكن الاعتراض يجب أن يكون على قانون وحكم ديني، إذ لابد لهذا القانون والحكم أن يكون رجعياً وقمعياً ليضمن بقاء الحاكم الذي يحكم بالدين الذي يعطيه شرعية أبدية.. إنه تحالف غير مقدس بين الحاكم والدين لا يدوم سوى بالعنف والتضليل.. لذلك؛ هم يمنعون النقد، ويراقبون ويكفرون ويقتلون كل من يطالب بفصل الدين عن الدولة، ويكفرونه ولن يسمحوا بتطبيق الفصل طوعاً لأنه نهاية حكمهم وامتيازاتهم التي لا تُعد ولا تُحصى. كلما كبرت الغنيمة تعمقت المأساة. بالمال الوفير يمكنك استرضاء العالم المستفيد، وبوسعك شراء فئة كبيرة من الشعب عبر الهبات والسفريات للعلاج والرفاهية في الخارج والإعفاء من الضرائب.. أي توفير مداخيل للناس بدون قيامهم بنشاط اقتصادي وذلك لشراء

الجمهور وقبوله الوضع.. أي قبول اعتبار أن الدين دولة، وبالتالي؛ القوانين مقدسة، ونسق العلاقات مقدس، والوضع الاجتماعي مقدس لأنه مرتبط بالدين، وبالطبع؛ الحاكم وسلالته مقدسان. مع استمرار هذا الوضع قروناً طويلة وأجيالاً متتالية يصبح مثل هذا الحال طبيعياً وتستحكم في الناس طباع تقبل الاستعباد، وتصبح باطنية لديهم وتنبع من دواخلهم، ويساورهم بالطبع الخوف من التغيير ومن فقدان الفتات الذي يمنحهم إياه الحاكم، وقد تجدهم كلهم مجمعين على كراهية باطنية للحاكم، ولكنهم تعودوا ما هم عليه من نفاق وقنوط، ينتظرون أن يمن عليهم السلطان بالتغيير فيهللوا».

كان الشاب المُحاضر يسجل ملاحظات على ما يسمعه من أستاذه الذي يشرف على رسالته للماجستير. أما جودت فقد ذهب بأفكاره بعد أن شاهد الصور التي وصلته من ألزه فيما إذا وصل الشعب الفلسطيني إلى أبواب قبول الظلم الواقع من المحتل والتخاذل من رجال السلطة نظراً إلى طول الاحتلال وتعودهم إياه وقبض الرواتب عبره، ومعظمها أموال أميركية. وطرأ تساؤل في ذهنه إذا كان الأتراك يسكتون عن تصرفات أردوغـان آملين أن يعيدهم إلى عهد الخلافة، وإلا كيف يتجاهلون الاعتقالات والمحاكمات العسكرية لعشرات آلاف الموظفين والنخبة في البلاد بحجة أنهم أتباع لشخص متهم بالعلمانية وأنه كان يدير دولة داخل الدولة.. إنه سحر الخلافة وشر العلمانية في الضمير الشعبوي الإسلامي.

سِر العداءِ الإسلامي للعلمانية

راجع حميد مراراً النص أدناه الذي كتبه للبروفيسور، وقرر ألا يزيد في حجمه، فقد احتوى على الخلفية التاريخية والأسس التي لا زالت تعيق التفاهم والتراضي بين جوهر العلمانية من جهة والعرب والمسلمين من جهة أخرى. كما أن البروفيسور لم يطلب منه آنذاك، حين احتسيا القهوة في مكتبه، حجماً معيناً وإنما تمنى عليه البحث في أسباب العداء للعلمانية حتى يتوسع هو بفصلٍ خاصٍ عن القضية في كتابه قيد الإعداد.

من الواضح وجود عداوة متجددة بين المسلمين، وليس الإسلام، والعلمانية. لماذا إذاً هذه العداوة؛ علماً أن القرآن الكريم ركز مراراً وتكراراً على ضرورة استعمال العقل؟ هناك سبب قديم أصبح متأصلاً للعداوة مع العقل والعلمانية، وسبب أحدث مر بالمسلمين منذ قرن من الزمان، وأسباب فرعية جارية مثل إهمال المطالعة والاتكالية الفكرية.

السبب الأساس أن الدولة الإسلامية منذ نشأتها قامت على أساس عدم معارضة الحاكم، وتأسس ذلك في الضمير والفعل الإسلامي على مر القرون وتعزز بفعل وقول وتبرير علماء السلاطين. هكذا قيل للناس إن الحاكم يأمر بأمر الله والشرع، ومن يخالفه إنما يعارض الدين، ومن يفعل ذلك تنتظره تفسيرات علماء السلطان بأنه أصبح مرتداً وكافراً يجب قتله وسبي حريمه وأمواله. هكذا كان ميلاد معارضة وعداوة المسلمين على مر العصور للعلم غير القرآني وللعلمانية التي تطورت بعيداً عن المسلمين

لتطالب بإعطاء دور للعقل وللشعب للتعبير عن رؤاه وأخذ الحقوق وليس تقديم الواجبات فقط، وبالتالي؛ اعتُبرت العلمانية رديفة للكفر ومن صفات الملحدين، لأنها تشكك في الحاكم وتصرفاته وبوسعها انتخابياً تغييره إذا لزم الأمر، وهي في الأصل تحد من سلطته الزمنية لكونها تسمح بتداول الحكم.

السبب الثاني تعزيزي للأول. قبل قرن من الزمان؛ انهزمت السلطنة العثمانية، وحين عُقد مؤتمر لوزان في سويسرا لتوقيع اتفاقية منح تركيا الحديثة الاستقلال، أصر الإنجليز، المنتصرون، على عدة مطالب قبل أن يوافقوا على استقلال تركيا. مثل: إنهاء الخلافة وعدم العودة إليها والتنازل عن ممتلكاتها الخارجية، طرد كل آل عثمان من البلاد، إعلان تركيا دولة علمانية. رفض الوفد التركي في البداية هذه الشروط وعاد إلى إسطنبول حيث انقلب أتاتورك على المجلس وعاد إلى المفاوضات ووافق على طلبات الإنجليز. هكذا أصبحت العلمانية مفروضة على المسلمين، ونُظر إليها سلبياً، كما أنها أنهت الخلافة في نظر المسلمين وأصبحت بديلاً لها، وجاءت من رأس الاستعمار العالمي ،بريطانيا، فلا بد أن تكون عدوة للإسلام. أتاتورك لم يكن يفهم العلمانية إلا من منطلق معاداة المظاهر الإسلامية في البلاد، فمنعها مما زاد كراهية المجتمع للعلمانية. لم يتسلم أتاتورك الحكم عبر انتخابات شعبية، ولم يسمح بتغيير الحاكم (نفسه) ديمقراطياً إذ حكم ثلاث دورات، من توليه حتى مماته في نوفمبر ١٩٣٨، وهذا أبعد ما يكون عن روح العلمانية.

السبب الثالث أنه بعد نهاية الاستعمار للدول العربية ومنحها استقلالها على يد المستعمر، شكك المسلمون الراديكاليون الساعون للحكم الثيوقراطي، شككوا في قوانين وإدارة الدول الحديثة بالرغم من

أنها لم تمنع الإسلام ومظاهره، ولم تحد من قوانينه كما فعل أتاتورك، ولم تمنع إمكانية تسلم أحزاب دينية الحكم أو التعاون معها في الإدارة والسلطة.. بالرغم من ذلك شكل الأصوليون والسلفيون أحزابهم وعارضوا الدول المستقلة وقدموا شعاراً غير مبرمج بأن «الإسلام هو الحل» والماضي هو الهدف المنشود، وأشيع أن العلمانية هي الكفر، واستشهدوا بسوء أفعال حكومات ورؤساء عرب ومسلمين يدعون الانتماء إلى العلمانية.

لم ينظر أعداء العلمانية إلى حقائق مثل:

أن كل الدول العلمانية الأوروبية لم تمنع الناس عن الدين المسيحي أو اليهودي أو الإسلامي أو حتى البوذي والهندوسي وأي دين آخر، ولكنها عبر القوانين تمنع تولي الحكم باسم الدين، أو اللجوء إلى القوانين الدينية في الفصل بين الناس. أي توفير الحرية للأديان والدعم المالي والضريبي للكنائس والكنس والمساجد، ولكن مع فصل الدين عن الدولة.

إن الأصوليين على أنواعهم وطوال فترة الاستقلال عن الاستعمار حتى الآن كانوا يلجأون إلى البلاد العلمانية هرباً من بلادهم، وتلك البلدان العلمانية لم تمنعهم من ممارسة دينهم ونشره ومنحتهم حرية القول للتعبير عن رؤاهم السياسية. هذا الموقف كان يفترض به أن يشفع للنظام العلماني الديمقراطي. لقد كان الإسلام الأكثر انتشاراً في الدول العلمانية قبل الربيع العربي وما أدى إليه من إرهاب. لقد فاقت المساجد في ألمانيا تعداد الكنائس وكان الإسلام الأسرع انتشاراً في الولايات المتحدة. القصد هنا هو الإشارة والتأكيد أن العلمانية لا تعادي الدين ولا تعادي الإسلام وإنما تفصل بين الدين والدولة وتُقر بحتمية اختيار الحاكم ديمقراطياً في انتخابات دورية.

الذين تهجروا ودمرت بيوتهم وقُتل أهلُهم وخُربت مدنهم وأوطانهم

من جراء الصراع المسلح بين المنظمات الجهادية المسلمة وبعضها، أو بينها وبين الأنظمة، لم يجدوا دولة ثيوقراطية إسلامية تستقبلهم وتخفف من آلامهم، ولكنهم رحلوا وعبروا البحار إلى البلاد العلمانية، أي إنهم صوتوا للعلمانية بقلوبهم وأقدامهم وأذرعهم.

أحدث التقارير الأمنية في الدول العلمانية (أوروبا سبتمبر ٢٠١٧) تؤكد وجود عشرات آلاف الراديكاليين الإسلاميين الآن والذين وصلوا إلى أوروبا متخفين بين اللاجئين. في بريطانيا فقط يقول التقرير بوجود ٣٥ ألف متطرف منهم خمسة آلاف خطرين وهناك ٥٠٠ تحت الرقابة الأمنية الدائمة خوفاً من قيامهم بعمل إرهابي جديد.. لأن القانون في الدول العلمانية يمنع الاعتقال بدون وجود إثبات ودلائل، يجول الخطرون بحريتهم وغالباً ما تفشل الأنظمة الاستخبارية في الدول العلمانية في الإمساك بهم قبل تنفيذهم عمليات الدهس والطعن للمدنيين.. لكن الدولة العلمانية تصمد وتحافظ على سيادة القانون بعد كل عملية، ولا تفكر في التعسف ضد المسلمين أو ترحيل اللاجئين أو منع وصولهم وإغاثتهم.

الدول الثيوقراطية هي تلك التي تُحكم من سلالة أناس باسم الدين. تطبق تفسيرات علماء السلاطين على مر العصور للدين الذي يعني الإذعان للحاكم وعدم التفكير في تغييره. وهي الدول التي تطبق التفسير السلبي للأحكام، وتحاكم وتقمع كل من يفكر في انتقاد النظام، وبدون شك فالعلمانية هي العدو الأول للإسلام بالنسبة إلى تلك النظم الثيوقراطية التي تروج: ما تقوله العلمانية كفر، وما تفعله جهالة وضلال، والإسلام أفضل ألف مرة من ديانة الدول العلمانية، والمسلم ،أي مسلم، خير من أي خنزير من شعوب الدول العلمانية.. هكذا وجدت وتأصلت العداوة بين العلمانية والإسلام.

العلمانية ليست ضد أي دين، لكن الرافض للعلمانية هو الإنسان الجاهل لماضيه، الخانع لحاضره، المُريح لعقله، المنصاع لإشاعات وأقاويل علماء السلاطين المنتفعين، وهو المردد للإشاعات المضادة للعلمانية، ويدفع ثمن رفضه للعلمانية من قوت يومه وبتر حريته، ويعيش ضمن ظاهرة القطيع. الإنسان الرافض للعلمانية، على الأرجح، لا يفهم دينه على أصوله، قد يطبق العبادات أوتوماتيكياً، ولكنه لا يطبق أخلاقيات الدين، بينما الإنسان العلماني يكون عكس ذلك، ربما يطبق العبادات لدينه أو لا يطبقها، ولكنه غالباً ،وبنسب عالية جداً، يطبق ويتناغم مع الأخلاقيات الدينية، وتلك الأخلاقيات الأحدث أيضاً، مثل النظام ونبذ الأنانية. الإثبات لهذه المقولة نجده على لسان المفكرين العظماء مثل الدكتور طه حسين، وأيضاً لدى الناس العاديين الذين يزورون بلدان العلمانية، فيعودون يمدحون ما شاهدوا من حسن تصرف وأخلاقيات وانعدام الأنانية وغير ذلك، ويقولون إن الفرنسيين أو الألمان أو غيرهم في الغرب إسلاميون أكثر منا، ونحن هنا في أوطاننا كفار أكثر منهم. أو القول ما معناه: هم كفار (علمانيون) يطبقون الإسلام أفضل منا. هذا طبعاً لأن المسلم يعرف أخلاقيات الإسلام الجميلة ولكنه لا يطبقها أبداً، وأكثر ما يفعله هي العبادات التي تصبح جوفاء بدون السير على النهج الأخلاقي والتعاملي، فالعبادات تتويج للأعمال وليست الأساس للإسلام أو أي دين سماوي آخر.

كيف إذاً ولماذا يعيش المسلمون هذا الانفصام؟ راقب الموظفين في أية دائرة حكومية ستجد (بنسب متفاوتة بين البلدان والدوائر) التالي: الذين يصلون متأخرين إلى أعمالهم في الصباح هم الذين يتوقفون عن العمل قبل ساعة من موعد الصلاة ويعطلون مصالح الناس، وهم على الأرجح

لم يفيقوا فجراً للصلاة. هؤلاء يصومون نعم، ولكنهم لا ينجزون عملاً أثناء شهر الصوم، هم يحجون أيضاً ولكنهم يعودون إلى طباعهم نفسها: معاملة الناس بنفاق وكذب وتسلط وتلاعب في الفواتير وتقاسم للرشوة ونهب للمال العام، أو أقله استعداداً للنهب إذا جاءت الفرصة. أيام الجُمع لا تتسع المساجد على كثرتها للمصلين أنفسهم الذين يمارسون ما هو منكر أخلاقياً في بقية الأوقات من مخالفة النظام ومتطلبات الصحة العامة وإزالة الأذى عن الطريق، حتى ممارسة التعذيب والسطو والاغتصاب والرشوة والغش والقتل أو السكوت عن القتل والظلم. هذه ليست نظرة عشوائية سوداوية ولكنها مدعمة بالعلم الحديث. معاهد الأبحاث الدولية والأممية تؤكد لنا سنوياً ما نعرفه ونراه ونواصل ممارسته.. الدول العربية الإسلامية تحتل المراكز الأولى في الرشوة والفساد والتحرش الجنسي وقلة إنتاج الكتب وقراءة ربع صفحة للفرد سنوياً، ولكن هذه الدول هي الأكثر تديناً على وجه الأرض من حيث ممارسة العبادات حسب دراسات تلك المؤسسات البحثية.

المجتمع هو جمع أفراد، وإذا كان غالبية هؤلاء يخالفون الأخلاقيات؛ فهم مرضى بانفصام الشخصية بين ادعاء التدين وممارسة المخالفات، ومجتمعهم؛ بالتالي مريض يعاني انفصام العقيدة عن السلوك. من بين الأسباب لهذا المرض هو وجود وسيادة الدولة الثيوقراطية، وأنصارها المنتشرين عبر الوطن العربي. النظام الاستبدادي يؤدي إلى الانفصام، وإلى تعمق انتشار الدين الإجرائي وليس السلوكي، وإلى منح المتدين صفات الإيمان حتى مع انعدام التعليم الأخلاقي. حين لا يوجد تدين مصحوب بالأخلاق، فالأخلاق وحدها بدون تدين تكون أفضل للمجتمع. هكذا نرى أن المجتمعات العلمانية سواء أكانت متدينةً أو ملحدةً أو مختلطةً

بين التدين والإلحاد، هي مجتمعات فاضلة لالتزامها بالأخلاق الدينية أو العامة والحديثة. أما المجتمعات الثيوقراطية فهي الأكثر انفصاماً في حياتها وتعاملها على مستوى الدولة أم المجتمع أم تصرف الأفراد. الذكر والأنثى في المجتمعات الثيوقراطية يتقبّلان كل القيود الشخصية المفروضة عليهما، وعندما تُقلع بهما الطائرة إلى أوروبا يتحولان شكلياً إلى أوروبيين قبل هبوط طائرتهما، وهذا هو أحد أشكال الانفصام، فهما يرضخان لما يُفرض عليهما ويحرران نفسيهما متى أُتيحت الفرصة، ولا مجال هنا للحديث عن الاقتناع.

نعود إلى سؤال: هل أوروبا العلمانية كافرة، أو معادية للأديان وللدين الإسلامي؟ لندرس باختصار مثال أسبانيا مع السوق الأوروبية. حتى نوفمبر ١٩٧٥ كانت أسبانيا دولةً ثيوقراطية يحكمها الدكتاتور فرانكو بدعم مباشر من الكنيسة الكاثوليكية واعتبار هذا دين الدولة ومنع الديانات الأخرى في البلاد وتحريم الانتخابات طبعاً طالما اتحد الدين مع الدولة والحاكم. مات فرانكو وتغير النظام إلى ملكي (ديمقراطي) وتقدمت مدريد بطلب انضمام إلى السوق الأوروبية المشتركة (العلمانية) فكان الرد بالترحيب ولكن وفق شروط سياسية وأخرى اقتصادية. سياسياً؛ طلبت أوروبا تغيير الدستور وإلغاء وحدانية الدين الكاثوليكي والسماح بحرية اعتناق الأديان للأفراد، وأيضاً طلبت أوروبا منح النساء حقوقاً متساويةً مع الرجال. استجابت أسبانيا وطبقت ومارست الانتخابات وقبلت في السوق وقفزت اقتصادياً وانفتاحاً. النتيجة التي نريد تأملها أن هذه الشروط من أوروبا العلمانية أعادت الإسلام واليهودية وبقية الأديان إلى المجتمع الإسباني الذي أخذ يسوق ماضيه الإسلامي سياحياً وأقيمت المساجد أينما وجد وأراد مسلمون إقامتها. أصبحت إسبانيا علمانية تمنح الأفراد حق الانتماء الديني والممارسة ولكن بعيداً عن السياسة والقانون والتشريع.

كل الدول العلمانية في العالم تَخصم ضريبة دينية (كَـنسية) من الموظفين وتُسخرها لأعمال تخص الإيمان وديمومة الدين، لكن كل موظف له الحق أن يرفض خصم هذه الضريبة من راتبه وأن يستردها إذا رغب في ذلك، أي دعم من يريد لمن يريد، وليس حرمان الديانات أو فرضها على الأفراد والمجتمع. في الدول العلمانية اختير يوما السبت والأحد عطلة عن العمل لتتاح الراحة لمن يريد والتعبد في الكنيسة لمن يريد، تماماً كما هي الحال في الدول الإسلامية بتخصيص الجمعة. الهدف من هذه الأمثلة هو تبيان أن العلمانية ليست كفراً بأي دين، وليست معاديةً للإسلام. هي تسمية لما آلت إليه المجتمعات بعد فصل الدين عن الدولة، وتنمية للأخلاقيات المتعارف عليها في كل الأديان مثل التزام الحق وتطبيق العدل والسعي إلى الحرية، وإضافة أخلاقيات تطورت مع العلم والمجتمعات الصناعية وفي مقدمتها أخلاقيات النظام والحد من الأنانية واحترام الآخر.

قبل أن يُنهي حميد هذه الدراسة الموجزة التي طلبها أستاذه، جمع تعريفات أكاديمية وخلفيات تاريخية للعلمانية يمكن أن يستفيد منها البروفيسور في كتابه المزمع:

التعريف العلمي الأكاديمي للعلمانية: هي فصلُ الحكومة والسلطة السياسية عن السلطة الدينية أو الشخصيات الدينية. تختلف مبادئ العلمانية باختلاف أنواعها، فقد تعني عدم قيام الحكومة أو الدولة بإجبار أي أحدٍ على اعتناق وتبني معتقدٍ أو دينٍ أو تقليدٍ معينٍ لأسباب ذاتية غير موضوعية. كما تكفل الحق في عدم اعتناق دينٍ معينٍ وعدم تبني دينٍ معينٍ ديناً رسمياً للدولة. وبمعنى عام؛ فإن هذا المصطلح يشير إلى الرأي القائِل بأن الأنشطةَ البشرية والقراراتِ – وخصوصاً السياسية منها – يجب أن

تكون غير خاضعة لتأثير المُؤسسات الدينية. وليس غريباً أن (الموسوعة العربية العالمية) الصادرة في المملكة العربية السعودية تعتبر العلمانية جزءاً من (التيار الإلحادي). في المقابل تقدم دائرة المعارف البريطانية تعريف العلمانية بأنها: «حركة اجتماعية تتجه نحو الاهتمام بالشؤون الدُنيوية بدلاً من الاهتمام بالشؤون الأخروية. وهي تُعتبر جزءاً من النزعة الإنسانية التي سادت منذ عصر النهضة، الداعية إلى إعلاء شأن الإنسان والأمور المرتبطة به، بدلاً من إفراط الاهتمام بالعُزوف عن شؤون الحياة والتأمل في الله واليوم الآخر. وقد كانت الإنجازات الثقافية البشرية المختلفة في عصر النهضة أحد أبرز منطلقاتها، فبدلاً من تحقيق غايات الإنسان من سعادة ورفاهٍ في الحياة الآخرة، سعت العلمانية في أحد جوانبها إلى تحقيق ذلك في الحياة الحالية».

مصطلح العلمانية في اللغة العربية مشتق من مفردة عَلَم وهذا ينطبق على اللغات السامية الأُخرى؛ أما الاشتقاق في الإنجليزية والفرنسية فيأتي من اللغة اليونانية ويعني «العامة» أو «الشعب» بمعنى أنها عكس ونقيض الطبقة الدينية الحاكمة، وتعمق هذا المعنى في عصر النهضة الأُوروبية وأصبح يشير إلى القضايا التي تهم العامة والشعب. في اللغات السريانية لا علاقة للمصطلح بالعلوم وإنما يشير إلى الاهتمام بالقضايا الأرضية، وليس العالم الروحي الماورائي.

الفيلسوف سبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) كان أول من أشار إلى محتوى العلمانية إذ قال إن الدين يحول قوانين الدولة إلى مجرد قوانين تأديبية. وقال أيضاً إن الدولة هي كيان متطور تحتاج دوماً إلى التطوير والتحديث، على عكس الشريعة الثابتة الموحاة. فهو يرفض اعتماد الشرائع الدينية مطلقاً مؤكداً أن قوانين العدل الطبيعية والإخاء والحرية هي وحدها

مصدر التشريع. وفي الواقع فإن باروخ سبينوزا عاش في هولندا التي كانت أكثر دول العالم حرية وانفتاحاً آنذاك، ومنذ استقلالها عن إسبانيا، طور الهولنديون قيماً جديدة، وحولوا اليهود ومختلف الأقليات إلى مواطنين لهم حقوق كاملة، وساهم جو الحرية الذي ساد إلى بناء إمبراطورية تجارية مزدهرة ونشوء نظام تعليمي متطور، فنجاح الفكرة العلمانية في هولندا ،وإن لم تكتسب هذا الاسم، هو ما دفع حسب رأي عدد من الباحثين ومن بينهم البريطانية كارن آرمسترونغ (مؤلفة معاصرة لعدة كتب في مقارنة الأديان) إلى تطور الفكرة العلمانية وتبنيها كإحدى صفات العالم الحديث.

الفيلسوف الإنكليزي جون لوك (١٦٣٢ حتى ١٧٠٤) كتب في موضوع العلمانية: «من أجل الوصول إلى دين صحيح، ينبغي للدولة أن تتسامح مع جميع أشكال الاعتقاد دينياً أو فكرياً أو اجتماعياً، ويجب أن تنشغل في الإدارة العملية وحكم المجتمع فقط، لا أن تُنهك نفسها في فرض هذا الاعتقاد ومنع ذلك التصرف. يجب أن تكون الدولة منفصلة عن الكنيسة، وألا يتدخل أيٌّ منهما في شؤون الآخر. هكذا يكون العصر هو عصر العقل، ولأول مرة في التاريخ البشري سيكون الناس أحراراً، وبالتالي؛ قادرين على إدراك الحقيقة».

تعريف مختصر للعلمانية يمكن إيضاحه بالتصريح التالي لثالث رؤساء الولايات المتحدة الأميركية توماس جيفرسون: «إن الإكراه في مسائل الدين أو السلوك الاجتماعي هو خطيئة واستبداد، وإن الحقيقة تسود إذا ما سمح للناس بالاحتفاظ بآرائهم وحرية تصرفاتهم». هذا التصريح جاء لوسائل الإعلام بعد أن استعمل الرئيس حق النقض عام ١٧٨٦ ضد اعتماد ولاية فيرجينيا للكنيسة الأنجليكانية ديناً رسمياً، وقد أصبح الأمر مكفولاً بقوة الدستور عام ١٧٨٩ الذي فصل الدين عن الدولة رسمياً فيما

أطلق عليه «إعلان الحقوق». ويفسر عدد من النقاد ذلك الإجراء بأن الأمم الحديثة لا يمكن أن تبني هويتها على أيٍ من الخيارات الطائفية، أو تفضيل الشريحة الغالبة من رعاياها سواء في التشريع أو في المناصب القيادية، فهذا يؤدي إلى تضعضع بنيانها القومي من ناحية، وتحولها إلى دولة تتخلف عن ركب التقدم نتيجة قولبة الفكر بقالب الدين».

***

«عزيزي البروفيسور يورجن المحترم. لقد تطرقنا في محاضرات هذا الفصل مراراً إلى ظروف الدول العربية، ومن ضمنها المملكة العربية السعودية. في الشهور الأخيرة (سبتمبر/ديسمبر ٢٠١٧) حدثت هناك تطورات مهمة، أرى من الضروري الإشارة إليها حتى تراقبها، وربما تُراعيها في كتابك القادم. في شهر سبتمبر اعتقلت السلطات مجموعة من علماء الدين الكبار الذين كانوا يحرسون إجراءات تنفيذ المبادئ الوهابية ويوجهون الجمهور عبر الفتاوى والإرشاد بالبرامج الإعلامية، لم يكن هناك سبب وجيه معلن لاعتقالهم. اتضحت الصورة قليلاً بعد أيام حين سُمح للنساء بالمشاركة في احتفالات العيد الوطني والاختلاط مع الرجال في أكبر استاد رياضي في العاصمة الرياض، وبعد يومين صدر قرار ملكي بالسماح للنساء بقيادة السيارات، فلم تعد المملكة هي الوحيدة عبر العالم التي تمنع السيدات من قيادة السيارات. طبعاً لم يعترض أحد من العلماء والشيوخ، غير المعتقلين، لأنهم أصلاً مُطيعون للملك والأوامر، وعلى الأرجح إن المعتقلين ارتاحوا من قرارات الاعتراض، وربما الاعتقال كان منسقاً معهم أصلاً حتى لا يجدوا في أنفسهم تناقضاً لو تقبلوا التغييرات، أو رفض الطاعة لو اعترضوا عليها كونها أموراً تتعارض مع ما كانوا له يروجون من تشريع وفتاوى خصوصاً ضد الإناث. أما الشرطة الدينية،

المطوعون، الذين كانوا يتدخلون في شؤون الناس الخاصة؛ فلم يظهر لهم أثرٌ يوم الاحتفال بالعيد الوطني، وبعد أيام حلت مؤسسة الشرطة الدينية بهدوء وأحيل الموظفون إلى أعمال أخرى. ثم نشر الإعلام في أكتوبر أن دور السينما سيعاد السماح لها بالعمل وأن يكون زوارها مختلطين، وكان قد تم إغلاقها لاسترضاء السلفيين بعد ظهور خطر الثورة الإيرانية. انتشرت أيضاً مقولة أن السعودية ستسمح بشواطئ يلبس فيها المايوه والبكيني، وليس البوركيني، على ضفة البحر الأحمر. هذا الأمر تعزز بعد أيام حين تم الكشف عن مشروع (نيوم) الذي سيقوم على مساحة كبيرة مستعملاً أراضي مصرية أردنية، كما قيل، وأراضي سعودية بالدرجة الأولى، ولن يكون تابعاً للسعودية إلا في مجال السياسة الخارجية والأمن، لكن القوانين في هذه المدينة العملاقة المراد الانتهاء من إقامة المرحلة الأولى منها عام ٢٠٢٥ كلها قوانين وممارسات عالمية جديدة».

«أستاذي المحترم. هذا التغيير ناتج من الضغوط الخارجية التي اشتدت بعد تدمير البرجين في نيويورك في سبتمبر٢٠٠١ بمشاركة شبان سعوديين، وتبني تنظيم القاعدة، الذي ولد وترعرع في السعودية، لتلك الحادثة. هدأت الأمور بعد ذلك قليلاً ولكن بعد تجدد الإرهاب في المنطقة والعالم عموماً على أيدي أيديولوجيات وهابية، وبعد الخلاف القطري السعودي واتهام الرياض للدوحة بمناصرة ودعم الإرهاب، كانت ردود الفعل الدولية رسميا وشعبياً أن النظامين يشتركان في دعم الإرهاب، ويختلفان في دعم أيديولوجياته، فقطر تدعم الإخوان المسلمين والرياض هي أم الوهابية وأبوها التي هي خلفية الإرهاب الأشد وحشية مثل داعش، وكلتاهما تدعمان منظمات جهادية صنفت إرهابية. هكذا لم يكن أمام النظام في الرياض لإنقاذ نفسه من التناقض والنقد، والحفاظ على دوره

في قيادة الإسلام السني، ومنافسة حركة الإخوان المسلمين وتطلعات تركيا لإحياء العثمانية، سوى التظاهر بالتخلص من الوهابية أو من بعض مبادئها، وشن الحرب والاتهامات لحركة الإخوان وتحميلها مسؤولية الإرهاب، واتهام المنظمات الجهادية الشيعية بالإرهاب المدار من طهران. قيادة السعودية للعالم الإسلامي السني تواجه تحديات من حركة الإخوان ومن تركيا المتحالفة مع الاخوان والتي نشطت لإقامة قواعد عسكرية في قطر على الخليج وفي السودان، ذات النظام الإخواني، على البحر الأحمر، أي على طرفي السعودية. أضف لذلك أن قيادة السعودية للعالم السني واجهت اندحاراً في الجبهة السورية حيث تعاضدت ايران وروسيا، كما تواجه السعودية حرباً في اليمن ضد أنصار ايران هناك».

«وكأن كل تلك المتغيرات الخارجية لا تكفي، وجدنا ولي العهد السعودي يعتقل أمراء ووزراء ورجال أعمال بتهم الفساد، ويطالبهم بدفع أموال طائلة مقابل الإفراج عنهم وبدون تقديمهم لمحاكمات علنية توضح حجم وكيفية فسادهم. هل يستمر النظام في هذا التعديل (الاجتماعي والسياسي)، أم يتوقف عند تلك الخطوات؟ ظني ان الوضع لن يستقر، خصوصاً مع اتضاح بوادر انفتاح على إسرائيل، وظهور خلافات واتهامات عربية متبادلة تجاه موقف الرئيس الاميركي ترامب وإعلانه نقل السفارة الاميركية من تل أبيب إلى القدس».

«أستاذي، النظام في الرياض لن يعلن قريباً أن هدفه الإصلاحي يراد منه الوصول إلى نظام ملكي دستوري يسمح بانتخابات دورية، فكل التعديلات الشكلية ستهدف إلى ذر الرماد في العيون، وسيعني هذا الاستمرار في جوهر المنهج الوهابي الرافض لأية فكرة تؤدي إلى احتمال تغيير الحاكم عبر إرادة شعبية انتخابية. وأكثر ما قد يصل إليه الإصلاح

في العهد الجديد هو تقليد تجربة الإمارات العربية المتحدة بتطبيق قشور علمانية منفصلة تماماً عن الجوهر الديمقراطي للعلمانية، فلا يوجد أصلاً علمانية بدون ممارسة الديمقراطية، خصوصاً إذا كانت قشور العلمانية محصورة في واحة منعزلة من الاجراءات وسط أفكار صحراوية متوحشة. ربما تكون قد تبسمت لمجرد ذكر (نظام ملكي دستوري)، لكن السعودية شهدت في الماضي القريب حركة سياسية طالبت بمثل هذا النظام، وتزعمها (الأمراء الأحرار) بقيادة الأمير طلال بن عبد العزيز، وتم نفيهم إلى لبنان ثم مصر. الأمير طلال حُرم من نصيبه في الحكم إذ أعيد إلى الرياض بشرط عدم التدخل في السياسة، وهو الذي أحتج بالإضراب عن الطعام حين اعتقل ولي العهد محمد بن سلمان أبناءه الثلاثة كما أضرب عن الطعام ولده الوليد أثناء الاعتقال».

«أُستاذي، مع انتهاء عمليات استعادة الأراضي من تنظيم داعش؛ لم نشاهد أي أسرى أو قتلى دواعش علماً أن تعداد مقاتليهم قدر بستين ألفاً..!! أين ذهبوا؟ هل تسربوا إلى الصحراء، أم اختبأوا في مدن متنكرين، أم هاجروا مع اللاجئين؟ وأين مقاتلوهم الصغار الذين دربوهم على الإرهاب وأقنعوهم بحلاوة الاستشهاد؟ وهل استنبطوا أسلوب تواصل وقيادة جديداً مع معرفتهم ببداية الاندحار؟ إذا لم تكن داعش كلها من الأساس فيلماً هوليودياً، فعلينا توقع حروب إرهابية عابرة للقارات وطويلة الأمد.. أختم ملاحظاتي بالتذكير بأن الربيع العربي انحصر جغرافياً حتى الآن في حوض البحر الأبيض المتوسط، وعلينا ان لا نستبعد تجدد ربيع آخر في حوض الخليج هذه المرة».

«آمل أن تكون هذه الأفكار ذات فائدة».

المخلص/ حميد عبد الله